عادل سالم

في

الرصاصة الأخيرة

مجموعة قصصية

الإهداء

إلى حارات، وشوارع، وأزقة القدس القديمة.
إلى أولى القبلتين، ودرة المشرقين.

ثلاث أمهات وطفل واحد

شهرته فاقت الأوصاف، فإضافة إلى سعة علمه، وخبرته. هو طويل القامة، جميل الشكل. نظراته تدل على ذكاء متقد. بشوش. عيناه زرقاوان. سبحان الخالق!

أشهر طبيب متخصص في أمراض القلب. يعمل مديراً للمستشفى الأهلي، وله عيادة خاصة خارجية تغص دائماً بالمرضى الذين يأتون حسب المواعيد، وإن كان الواحد منهم محظوظاً، فقد يحظى بدور بعد شهر على الأقل.

"هذا الطبيب أمه أوروبية بالتأكيد. تزوجها أبوه عندما كان يدرس في بلاد الأجانب، وعاد بأمّه من هناك".

هكذا يقول المرضى عنه، فما أن يظهر لهم بطلّته البهية حتى تتحرك ألسنتهم.
علّقت إحداهن:
- ستكون محظوظة من تتزوجه، فهو مثل الشراب يا عناب.
قالت أخرى:
- وردة جميلة تحتاج من يسقيها.
تدخلت امرأة تنتظر مع أمها العجوز قائلة:
- يا حسرة! ليت زوجي مثله.
قال مريض يجلس في الزاوية مشاركاً المرضى في العيادة ثرثرتهم:
- الله يخليه لأهله. طبيب ماهر. لم أر الراحة إلا على يديه.
إحدى الأمهات حركت شفتيها يميناً وشمالاً ثم انبرت قائلة:
- هذا طبيب أمه راضية عنه، ومن ترض أمه عنه يوفقه الله.
أما المرأة العجوز الطاعنة بالسن فقد علقت:
- لو أرجع صبية لن تتزوجه امرأة غيري.

ضحك الجالسون في غرفة الانتظار، وضحك معهم أحمد عبد السلام الذي ينتظر معهم.
جاءت الممرضة المسؤولة، ونادت على المرضى، ثم وزعتهم على الغرف، وبدأت بإجراءات بعض الفحوصات العادية لهم مثل فحص ضغط الدم، ودرجة الحرارة، وسجلت المعلومات الأساسية على جهاز الحاسوب.

عيادة كبيرة، فيها عشر غرف، وخمس ممرضات، وطبيب واحد.
يا لهذا الطبيب الرائع! ليته كان ابني. قالها عبد السلام لنفسه، ثم أكمل بعد ثوان: لكنت أسعد الناس على الأرض.

بعد نصف ساعة دخل الغرفة الطبيب أيوب، بلباسه الأبيض ومعه ممرضة تلازمه، حيّا المريض الأول، ورحب به، وبدأ يتابع معه وضعه الصحي، ويراجع المعلومات على جهاز الحاسوب، ثم بدأ بإجراء الفحوصات اللازمة له. بعد انتهاء الفحوصات قال له الطبيب:

- سأحولك إلى المستشفى الآن لإجراء فحوصات شاملة فوضعك لا يُطمئن. هل معك أحد في الخارج؟
- لا يا دكتور. أنا وحدي، وزوجتي تركتها في البيت.
- وأين الأولاد؟ هل انشغلوا عن أبيهم؟
- ليتهم ينشغلون، لكن لا يوجد عندي أولاد. إرادة الله في خلقه.
- آسف.. لم أقصد إزعاجك. لا اعتراض على مشيئة الله.
- لا.. لم تزعجني يا دكتور. لقد قمت بواجبك. سأتصل بزوجتي وأخبرها.

غادر الدكتور أيوب الغرفة فيما كان أحمد عبد السلام يلهج بالثناء عليه، ويتحسر على عمره الذي ذهب سدى: تجاوزت الستين من العمر، وليس لدي ولد أعتمد عليه. زوجتي لم تنجب أولاداً. رفضت أن أتخلى عنها، أو الزواج عليها. هذه مشيئة الله.
هز رأسه ثم قال لنفسه: هل هي مشيئة الله، أم أنني كنت...؟ لا أدري. ماذا ينفع هذا الكلام الآن؟ آخ يا ختام لو لم تفعليها، لكان لنا ولد نعتمد عليه. كان بين أيدينا، فركبت رأسك وضيعته منا. تُرى أين أنت يا وليد؟ ما هي أخبارك؟ هل تتذكرنا؟ ليتني لم أستمع لها، لكن ماذا كان بوسعي أن أفعل؟
أنا لم أمارس تأثيراً عليها. استسلمت لأهوائها. كان علي أن أثبت وجودي معها. صبرت عليها، وكان عليها أن تقدّر ذلك.
أوه يا أحمد.. ما لهذا الكلام الآن؟ ما الفائدة؟ حادثة حصلت قبل ثلاثين سنة على الأقل، فلماذا تتذكرها الآن؟ البس ثيابك، واخرج إلى حيث أشار إليك الطبيب.

بعد انتهاء الدوام، جلس الدكتور أيوب يراجع سجلات مرضاه الجدد، خصوصاً ملف المريض أحمد عبد السلام الذي حوله إلى المستشفى لإجراء مزيد من الفحوصات.
أحمد عبد السلام، موظف سابق في دائرة الصحة. زوجته ختام مدرسة متقاعدة. ليس لديه أولاد. عمره خمسة وستون عاماً.
صمت الدكتور أيوب لحظة، ثم بدأ يردد اسم المريض: أحمد عبد السلام.. أحمد عبد السلام.. أحمد عبد الـ...

صور مكثفة بدأت تظهر إلى السطح مسرعة، ثم تختفي بسرعة كما جاءت، لدرجة يصعب معها أن يدقق فيها ليتبيّنها على حقيقتها. فجأة قال متمتماً: نعم.. إنه هو. يا إلهي.. كيف لهذه الدنيا أن تجمعنا من جديد، ولماذا؟

أغمض عينيه، وحاول بكل قوه أن يستعيد ذلك اليوم المشؤوم في مخيلته؛ ذلك اليوم الذي حمد الله أنه نسيه، ولم يعد يتذكره. إنه يوم شؤم. لحظات مؤلمة غيرت مجرى حياته كلها. إنها مثل صور قديمة، مهملة في ألبوم قديم، ما أن يقع بصرك عليها حتى تستعيد ماضي تلك الصور، بل ربما الماضي كله.

ألقى الدكتور أيوب الملف على سطح المكتب. أطفأ جهاز الحاسوب. وضع يده على رأسه.
الأحداث تعود إليه من الماضي بسرعة الضوء، أو كأنه هو يعود إليها ليحياها من جديد.
شد على قبضة يده. ضرب المكتب بقوة. الصورة بدأت تتضح تدريجياً حتى أصبحت واضحة المعالم، كما لو أنها حصلت الآن.

كان يصرخ باكياً: لا تتركاني.. لا أريد البقاء هنا. خذاني معكما. أرجوك يا أمي، لن أشاغب بعد اليوم. لن أصرخ. سأسمع كلامك. بابا حبيبي.. أنا أحبك يا بابا. لا تتركني.

كان يشد ببنطلون أبيه الذي كان يبكي لبكائه، ويمزق شعره، لكنه كان يختلس النظرات لزوجته ختام كأنه يرجوها أن تعيد ابنهما إلى البيت، لكنها كانت حازمة في مواقفها، ولم تذرف دمعة واحدة على الرغم من بكائه غير المنقطع وهي التي كانت تبكي إن بكى، وتسهر الليالي الطويلة على راحته. لم يكن يعي لماذا تغيرت تجاهه؟ أيعقل أن تترك الأم ابنها لأنه يضع يديه على كل ما يصادفه؟! كان مصدوماً غير مصدق أن أمه بتلك القسوة، كأن كل كلمات الحب التي سمعها منها كانت كذباً ورياء. كانت ماما ختام تقول له: سنعود إليك غداً.
لكنها لم تعد منذ ذلك اليوم.

بكاؤه وصرخاته لم تؤثر عليها، بل أثرت على المربية المسؤولة عن الملجأ، والتي بكت معه وحضنته لتمنعه من اللحاق بهما، ثم قدمت له الألعاب والحلويات، لكنه رفضتها كلها. استمر بالبكاء حتى نام والدموع تسيل من عينيه.

في اليوم التالي من تلك الحادثة، سأل المربية نسرين:
- متى ستعود أمي؟
كانت ترد عليه دائماً:
- غداً إن شاء الله.
لكنها بعد أسبوع قالت له:
- لقد سافرت أمك، ولن تعود.

حاولت أن تخفف عنه آلامه، فضمته إلى عائلتها بعد موافقة زوجها صالح، وسمته اسماً جديداً (أيوب). ربما لكثرة ما عانى من آلام فصار اسمه أيوب صالح، ثم أصبح يناديها: ماما نسرين، وينادي زوجها: بابا صالح.
أحبهما. أحباه. حاولا تعويضه من الصدمة التي ألمت به، فقدما له كل رعاية، وأرسلاه إلى أفضل الجامعات، فعاد إليهما طبيباً متفوقاً. عاد إلى البلد نفسه الذي تعذب فيه، ولكن رأى الحياة فيه من جديد.

كان مثل أبنائها الباقين (ثلاثة أولاد وبنتان)، وعندما كبر وأصبح في سن البلوغ اضطرت أمه نسرين أن تخبره رحلة آلامه الطويلة.

- حبيبي أيوب.. أرجو ألاّ تزعجك تلك الأخبار، لكن واجبي يحتم علي أن أخبرك. كنتَ طفلاً عمره ثلاثة شهور فقط عندما وصلتنا مع مجموعة من الأطفال الأيتام من البوسنة. لم نملك عنك معلومات كثيرة، ولم نعرف سوى أنك بلا أب أو أم، وكان علينا الاعتناء بكم، أو إيجاد عائلات مسلمه تتبناكم. وعندما بلغت ستة شهور، حضر إلى مكتبنا السيد أحمد عبد السلام وزوجته ختام لأنهما لا ينجبان أولاداً، وطلبا تبني أحد أولاد الملجأ، فوقع اختيارهما عليك. بعد اتخاذ الإجراءات اللازمة، حملاك من الملجأ بعد أن سمياك (وليد).
صمتت قليلاً، وقد بدأت تتأثر من الحديث، ثم تابعت:
- وفي أحد الأيام بعد حوالي أربع سنوات، عادا بك إلينا طالبين إعادتك إلى الملجأ. كنت مصدومة من قرارهما، وصحت بهما:
"كيف تعيدانه بعد أن تعود عليكما؟ أليس لكما قلب؟ أليس في قلبكما رحمة؟"
كان زوجها حزيناً. لم يكن راضياً، لكنه لم يستطع إقناعها، وكانت تقول بأنها لم تعد تتحمل مشاغبتك. وقد علمت فيما بعد أنها لم تعد تتحمل تعليقات الناس على وجود ولد أشقر معها بعكس لون أمه وأبيه. لقد جن جنونك عندما همّا بالخروج وتركاك في الملجأ. كنت تبكي بحرارة، رق لها الصخر، وقلبي أنا، فقررت منذ ذلك اليوم أن أمنحك كل حبي لأعوضك عن آلامك ورحلة عذابك، فسميتك أيوب تيمناً بالنبي أيوب عليه السلام.

أفاق الدكتور أيوب من رحلة استعادة تلك الحادثة عندما دخلت الممرضة تسأله إن كان يحتاج إلى شيء قبل مغادرتها العيادة.
نظر إلى الساعة وقال لها:
- يبدو أن الوقت قد تأخر، فلنغادر معاً.
وخرجا من العيادة منصرفين.

كان أيوب في الطريق إلى البيت يتساءل: كيف سيجري غداً بقية الفحوصات الطبية لأحمد عبد السلام، وهو الذي منحه الشعور بالحنان والأبوة، ثم رماه من بيته غير آبه بإحساس ذلك الطفل المسكين؟
كنت أحبه. كنت أقول له بابا، وأناديها ماما. طالما ركبت على كتفيه. كان يحضر لي الحلوى. كان يعاملني كابن!
كابن؟ إن كنت ابنه فلماذا تخلى عني؟ لو كنت ابنه الحقيقي هل كان سيستجيب لها ويتخليا عني؟ لا.. لا أصدق. لكني سأكمل معروفي. سأقوم بواجبي الطبي. سأعالجه، وأقدم له كل مساعدة ممكنة...
لكن لن أكشف له من أنا. لعل هذا الجرح يعود فيلتئم من جديد. ولن أخبر ماما نسرين، ولا بابا صالح. لن أثير لهما المتاعب. يكفي أني أحسه، وأتألمه.

في اليوم التالي، كشفت الفحوصات الطبية التي أجراها الدكتور أيوب على المريض أحمد عبد السلام أن أحد الشرايين المتصلة بالقلب لديه على وشك الانسداد، فاضطر إلى إجراء عملية جراحية له حتى لا يصاب بجلطة قلبية. انتقل أحمد عبد السلام بعد موافقته إلى غرفة العمليات، وأجرى الدكتور أيوب العملية التي تكللت بالنجاح.

في اليوم التالي من العملية..

يدخل الدكتور أيوب غرفة المريض أحمد ليطمئن عليه، فيرى عنده زوجته ختام تطعمه بيدها.

يهتز بدنه قليلاً عند رؤيتها بشعرها الذي شاب قليلاً. كان يستمع إلى صوت قادم من بعيد يقول له: هي نفسها، ماما ختام التي رمتك لتتخلص منك بعد أن علمتك كلمة ماما، وحرمتك منها في وقت كنت بحاجة إليها.

- أهلاً يا دكتور.

وقفت لتشكره.

نظر إليها وسألها:

- أنت زوجته؟

- أنا يا دكتور. هو زوجي وكل حياتي؟

نظر أحمد إلى الدكتور وسأله:

- متى سأخرج إلى البيت؟

- ليس قبل أن نطمئن عليك.

- أنا لا أعرف كيف أشكرك يا دكتور. لقد قدمت لي خدمة جليلة، أنا أدين لك بالولاء.

- يا سيد أحمد.. الشكر لله.

قالت ختام للدكتور أيوب، وهي ترفع يديها باتجاه السماء:

- الله لا يحرمنا من أمثالك يا ابني، ويخليك لأهلك. كان نفسي أن يكون لي ولد مثلك يعالج الناس المرضى، لكن آخ...

وبدأت تبكي.

قال لها الدكتور أيوب، وهو يهز رأسه:

- كلنا أولادك.

ضحكت ثم قالت:

- شكراً على المجاملة. أنت زي ابني تماماً. روح الله يجازيك كل خير، ويوفقك. يا قادر.. يا كريم.

كان يقول في سره:

- الآن تناديني يا ابني! يا لهذه الكلمة العظيمة التي تنازلت عنها بسهولة!

أنهى الدكتور أيوب حديثه معهما، وخرج من الغرفة. جلست ختام تقول لزوجها:

- دكتور بشوش وعلى خلق.. الله يحفظه لأمه وأبيه.
قال لها:
- آه يا ختام.. لو كان لنا ولد مثله.
صمت، ثم أكمل:
- لو صبرت على وليد لكان الآن في سنه!
- أتريد أن تفتح علينا جراح الماضي؟ هذا حظنا من الدنيا. قلت لك تعال نبحث عن ولد آخر، فرفضت.
- حتى لا يلقى مصير أخيه وليد.
- لقد شعرت بالخطأ يا أحمد، وأرجو أن تسامحني.

تغير وجهها، وسرحت في البعيد. كانت تحبه. كانت تكره من يسألها لماذا تبنته؟ فقد وهبته حنانها كله، بعدما حرمت من نعمة الأولاد. لم تعد تنتبه لما يقوله زوجها. تركته لثوان كأنها دهر. عادت فيها لتلك الأيام.
- حبيبي وليد، تعال واشرب حليبك.
كان منظره وهو يشرب الحليب يدغدغ في عواطف الأمومة. لعن الله كلام الناس. قتلوني بكلامهم. لم يتركوني بحالي. كانت كل من تراني ترمقني بنظرات عجيبة كأنها تسألني كيف يكون ابني أشقر؟ هل هذا من زوج سابق؟ أم أنني...؟ لعنهم الله. لم يتركوا كلمة نابية إلا وألصقوها بي، حتى أمي كانت تقول لي: "اسمعي يا ختام.. إذا جئت لزيارتنا فلا تحضري وليد معك". ولكنه ابني يا أمي، فتزم شفتيها وترد علي: "من أين ابنك؟ نحن عارفين البير وغطاه". ولكنه ابني رسميا، فترد أختي بعصبية: "لا تبني في الإسلام". أما زميلاتي في العمل، فقد كن يقلن لي: "هل تعرفين من تكون أمه الحقيقية؟ ألا يمكن أن يكون ابناً لقيطاً؟ لماذا تسلمه أمه للملجأ؟". ولكنه طفل بريء، ما ذنبه؟ قاومتهم. لم أرد عليهم. لكنني بعد سنوات انهارت كل مقاومة لي كما ينهار جدار كبير في يوم عاصف، أو كما يسقط جسر لم يعد يتحمل السيارات التي تسير فوقه مع أنه تحمل أكثر منها في سنوات مضت.
لم تفق من هذيانها إلا عندما دفعها زوجها بيده قائلاً:
- لقد سامحتك منذ زمان.. ألم تسمعي؟
مسحت دموعها، وقالت له:
- لو صبرت لكان عندنا الآن ولد في عمر الدكتور أيوب.
صمتت ثم تابعت:
- ترى إن كان وليد حياً الآن، وتذكّر ما فعلناه به، هل سيسامحنا؟ هل سينسى ما فعلناه به؟

بعد أسبوع من العملية الجراحية..

فتح الدكتور أيوب ملف المريض أحمد عبد السلام ليوقع على قرار السماح له بمغادرة المستشفى. نظر إلى صورته في الملف. وقع على الأوراق اللازمة، وقبل أن يعطي الملف للممرضة، أغلق عينيه لثوان وقال مخاطباً أحمد بصوت خافت:
- سامحتك.. سامحتك. اللهم اغفر لهما ما فعلاه معي.

تاجر الخردوات

كان يحمل كيساً ثقيلا على ظهره. يخترق الزحام متوجهاً من باب الخليل في البلدة القديمة من القدس إلى باب السلسلة. كان يصيح بأعلى صوته ليستطيع شق طريقه بين أمواج البشر في تلك الشوارع الضيقة: اوعى ظهرك.. اوعى رأسك (احذر ظهرك.. احذر رأسك).

كان الكيس قد أتعبه، فقد أمضى نهاراً كاملاً وهو يتنقل به من شارع إلى آخر، ومن زقاق إلى غيره. عندما وصل شارع طريق الهكاري الذي يمتد من باب السلسلة حتى حي القرمي، تنفس الصعداء. هناك تقدم من بسطة (أبو زكي) التي كانت تقع على تقاطع الشارعين مقابل محلقة زغلول الشهيرة في ستينيات القرن العشرين.
أنزل الكيس عن ظهره، ورماه أمام بسطة (أبو زكي) قائلاً:
- السلام عليكم.
- وعليكم السلام.
هب أبو زكي واقفاً، وقال له بعد أن شاهد الكيس:
- يبدو أنك هذه المرة وفقت كثيراً.
- يعني.. ماشي الحال. الحمد لله.
كان أبو زكي صاحب بسطة لشراء الخردة (الأواني النحاسية، التوتية، الرصاص، وغيرها من المعادن)، وبعد أن يجمعها يبيعها إلى شركات السكب، والحديد، والنحاس، حيث كانت له شبكة اتصالاته. أبو زكي طويل القامة أشهر من نار على علم، وبسطته في مكان مزدحم بالمارة. يعرفه كل سكان المنطقة، فقد غلب اسمه على اسم الشارع التركي.

فتح أبو زكي الكيس، وبدأ يقسّم الأدوات القديمة التي فيه حسب نوعها، فهذا نحاس أحمر، وهذا أصفر، وهذا رصاص... الخ. كان يفعل ذلك دون أن يستعين بمغناطيسه الكبير، فهو رجل خبير في مهنته؛ أكثر من ثلاثين سنة وهو في المهنة نفسها.

انتهى أبو زكي من تقسيم محتويات الكيس، ثم بدأ يوزنها بالميزان، ويسجل على دفتر وزن كل نوع، وسعره، ثم استدار إلى كامل صاحب الكيس وقال له:
- افرح يا حاج كامل.. اليوم دخلك خمسة دنانير وستون قرشاً.
ابتسم الحاج كامل وقال:
- الحمد لله.. الحمد لله. هذا رزق من رب العالمين.
مد يده إلى (أبو زكي) واستلم المبلغ، وهو في قمة سعادته.

أول شيء فكر فيه حلاقة شعره وذقنه، فدخل إلى محلقة زغلول المواجهة لبسطة (أبو زكي). رحب به زغلول، وأشار إليه أن يجلس على الكرسي الأوسط، ففي المحلقة ثلاثة كراسي للحلاقة، ويعمل لدية حلاقان آخران.

كان زغلول مشهوراً في البلدة القديمة، فمحلقته الوحيدة التي تضم ثلاثة كراسي، وهو حلاق قديم، وأهم شيء لسانه الذي لا يدخل فمه كعادة الحلاقين، فكل من يحلق عنده يخرج حاملاً كل أخبار البلد، ويخرج سعيداً بالحلاقة، فزغلول حلاق ماهر. يده كما يقول زبائنه خفيفة مثل دمه. صاحب نكته، وهو رفيع مثل (أبو زكي)، لكنه أقصر منه.
كان زغلول يحكي للحاج كامل أخبار البلد، فيما كان هو سارحاً يفكر بزوجته وأولاده؛ ماذا سيشتري لهم بالمبلغ الكبير الذي قبضه اليوم، ووضعه في محفظته؟ لقد أوصته زوجته أنه لا يوجد لديهم شيء، وطلبت منه أن يشتري بعض الخضار والدجاج أثناء عودته. قال كامل مخاطباً نفسه: سأشتري لهم لحماً، ودجاجاً، وخضاراً وفواكه. هذه الليلة ستكون ليلة عيد لنا.
صمت قليلاً ثم قال: الآن بعد الحلاقة سأعود شاباً. لكن أرجو أن ينام الأولاد مبكراً. الغرفة لم تعد تكفينا؛ ثلاثة أولاد وأنا وأمهم في غرفة؟!
عندما ينتقل جاري أبو محمد، سأرى إن كان بإمكاني استئجار غرفته. هكذا ينام الأولاد في غرفة وأنا وأمهم في الغرفة الأخرى.
انتهى زغلول من الحلاقة. قال للحاج كامل وقد حمل مرآة صغيرة ووقف خلفه موجهاً مرآته خلف رأسه.
نظر كامل إلى المرآة الكبيرة أمامه. لم يهتم بخلف رأسه. كان يدقق بوجهه وذقنه. تحسس خديه، فشعر بنعومتها. ابتسم وقال متمتماً: هذه الخدود بحاجة لشفتي أم الأولاد!

شكر زغلول على جهوده، ودفع له أجرته، وحمل كيسه وتوجه إلى الأعلى باتجاه سوق اللحامين. كان أول شيء فكر فيه أن يشترى لهم اللحمة؛ لحم خروف. سأشتري لهم خروفاً. منذ ثلاثة شهور لم يأكلوا لحم الخروف. لقد ملوا لحم الجمل.

كان الحاج كامل يشتري لحم الجمل (لأنه أقل سعراً) من ملحمة زاهدة الواقعة قرب خان السلطان في أول باب السلسة من الأعلى، مقابل درج الطابون مباشرة، لكنه لم يدخل إليها، وتابع سيره إلى سوق اللحامين. سيشتري أفضل لحوم الخروف، فدخله اليوم كان كبيراً، لم يحصل على مثله في حياته.
وصل سوق اللحامين. رائحة اللحوم تزكم الأنف؛ لحوم، دم، أمعاء... الخ. وقف أمام ملحمة (أبو عيشة) ينتظر دوره، فثمة عدة زبائن قبله ينتظرون شراء اللحم.
بعد ربع ساعة سأله البائع، رجل في الخمسين من عمره، أشيب الشعر:
- أمرك.. ماذا تريد يا حاج كامل؟
- كيلوان لحم خروف، وكيلو لحم بقر مفروم مع بصل وبقدونس.
- أوف.. اثنان مرة واحدة؟! لم تفعلها من قبل.
- الحمد لله.. الله رزق.

مد الحاج كامل يده إلى محفظته ليدفع الحساب فيما بدأ البائع بتقطيع اللحم. فوجئ كامل بأن محفظته ليست في مكانها فأصيب برعشة. تفقد جيبه الثاني فلم يجدها. احمرّ وجهه. تفقد كل جيوبه. لم يجد أثراً للمحفظة. جن جنونه. لاحظ البائع ارتباكه فسأله:
- ما الأمر؟ هل نسيت النقود في البيت؟
- يا ريت. سأعود إليك. دعني أذهب للبحث عنها.
عاد الحاج كامل مسرعاً من حيث أتى يبحث على الأرض عن محفظته الضائعة. كان يدقق في كل مكان على الرغم من الازدحام في الأسواق، ولم يتردد في سؤال بعض أصحاب المحلات، لكن بدون فائدة.

ضاعت النقود! ضاعت؟!
وصل محلقة زغلول، وسأله إن نسي المحفظة عنده، فقال له:
- أذكر جيداً أنك بعد دفع الحساب وضعتها في جيبك.
هز رأسه دون أن يبتسم، وتابع سيره إلى سوق اللحامين مرة أخرى لعله يجدها هذه المرة، لكن دون نتيجة.
أحس ببعض الدمعات تتساقط على خديه: كل عمل اليوم وما تبقى من عمل الأمس ذهب بدون رجعة. سينام الأولاد الليلة بدون عشاء.. لماذا يا رب؟ ما الذي أذنبته؟ لم أسرق.. لم أنهب. نقود حلال. طوال النهار وأنا أطارد من شارع إلى شارع، ومن حاوية نفايات إلى أخرى في شوارع القدس الشرقية، والغربية أنني لم أسلم من ملاحقة الأولاد اليهود الذين كانوا أحيانا يسخرون مني ومن مهنتي، ويلاحقونني صارخين بي: عرفيم ملخلاخيم (عرب وسخون)، انصرف من هنا.
بعضهم ضربني بالبيض على رأسي، لكن الحمد لله لم أصب بأي منها. بعد كل هذا يأتي من يسرقها. لعن الله هذه الأسواق المزدحمة بالناس، التي تترك الفرصة للنشالين ليسرقون عرق جبين غيرهم.

عاد الحاج كامل بدون اللحم والخضار إلى بيته الكائن في حوش الشاي، ذلك الزقاق القصير الذي لا يزيد عن (٢٠٠) متر. يمتد من أول طلعه حوش الغزلان مقابل بقالة (غالب الرشق) الصغيرة، وينتهي عند ساحة درج الطابون حيث تقع دار زاهدة إلى اليمين من الشارع.

دخل الحاج كامل العمارة التي يسكنها، وكالعادة عندما يهم الرجال بدخول العمارة يبدؤون بإشعار نساء العمارة بوصولهم ليلزموا بيوتهم، قال بصوت عالٍ: يا الله.. يا ستار.. يا كريم.
كررها عدة مرات وهو يضع قدمه على أول باب العمارة. تفرقت النسوة من الطريق، فتابع الحاج كامل سيره إلى غرفته. سمعت زوجته صوته، ففتحت له الباب. وعندما دخل فوجئت والأولاد أنه لا يحمل شيئاً.
نظرت إليه وقالت:
- نعيماً.. يبدو أنك حلقت شعرك وذقنك؟
لم يبتسم كعادته، لكنه رد عليها قائلاً:
- الله ينعم عليك.
- ماذا بك؟ أراك عابساً، وقد عدت بدون شراء الأغراض. هل نسيت...؟
- لا.. لم أنس. ألا يوجد لدينا شيء تعدّين به طعام العشاء؟
لم تجب. كانت تعلم أنه لم يتم حديثه بعد. قال لها:
- ولكن حصلت مصيبة.. مصيبة يا نعيمة. اتركيني.. لا أريد الحديث.
- حاج كامل.. ماذا حصل؟ أقلقتني يا زوجي.

تنهد عميقاً. جلس على إحدى السجادات على الأرض، وقال لها:
- سرقوني يا نعيمة.لأول مرة في حياتي يستغفلني النشالون ويسرقون محفظتي. كان بها حوالي ستة دنانير. هي كل ما نملك. لم أستفد منها سوى أجرة الحلاق، وعندما ذهبت لشراء اللحمة، لم أجد المحفظة، ولم أعثر لها على أثر.

كان وجهه أحمر، وكاد يبكي لولا أن الأولاد الثلاثة جلسوا بعيداً عنه يستمعون إلى حديثه مع أمهم مشدوهين غير مصدقين.
قالت له:
- معقول؟! الله لا يوفق الذي نشل محفظتك.. اللهم اجعله يشتري بالنقود أدوية لأولاده بعد أن يصابوا بداء ما له دواء.
- يا نعيمة حرام عليكِ. قولي اللهم انتقم منه، لكن من أولاده؟ ما ذنبهم؟
فقالت له:
- وعندما سرق النقود، ألم يترك أولادك دون عشاء؟

نظر إليها محاولاً أن يحافظ على اتزانه أمام أولاده، قال بصوت هادئ رافعاً يديه إلى السماء:
- يا رب.. أشكو إليك حالي، لا إله إلا أنت.. أستغفرك وأتوب إليك.

وقفت الأم تفكر ماذا تفعل لإطعام الأولاد. اقترب موعد العشاء. بينما هي في حيرتها دق الباب. ذهبت لتفتحه فإذا به ابن الجيران مع أخيه. ابنا جارتها أم سعيد يحمل كل منهما صحناً من طعام (شوشبرك).
سألتهما:
- ما هذا؟
فقال لها سعيد:
- أمي أرسلتنا بهذين الصحنين. اليوم ذكرى وفاة جدي (أبو والدي) الثانية، وقد أقمنا وليمة ونوزع الأكل على كل الجيران. تقول لك لا تنسي جدّي بدعواتك.

لم تصدق نعيمة ما سمعت. أخفت فرحتها. حملت صحناً من سعيد ونادت ابنها البكر حسن ليحمل الصحن الثاني، فتسابق الأولاد ليساعدوا أمهم في حمل الصحنين.
شكرت نعيمة الولدين وقالت لهما:
- بلّغا أمكما شكري. رحم الله جدكما، وأسكنه فسيح جناته.
أغلقت الباب وراءها، ثم طلبت من الأولاد وضع الصحنين على الأرض، وحذرتهما من سقوط أي صحن من يديهما.
دخلت إلى الحاج كامل، وقالت له:
- لقد سمع الله دعاءك. هذان الصحنان من دار جارنا (أبو سعيد) عن روح والده في ذكراه الثانية أرسلتهما أم سعيد. هيا بنا جميعاً للعشاء، لا بد أنك جائع.
هز الحاج كامل رأسه، وقد شعر ببعض الراحة، فأولاده لن يناموا جائعين. قال لها:
- كلوا أنتم، فأنا لست جائعاً. لقد تغذيت متأخراً.

كان يخفي عنهم حقيقة جوعه. كان يريد التأكد أن الأكل سيكفيهم.
"الأكل لن يكفي خمسة ليأكل الأولاد ونعيمة وأنا سأصبر حتى الصباح. سأمر على مطعم (أبو علي) في باب السلسة وأتناول صحن حمص على الحساب وفي آخر النهار ستفرج."
قطعت عليه نعيمة حبل أفكاره:
- يا حاج كامل.. عيار الشبعان أربعون لقمة.
- أربعون لقمة.. لن يبقى شيء في الصحنين. هذا مثل قديم لم يعد صالحاً. كلوا واشربوا وهذا على قلبي زي العسل.

فهمت نعيمة قصد الحاج كامل، فتركت أولادها يأكلون، وتظاهرت معهم بالأكل لتتأكد أنهم شبعوا قبل أن تأكل ما تبقى من فتات مع الحاج كامل.

في اليوم التالي، خرج منذ الصباح الباكر من بيته يحمل كيسه المصنوع من الخيش، وبعد أن مر على مطعم (أبو علي) المواجه لطلعة حوش الغزلان في باب السلسلة، تناول فطوره المعهود على الحساب.انطلق يشق الشوارع باحثاً عن حاويات جديدة لعل فيها أدوات منزلية قديمة رماها أصحابها.

أبو يعقوب القهوجي

كان البرد قارساً في أحد أيام كانون أول (١٩٦٧). لا يزال يذكره تماماً كأنه حدث يوم أمس. كان وسط زوجته وابنه يعقوب وابنته سماح متجمعين حول كانون النار، في بيتهم المكون من غرفة واحدة في شارع الواد المحاذي للمسجد الأقصى المبارك، وكان حينها يعمل في أحد المقاهي في الشارع نفسه نادلاً أو بالعامية (قهوجي)، وبهذا عرفه الناس كلهم باسم (أبو يعقوب) القهوجي. ومن النادر جداً أن تجد من يعرف اسمه كاملاً، فقد غلبت كنيته، ومهنته على اسمه.

ابنه يعقوب كان في الثالثة عشر، وابنته سماح في الثامنة. كانوا سعداء بما رزقهم الله، وعلاقتهم مع جيرانهم كلها طيبة.
لكن في تلك الليلة تعكر مزاجه، وثارت ثورته بعد أن زاره ما لم يكن في حسبانه أبداً.

في التاسعة مساء على ما يذكر سمع طرقاً على الباب. قال ليعقوب:
- اذهب يا بني واعرف من الطارق.

كان يتوقع ابن أحد الجيران جاء - كما جرت العادة - ليقترض ملعقة ملح، أو رغيف خبز، أو أي شيء آخر.ربما نقص لديهم ولا يستطيعون شراءه في تلك الساعة المتأخرة، وقد فعلت زوجته ذلك مراراً عندما كانت ترسل يعقوب إلى بيت جارهم (أبو محمد) تستقرض كمية قليلة من الأرز أو العدس لإعداد الطعام.

كانت تلك الأيام على الرغم من الفقر المدقع أيام خير وبركة، فالناس كانوا يعطفون على بعض، وكانت قلوبهم رحيمة.
هب يعقوب على الفور وفتح الباب. تمسمر في مكانه وصاح بصوت مسموع:
- يابا الجيش.
- جيش؟!

قفز من مكانه وتوجه نحو الباب فيما وضعت زوجته الشال الأسود على رأسها كي لا يدخل أحد ويراها مكشوفة الرأس.

تقدم نحو الباب ليشاهد عدة أفراد من الجنود ببنادقهم ومعهم رجل أمن طويل القامة عريض المنكبين، ورجل دين يهودي ذقنه طويلة، وكذلك سوالفه، ويلبس لباساً تقليدياً. كنا في القدس نسميهم (السكناج). كانت ملابسه السوداء تعرّف على نفسه.

قال له رجل المخابرات مبتسماً:
- مرحباً يا أبا يعقوب.
أما رجل الدين اليهودي فهز رأسه محيياً. كانت تصرفاتهما غريبة على غير العادة. لم يفهم مقصدهما، فبلع ريقه وسأل:
- أي خدمة؟ ماذا تريدون؟ هل تبحثون عني؟
- لا تقلق نحن لسنا هنا لاعتقالك. ألا ترحب بضيوفك يا رجل؟
- ضيوف؟ أي ضيوف أنتم؟ البيت عندنا من غرفة ولا مكان لاستقبالكم.

في ثوان معدودة كان أبو يعقوب يتساءل في داخله: "ما الذي يريدونه؟! هل جاؤوا لاعتقال ابني الصغير؟ غير معقول! لا بد أنهم جاؤوا لاعتقالي. ربما أحد الجواسيس في المقهى الذي أعمل به قدم عني تقريراً كاذباً. لكن ما الذي جاء بهذا الحاخام؟! لم أسمع أن رجل دين يرافق الجيش لاعتقال أحد!"
قطع عليه تفكيره رجل المخابرات قائلاً:
- لا عليك.. أنا الكابتن أبو نهاد، وهذا الراب يوسف، جئنا لنطمئن عليك، ونساعدك في الانتقال من هنا.

هدأ قليلاً، فلم يأتوا لاعتقاله. قال له مستغرباً:
- انتقال! لماذا؟
- لقد سمعنا أنك تتعرض لمضايقات من جيرانك المسلمين.
- مضايقات من جيراني؟ المسلمين؟ لا.. لا يوجد مضايقات. كلنا هنا مسلمون ومسيحيون يداً واحدة.
- ولكنك يهودي، لا داعي لإخفاء ديانتك بعد اليوم. سجلاتنا أكدت أنك يهودي بقي في الطرف الأردني من أرض إسرائيل، وها قد جاء اليوم الذي تعود إلى أصلك وتعلن عن نفسك.
أكمل الحاخام قائلاً:
- ليحميك الرب يا أهرون. لقد تحملت الكثير من أجل إسرائيل. هل العائلة بخير؟
شعر بلطمة على وجهه. ما الذي أتى بهم إلى بيته، ومن قال لهم إنه يهودي؟
كان ابنه يعقوب ينظر إليه مستغرباً ما يسمعه، منتظراً رده عليهم. قال لهم:
- أنا لست يهودياً. أنا مسلم عربي، وكذلك كل عائلتي.
ضحك الكابتن أبو نهاد وقال:
- هل غيرت ديانتك، والتحقت بهم خوفاً من مضايقاتهم؟
أنت حسب سجلاتنا أهرون بن عامي. والدك جاء من المغرب العام (١٩٠٨)، واستقر في القدس.
لم يدعه يكمل فقال له:
- ولكني غيرت ديانتي، وأعلنت إسلامي العام (١٩٤٥)، أي قبل الحرب وقيام دولة إسرائيل، ولم أسلم خوفاً، وأنا الذي اخترت البقاء مع الطرف العربي باختياري.
فقال الحاخام:

- أمامك فرصة لتكفر عن غلطتك، وتطلب من الرب أن يغفر لك، وتقديم القرابين، والعودة إلى الجذور.
- جذور؟ أنتم أخطأتم في العنوان. أنا عربي مسلم. لن أغير ديانتي، وإذا أردتم اعتقالي فأنا جاهز.
غضب الحاخام وقال له:
- سيغضب عليك الرب، وتحل عليك لعنته.
فرد عليه أبو يعقوب:
- لا إله إلا الله.. محمد رسول الله.
فقال الحاخام لـ(أبو نهاد):
- دعنا نذهب قبل أن نأثم بسببه.
قال أبو نهاد وهو يستدير راجعاً:
- لقد ضيعت عليك فرصة العمر.

شعر بالسعادة وهم يغادرون، فأغلق الباب على الفور. كانت عيون يعقوب لا تفارقه. انتظرت زوجته حتى جلس حيث بادرته قائلة وقد سمعت كل الحديث:
- الكلاب لا يتركون أحداً بحاله.
أما يعقوب فسأله:
- هل كنت يهودياً يا أبي؟
قال له بهدوء:
- يا بني قصتي طويلة. كنت سأحكيها لك عندما تكبر وتصبح ابن الثامنة عشرة، لكن بما أنك سمعت ما سمعت سأشرح لك باختصار.
"أنا أصلي يهودي. هاجر والدي صغيراً إلى فلسطين واستقر فيها، وهنا ولدت وعشت مع إخواني العرب المسلمين، وعندما بدأت موجات هجرة اليهود تتسع، وبدؤوا يشكلون العصابات للاعتداء على العرب. طلبوا مني المشاركة، فاعترضت على الهدف، لكنهم أجبروني على ذلك بحجة الدفاع عن اليهود، وفعلاً انطلت علي الحيلة، وشاركت في إحدى المجموعات. وفي أحد الأيام اعترضت مجموعتنا سيارة عربية في طريقها من القدس إلى يافا، فأوقفناها، وقام من معي بالاعتداء على أفرادها، وعندما اعترضت على فعلتهم شتموني، وقاموا بقتل اثنين من الركاب، وجرح الآخرين.

غضبت لهذا العمل، وعرفت منذ تلك الفترة أن كل المجموعات التي شكلت للدفاع عن اليهود إنما كانت للاعتداء على العرب، فهربت من المنطقة اليهودية حيث كنت أعيش في تلك الفترة، وقررت إعلان إسلامي والانضمام لإخواني العرب.

في البداية واجهت بعض المضايقات، فقد كان بعضهم يشكون أنني أتجسس عليهم، لكن بعد الحرب وبقائي في الطرف الأردني فقد تغير الحال، ونسي الناس أصلي اليهودي، وتعاملوا معي كواحد منهم. وفي العام (١٩٥٤) تزوجت أمّك العربية المسلمة، وكنا سعداء عندما رزقنا بك وبأختك."

سكت قليلاً، فقالت أم يعقوب:
- يا بني نحن مسلمون، ويجب أن نحمد الله أننا كذلك.
فقال يعقوب:
- الحمد لله أنك أعلنت إسلامك يا والدي، فأنا لا أتصور أن أكون يهودياً. لا إله إلا الله.
فقالت ابنته وهي تبتسم:
- محمد رسول الله.

أموت في غيرة النساء

رن جرس الهاتف. أسرعت حنان لترفع السماعة وترد على المتصل:
- ألو.. نعم؟
- ممكن أحكي مع السيد عماد؟ (كان الصوت أنثوياً ناعماً).
- عماد ليس موجوداً، نقول له من؟
- لا بأس، سوف أتصل في وقت آخر.
وأغلقت الخط .

استغربت حنان تلك المكالمة، وأغاظتها عجرفة المتكلمة.
لماذا لم تذكر اسمها؟ ماذا تريد من زوجي عماد؟ وما علاقتها معه؟

في المساء عاد زوجها عماد من العمل، فأخبرته أن امرأة اتصلت به ولم تذكر اسمها.
سألته:
- هل كنت على موعد مع أحد؟
- أبداً يا حنان. ألم تخبرك عن شيء؟
- لا.. فقط سألت عنك، وعندما أخبرتها أنك غير موجود أغلقت الخط.
- غريبة؟
- من ترى تكون؟
- من أين لي أن أعرف؟
- تذكر ربما إحدى العاملات معك في الشركة؟
- ولكني لم أعط رقم هاتفي لأحد من العاملات عندي في الشركة.
- إذاً لا بد أن إحداهن حصلت عليه من أحد أصدقائك؟
- لا أعتقد. لماذا تريد رقم هاتفي؟
- هذا السؤال موجه إليك، ربما تريد أن تسألك عن شيء في العمل؟
- لماذا نضيع وقتنا في التخمين؟ إذا عرفت سأخبرك.

في اليوم التالي اتصل الصوت الأنثوي نفسه. قالت بدلع:
- إذا سمحت.. ممكن أتكلم مع الأستاذ عماد؟
فردت عليها حنان بالطريقة نفسها؟
- نقول له من؟

- لتكن مفاجأة.
- مفاجأة؟ لماذا من أنت؟
- إذا سمحت أريد الأستاذ عماد؟
- أنا زوجته.
- تشرفنا، لكني أريده هو في أمر خاص.
- سأبلغه بعد عودته.
فوراً أغلقت الخط.

هذه المرة ثارت ثائرتها؛ ما هذه الطريقة التي تتحدث بها هذه المرأة؟ يبدو أن غنجها يعجبه. من غير المعقول أنه لا يعرفها! هذه المرة الثانية التي تتصل به؟ إنها تتحدث بثقة لا تصدر إلا عن امرأة لها علاقة خاصة به.

بعد عودته قابلته بابتسامة فاترة كغير عادتها. سألته:
- ألن تخبرني من هذه التي تتصل بك كل يوم؟
- مرة ثانية يا حنان؟ ألم تسأليها؟
- إنها تتهرب من الإجابة.
- حسناً، وكيف لي أن أعرف من هي؟
- ألم تسأل في الشركة؟
- يا حنان.. لا أستطيع أن أسال زميلة في العمل إن كانت قد اتصلت بي. هذا غير لائق، وقد يعني أشياء غير مقصودة، وربما تعده الزميلة محاوله تحرش بها. هل نحن في أمريكا؟ أنسيت أننا في عرب؟
- أوه.. ليس معقولاً. إذاً من تتصل بك؟
- عدنا إلى السؤال نفسه. لا أعرف. كيف لي أن أعرف؟
بعد صمت قصير قال لها:
- حسناً.. بلغيها إن اتصلت أن تعاود الاتصال في المساء.
هزت رأسها غير سعيدة بالرد.

انتظرت حنان تلك المرأة أن تكلمها، لكنها لم تتصل ليومين كاملين. إذاً لابد أن عماد أخبرها ألا تتصل بالبيت. أكيد أنه عرف من هي. طبعاً.. لمَ لا؟ ألم تسأل عنه؟ ما الذي يدور حولي دون علمي؟ ترى من تكون؟ علي مراقبة زوجي من الآن فصاعداً.

عندما عاد مساء، استغلت فرصة دخوله الحمام، فذهبت تفتش جيوبه، ودققت هاتفه النقال لعلها تجد أرقام هواتف لنساء، فلم تجد سوى أسماء وأرقام هواتف أخواته وقريباته اللواتي تعرفهن. إنه ذكي. لا بد أنه

يحتاط، ويعرف كيف يخفي علاقته بها. عماد رجل يقظ يتقن عمله، لذلك احتل منصباً رفيعاً في الشركة في مدة بسيطة. لا بد أن إحداهن تحاول أن تصطاده، لكن من أين ستفلت مني؟

بعد خروجه من الحمام سألته:
- لماذا لا تتصل هذه المرأة ثانية؟
ضحك ساخراً وقال:
- وهل تريدينها أن تتصل؟
هزت رأسها وقالت؟
- الجواب عندك.
- عندي؟ أنا؟ كيف ما دمت لا أعرفها؟
بعد صمت قال:
- ألا يمكن أن يكون الرقم خطأً؟
- خطأ؟ لقد اتصلت مرتين، وسألت عنك بالاسم، وكانت تتكلم بدلع وغنج كأنها تعرفك من زمان.
- لا أدري لماذا كل هذا الخلاف على مكالمة نجهل مصدرها. الحمد لله أنها لم تعد تتصل.
- لم تعد تتصل أم أنك حذرتها من الاتصال بالبيت؟
- يا حنان.. لو كنت أعرف من تقصدين، فلماذا أعطيها رقم البيت؟ لماذا لم تتصل بي على هاتفي الخلوي؟
- لا أعرف.

توقفت حنان عن مشاكسة زوجها وراحت تسأل نفسها:
- فعلاً.. لماذا لم تتصل به على هاتفه المحمول؟ هل تريد إغاظتي؟

الحيوانة، كأنها تقول لي: "عماد لي وليس لك". ألا يمكن أنها اتصلت به على هاتفه المحمول فلم يرد فقررت الاتصال بالبيت؟ أنا امرأة وأعرف كيف تفكر النساء. لا بد أنها تريد إغاظتي.

توقفت لحظات عن التفكير، ثم استسلمت لهواجسها:
- ترى متى يراها؟ إنه نادراً ما يغادر البيت وحده بعد العمل، وإن حصل فإلى جهة معلومة لدي. هل يأخذ إجازة من العمل ويلتقي بها؟ هل تكون إحدى زميلاته في العمل؟ هل هي صاحبة الشعر الأسود، الطويلة، وذات العيون الواسعة التي طالما حدثني عنها وعن أخلاقها؟
ها ها.. الآن عرفت لماذا كان يحدثني عنها. هل بدأ زوجي يزيغ بعيونه خارج البيت؟ لا أتوقع ذلك منه. بعد كل هذا الحب الذي أحبه، أيخونني؟ ما هذه الأفكار التي تسيطر على دماغي. يا حنان ألا يمكن أن تكوني قد ظلمت الرجل؟

في اليوم التالي خرج زوجها مبكراً على غير عادته، وبعد خروجه بدقائق اتصلت تلك المرأة المجهولة:

- ألو.. ممكن الأستاذ عماد؟
- أهلاً.. أنت مرة أخرى؟
- نعم.. ما الغريب؟
- ألن تخبريني عن اسمك؟
- ولماذا يهمك اسمي؟ أنا أريد الأستاذ عماد.
- ولكني زوجته.
- تشرفنا يا سيدتي، ولكني أريد الحديث مع زوجك السيد عماد.
- ولماذا تريدين الحديث معه؟
- أريده في جلسة عمل.
- جلسة معك؟ خيراً إن شاء الله؟
- لماذا هذه السخرية؟
- لأنك لم تخبريني عن اسمك.
- وماذا لو أخبرتك، هل ستعرفينني؟
- لا.. لكن سأعلمه بعد عودته.
- إذاً هو غير موجود. سأتصل في وقت آخر.
- اسمعي؟
- تفضلي.
- إما أن تخبريني عن اسمك أو لا تتصلي؟
- بسيطة.. اسمي دلع.
لم تصدق حنان، حسبتها تسخر منها لتزيدها ناراً على نار. سألتها:
- اسمك دلع يا دلع؟
- نعم.. اسمي دلع. غريبة؟ اسم حلو كله دلع.
اغتاظت حنان وكادت تغلق الخط، لكنها فكرت بسرعة وسألتها:
- سيدة دلع.. أعطني رقم هاتفك ليتصل بك.
- رقمي عنده. إنه يعرفه، لقد أعطيته الرقم منذ المرة الأولى التي التقيته بها.
لم تستطع حنان أن تتحمل سماع أكثر من ذلك فأغلقت الخط.

الحيوانة لم تخجل مني؟ الآن ماذا سيقول عماد؟ ألديه مبررات؟
اسمها دلع. هذا ما أعجبك بها؟ دلع؟ طيب.. عندما تعود سأعرف ماذا أقول لك. لماذا لا أتصل به الآن؟ لا ليس مناسباً، فقد يكون في الطريق إلى العمل والشوارع مزدحمة!
لم تستطع الصبر، فاتصلت على هاتفه المحمول، لم يرد.
بدأت تهذي لنفسها:

- أكيد مشغول بالحديث معها. لقد غادر البيت كغير عادته مبكراً وادّعى أنه ذاهب إلى العمل. إذاً ذهب لمقابلتها الخائن، الغشاش.

كانت حنان في قمة غضبها. لم تتمالك نفسها. أعصابها متوترة. قلبها زاد خفقاناً. بعد لحظات اتصلت بالشركة وسألت عنه، قالت لها السكرتيرة:
- لم يصل بعد، لكنه سيكون هنا خلال دقائق لأنه سيجتمع مع المدير السابعة والنصف صباحاً.
سألتها حنان:
- اجتماع مع المدير؟
- نعم.. هناك اجتماع طارئ لمدراء الأقسام مع المدير العام.
هزت رأسها غير مقتنعة، وأغلقت الخط بعد أن شكرتها. عادت تتصل بهاتفه المحمول، فسمعت صوت الأسطوانة التي تشير أن هاتفه مغلق.

مغلق؟ غريبة! هل أغلقه كي لا أتصل به؟ طبعاً أكيد دلع أخبرته أنها اتصلت به. طيب يا عماد. لن أتركك تخدعني أكثر من ذلك.

لم تهدأ حنان طوال الصباح، وأخيراً قررت زيارة الشركة التي يعمل بها، وتعمدت الحديث مع بعض الموظفات لتقارن بين أصواتهن وصوت دلع، وأخيراً سألت السكرتيرة:
- ألديكن موظفة باسم دلع؟
- دلع؟ لا.. ليس لدينا واحدة بهذا الاسم.

توجهت إلى زوجها في مكتبه، فرأته منهمكا بالعمل. كادت تخبره عن الاتصال الهاتفي، لكنها تمالكت أعصابها في اللحظة الأخيرة، وأجّلت الحديث بذلك حتى عودته إلى البيت.
فوجئ بها في الشركة فسألها:
- ما هذه الزيارة المفاجئة.
قالت له وهي تصطنع ابتسامة:
- جئت أزورك لثوان، فقد كنت في أحد المحلات القريبة.
رحب بها، ثم قال:
- أعتذر يا حنان، فأنا مشغول. لدي تقارير يجب أن أسلمها اليوم. ربما أتأخر لساعة أو ساعتين على الأكثر. ما رأيك أن تزوري أمك، وسألتقي بك هناك لنسهر عندها.
قالت تخاطب نفسها قبل أن تجيب:
- الملعون يريد أن يقابلها بعد العمل، فقرر أن يتخلص مني كي لا أعرف. يعتقد أنه يستطيع خداعي كل تلك الفترة، قالت له:

- اليوم أنا متعبة. لا أشعر برغبة لزيارة أحد.
- ولا أمك؟
- سأنتظرك في البيت.
- على راحتك.
زمت شفتيها وقالت:
- إلى اللقاء.

كانت تتوقع أنها سترتاح بعد زيارتها للشركة، لكنها ازدادت شكوكاً، وزاد الأمر غموضاً. ترى متى سيحل اللغز وتعرف حنان من تكون دلع؟

كانت تنزل درجات الشركة وهي تتوعد دلع إن رأتها ستخنقها.
أيها الخائنة إن رأيتك سأقضي عليك، وعليه.

عادت إلى البيت تنتظره على أحر من الجمر.

الساعة السادسة مساء لم يعد. في هذه الساعة تعوّد أن يعود إلى البيت بعد العمل. قال إنه سيتأخر ساعة أو ساعتين. الخائن تركها مفتوحة لم يحدد متى سيعود. رفعت سماعة التلفون، واتصلت به. الخط مغلق. لماذا أغلقه ما دام سيتأخر في العمل؟
ربما كانت البطارية بحاجة إلى الشحن! لا.. لا.. غير ممكن. كان بإمكانه شحنها قبل خروجهز لقد نبهته إلى ذلك من قبل عندما ادعى في الصباح أن البطارية بحاجة إلى شحن. اللعنة علي. كان يجب أن أنتظره متخفية خارج الشركة لأراقبه إلى أين يتجه. أخاف أن يراني فيحتاط أكثر. يجب أن أفكر بطريقة لضبطه. الساعة السابعة لم يعد. عاودت الاتصال به فلم يرد، فاتصلت بالشركة. أسطوانة تسجيل أعلمتها أن الشركة مغلقة وعليها معاودة الاتصال في الصباح.

جلست أمام التلفاز متوترة الأعصاب. حملت الريموت تغير من قناة إلى أخرى. لم يعجبها أي شيء. كل البرامج اليوم تافهة. إحدى القنوات كانت تعرض أغنية مصورة لكاظم الساهر، مطربها المفضل. بعد ثوان أقفلت التلفاز. لم تعد تطرب لشيء اليوم. طعم الأغنية اليوم أصبح مختلفاً. لم تعد تشعر بالحب يدغدغ قلبها. لم تعد كلمات الأغاني تثيرها. كل ما يهمها الآن أن تعرف من هي دلع هذه.

رن الهاتف. خفق قلبها. لا بد أنه هو يريد أن يعتذر عن تأخره. لن تقبل منه اعتذاراً. لن تسامحه. لقد تركها على نار حارقة.
- ألو.. ممكن أحكي مع الأستاذ...

قبل أن تكمل قاطعتها صارخة:
- ماذا تريدين منه يا دلع؟
- سأخبره عندما أتحدث معه.
- ولكنه ذهب لمقابلتك اليوم.
- عفواً.. لم أفهم ماذا تقصدين؟
- هل تعتقدين أنني نائمة، ولا أعرف ما يدور حولي.
- أخت...
- حنان.
- أخت حنان، أنا دلع...
- أعرفك من صوتك، يا دلوعة، حرام عليك.
- يا ست..
- أنت سافلة منحطة، سوف...
قبل أن تكمل أقفلت دلع الخط.

عادت إلى مقعدها وقد شعرت ببعض الرضا. كان يجب أن تشتمها من قبل. تريد أن تشكوني لعماد. سأرى ماذا يقول؟ اليوم سأصفي حسابي معه؛ إما أنا أو هي.

الساعة الثامنة لم يعد. لقد تأخر أكثر من ساعتين. طبعاً لا بد أنه يسهر معها الآن في أحد محلات اللهو. أقطع يدي إن لم يكن هو الذي طلب منها أن تتصل ليبعد الشبهة عنه. يريد أن يخدعني، لكنه وقع في المصيدة.

لن ينجو اليوم من غضبي. سأحطم رأسه. سأضربه. سأعضه. سأغرز أظافري في جسده القوي. لكنه أقوى مني. لن يضربني. أعرف أنه سيفاجأ بقبضات يدي. سينهار أمامي ويعترف بخيانته. سيطلب مني أن أغفر له ذنوبه. هل أغفر له؟ لا.. لا.. ليس قبل أن أعرف من دلع لأمزق شعرها.

ظلت حنان تهذي كالمجانين حتى رن جرس الباب. نظرت إلى الساعة فكانت التاسعة مساء. وقفت بسرعة واتجهت نحو الباب. نظرت من عدسة الباب للتأكد من أنه هو. فتحت الباب، فدخل عابساً كغير عادته.
قالت له ببرود:
- ألن تسلّم يا أستاذ عماد؟!
فقال لها على الفور:
- ما الذي فعلته بالشركة اليوم؟
يريد أن يغير الموضوع كي لا أكتشف خيانته.

قالت له بسخرية:
- خير، وماذا فعلت بالشركة، ألأنني زرتك؟
- لا.. ليس لأنك زرتني، بل لأنك سألت السكرتيرة عن دلع.
- وماذا فيها؟
- يا سلام! هل تعتقدين أن السكرتيرة غبية؟! لقد جاءتني بعد نزولك تخبرني وتسألني عن دلع. كل العاملات صرن يتهامسن عن علاقتي مع دلع.
فقالت له بعد أن فتح موضوع دلع:
- وهل زرتها اليوم؟
- حنان.. ألا تكفي عن هذيانك؟!
- إذاً أين كنت اليوم بعد العمل؟
- قلت لك سأتأخر في الشركة.
- ولماذا لم ترد على الهاتف؟!
- لقد أقفلت الخط كي لا يتصل بي أحد لأنني مشغول في إعداد بعد التقارير.
- يا سلام! ولماذا لم تقفله إلا بعد الدوام الرسمي.
- لأني انشغلت كثيراً، وأريد إنجاز المهمة بسرعة، والمدير كان موجوداً.
- المدير أم دلع؟
- أنا لم أعد أستوعب تصرفاتك. أنا متعب. إذا سمحت اتركيني بحالي.
- تريدني أن أتركك على حل شعرك؟
تنهد بغضب وقال:
- أستغفر الله العظيم.. اللهم طولك يا روح.

تركها تتحدث وذهب إلى غرفة النوم يغير ملابسه. لحقته إلى هناك. فتحت الباب بقوة وصرخت به:
- لماذا تركتني وهربت؟ يجب أن نحل المشكلة الليلة.
تماسك قليلاً، وحاول أن يحتوي الموقف بهدوء حتى لا يسمعهما الجيران.
قال لها:
- اجلسي وهدئي من غضبك.
- لا أريد أن أجلس حتى أعرف من دلع؟
- يا زوجتي.. يا حبيبتي.. من أين لي أن أعرفها؟ هل اتصلت الليلة؟
- تسألني وكأنك لا تعرف؟ أنت الذي قلت لها أن تتصل لتبعد الشبهة عنك.
- ألا تخجلي من نفسك وأنت تتهمينني بهذه الاتهامات مع امرأة لا أعرفها؟ إنك تظلمينها.
- إذاً ماذا تريد منك؟
- لقد قلت لك...

فجأة رن جرس الهاتف. توقف كلاهما عن الحديث. ركضت بسرعة ورفعت السماعة: ألو.. ألو..
لا جواب. صرخت بغضب: ألو.. يا دلع...
اتجه عماد نحو زوجته، وطلب منها السماعة.
ترددت في البداية، لكنها بعد التفكير أعطته السماعة وذهبت إلى الخط الآخر تتنصت على الحوار.
حمل عماد السماعة بهدوء متمنيا أن تكون دلع:
- ألو.. أنا عماد. من حضرتك؟
- ألو.. مساء الخير أستاذ عماد.
كان صوتها ناعماً يدغدغ أذن الرجل ويثير غيرة النساء.
- مساء النور. من أنت لو سمحت؟
- أنا دلع. هل تذكرني؟
- دلع؟ لا أذكرك يا دلع. ماذا تريدين مني؟
- أولاً مبارك على الفوز. لقد فزت بالجائزة الأولى، وأتمنى أن أحظى بلقاء معك لإجراء حوار تلفازي بالمناسبة.
- جائزة؟ حوار؟ جائزة ماذا يا دلع؟
- أنسيت؟ مسابقة أفضل رواية. لقد فزت بجائزة الرواية من قبل مؤسسة نجيب محفوظ الأدبية.
قاطعها:
- أية رواية يا ست دلع. أنا أعتقد انك تبحثين عن شخص آخر. أنا لست راوياً، ولم أشارك بمسابقة رواية.
- ألست الأستاذ عماد الأصلع؟
ضحك بعد أن هدأ غضبه، وقال لها:
- يا دلع.. أنا عماد، ولكن لست أصلعاً.
- لا أقصد ذلك، أقصد إن اسمك (عماد الأصلع)! ألست الروائي عماد الأصلع؟
- لا.. لست أنا. أنا (عماد الأصلح). آخر حرف حاء وليس عيناً.
تغيرت لهجتها.
- آسفة جداً سيد عماد. لقد حصلت على رقمك من دليل الهاتف. آسفة أزعجتكم. يبدو أنني لم أنتبه للحرف الأخير.
ثم أغلقت الخط.

وضع السماعة، ثم بدأ يضحك بملء شدقيه.
هدأت زوجته. تغيرت تقاطيع وجهها، لكنها أحست بغلطة كبيرة. أرادت أن تصحح غلطتها، فاقتربت منه وقالت له:
- عماد؟
- حنان؟

- أنا آسفة.
- هل اقتنعت الآن أنني...
لم تتركه يكمل. قاطعته:
- لقد تسرعت يا حبيبي، لكن لو كنت مكاني لفعلت ما فعلت؟
- لماذا؟
- وضعت يدها على شعره تداعبه بيدها، في الوقت نفسه كانت تدقق في عينيه وقالت:
- أنا امرأة تغار على زوجها.
ابتسم بعد طول غضب، ثم وضع يده على وسطها وشدها إليه، بعد أن صارت أمامه وجهاً لوجه، قال لها قبل أن يطبع قبلة على شفتيها:
- وأنا أموت في غيرة النساء.

إعدام مظلوم

كان صديقي مهند حزيناً عندما التقيته اليوم في مقهى الانشراح. لم يكن كعادته باسماً، بل كان وجهه متجهماً. كلما نظرت إليه ارتعبت، وقلت في نفسي: "يا ستار، يا رب، لعل مصيبة حلت بمهند".
سألته:
- ما الذي يحزنك؟
فأجابني:
- أليس حراماً أن يعدم رجل بريء؟
بدون تفكير قلت له:
- بلى. (فماذا يمكن أن يكون الجواب؟) إن كان المتهم بريئاً، فمن الجريمة أن يعدم.
سألته:
- لكن.. من يا ترى ذلك الذي سيعدم هذا اليوم؟
- إنسان مسكين، لديه خمسة، أطفال وزوجته، وليس لهم معيل غيره.
- لكني لم أقرأ في الصحف عن متهم سيعدم، فمن هو يا ترى؟
- ستسمع عنه قريباً. سيكون حديث الصحافة.
- ألديك أسرار لا يعرفها سواك؟
- تقريباً.
- أهو صديقك؟
- أنا صديق كل المظلومين.
قلت في نفسي: يبدو أن صديقي سيتعبني بردوده. سألته:
- ألديه محام؟
- طبعاً.
- فلماذا لم يساعده؟
- حاول، لكن المجرمين أحكموا الطوق حوله. عرفوا كيف يوجهون كل أوراق الإدانة ضده. إنهم كلاب. مجرمون.

لم أر صديقي منفعلاً كما رأيته اليوم. لكني لم أسمع بمتهم سيعدم في بلادنا. لعله من بلاد أخرى، فسألته:
- هل صديقك المتهم من هنا أم من بلد عربي مجاور؟
فرد علي بغضب:
- ما الفرق؟ المهم أنه بريء وسيعدم.
- ما هذه الألغاز؟ دخليلك من أين صديقك هذا؟
- من كل مكان.
- ها ها ها.
ضحكت لجوابه. ترى لماذا يخفي عني معلوماته؟ لا بد أن شيئاً مهماً وراء تقاطيع حواجبه. تابعت أسئلتي:

- وكيف عرفت أنه بريء؟
صمت حتى خلت أنني حشرته في الزاوية. بعد صمت طويل قال:
- لأني أعرفه.
- ولكنك لست معه في كل ثانية. ألا يمكن أن يكون قد ارتكب جريمته؟
- قلت لك لم يرتكب أية جريمة.
- إذاً لماذا سيعدمونه؟
- اتهموه زوراً بالقتل.
- ولماذا صدقت أنه لم يقتل؟
- لأني أعرفه تماماً.
- حيرتني، وكيف عرفت أنه لم يقتل؟
- لأنه بطلي.
- لم أفهم أغثني؟
- إنه بطل روايتي الجديدة.
- ماذا قلت؟
- إنه بطل لرواية جديدة سأصدرها هذا العام.
- يا سلام؟! حرقت دمي ودمك من أجل بطل من ورق؟! حل عني أنت وبطلك.
يبدو أنك هلوست. الناس تموت بالآلاف وأنت مهتم ببطل من ورق؟!
- نعم.. ألا يستحق المظلوم أن نتضامن معه؟ لقد بكيت لحاله.
قلت له ساخراً:
- مسكين.. مسكين! وما الذي تريده الآن؟
- رفع الظلم عنه.
- بسيطة.. غيّر النهاية واحكم عليه بالبراءة.
- لا يمكن، فكل أوراق الإدانة ضده.
- غيّر الأوراق.
- ستفقد الرواية أبعادها، وستصبح غير واقعية.
- وهل تكون واقعية بإعدام المتهم؟
- نعم.. لأن الواقع يقول إن الحياة كلها مظالم، وإنه لا عدالة على الأرض.
- لا تكن متشائماً.
- هذا الواقع.. هكذا الناس؛ الأنانية تتحكم فيهم. الطمع يسيطر عليهم، والجشع يسكن قلوبهم.
قلت له مازحاً:
- بسيطة.. احكم عليه بالسجن المؤبد.
- ما الفرق إن حكم بالمؤبد أو أعدم؟! فكلاهما الشيء نفسه. العائلة ينتظرها الدمار.

مللت الحديث مع صديقي، ولولا خجلي منه لقلت له: طز فيك وفي روايتك.
قلت له:
- ماذا ترى إذاً؟
- لا أعرف. المهم ألا يموت بهذه الطريقة. لا بد للعدالة أن تأخذ ولو حيزاً على الأرض.
صمت لحظة، ثم قال صارخاً: "وجدتها.. وجدتها".
- ما التي وجدتها؟ الحقيقة؟
- وجدت النهاية التي ستكون للبطل.
- وما هي؟
رد علي بهدوء هذه المرة، وقد انفرجت أسارير وجهه:
- لن أقول لك.
- ولماذا؟
- حتى تقرأ الرواية عندما أنشرها.
رجوته أن يخبرني، واعداً أنني لن أُعلم أحداً، لكنه أصر على رفضه بطريقة مؤدبة.
نظرت إليه، وبعد صمت قلت له:
- لقد عرفت كيف ستكون النتيجة. سأتصل بكل الأصدقاء أخبرهم بنهاية روايتك.
نظر إلي مستغرباً، وسألني متحدياً:
- وماذا عرفت يا علي؟
ضحكت وقلت له:
- لن أقول لك.
شعر وكأنه وقع في مصيدتي الآن.
- لا.. لا.. أنت لا تعرف شيئاً لأنك لا تحب الروايات. لو كنت تعرف لأجبت.
- أعرف، ولن أجيب.
سكت ثم سألني:
- هل تعشيت؟
- لا ليس بعد.
- ما رأيك بعشاء على حسابي؟
- لا مانع.
- بشرط أن تخبرني ما تعتقد أنه نهاية البطل.
قلت له لأضمن وجبة العشاء:
- موافق، لكن بشرط؟
- ما هو؟
- أن أقول لك الجواب فيما بعد.

- ولماذا ليس الآن؟
- حتى أضمن العشاء.. ها ها ها.
- ومتى يكون ذلك؟
نظرت إليه بجدية وقلت له بهدوء:
- عندما أقرأ روايتك الجديدة.
- تريد أن تعرف النهاية لتدعي أنك عرفتها قبل أن تقرأ الرواية.. ها ها ها ها.
وضحكنا معاً بصوت عال، وظللنا نضحك حتى نسينا العشاء.

نشوة الانتقام

تعرف إليها صدفة. كانت فتاة جذابة، جميلة، قوامها مثير للرجال، تتمايل بمشيتها كالطاووس، شعرها الأسود يتناثر على الجانبين كأنه تاج على رأس ملكة جمال.
نظر إليها معجباً، فأومأت له بابتسامة عريضة ما شجعه على التقدم نحوها. نظرت إليه مرحبة تنتظر أن يبادلها الحديث. تجرأ وقال لها:
- مساء الخير.
- مساء النور.
- هل تقبلين دعوتي على الغذاء.
- غذاء؟ متى؟
- اليوم.
- اليوم؟ لكن الوقت الآن مساء.

تذكر أنه تناول طعام الغذاء قبل ساعات. يبدو أنها أنسته كل شيء. هل جمال النساء يفقد الرجال صوابهم؟ أم أنه لم يهيئ نفسه لتلك المقابلة.
ابتسم لها وقال:
- أقصد العشاء، بل أقصد أي شيء. المهم أنني أدعوك وكفى.
نظرت إليه بعينيها العسليتين، فبلع ريقه قبل أن تتحدث. قالت له:
- إلى أين ستدعوني؟
- حددي المكان.
- إلى النيل الأزرق.
- هيا إلى هناك.
تكررت لقاءاته بها، حتى أصبح نادراً ما يفارقها.

زارها في شقتها، وهناك أحس بأنوثتها؛ فقد كانت تعرف كيف تثير لدى الرجال شهواتهم، وتطفئ لهيبهم. أغرته على تفقد كل خريطة جسدها الممشوق، وكانت بكلامها الناعم تزيده إغراء باقتحام كل الممنوعات، والمحرمات.

عرفت بعد لقاءات سر ضعفه، ومصدر نشوته، وشجعته على البوح بأسرار كان يخجل أن يبوح لزوجته بها. فروتْ كل عطشه، ولبّت كل رغباته الجنسية. تعلق بها، ووعدها بالزواج على أن تظل العلاقة بينهما سرية، وأغدق عليها الهدايا والأموال، فأصبحت عشيقته التي يحلم بها وهو في فراش زوجته.

شعرت زوجته بغيابه المتكرر عن البيت، وعندما كانت تسأله كان يكرر لإجابة نفسها: إنني مشغول بالعمل.

كان ذكياً. يغتسل قبل عودته، ويحاول محو آثار نزواته ومغامراته.

مرت الأيام بسلام، كان خلالها يشعر بالرضا لأنه نجح في الحفاظ على علاقته بعشيقته سراً.

لم تكن زوجته تتصف بالذكاء الخارق، لكن لكل امرأة أحاسيسها تجاه زوجها، تلك الأحاسيس التي يصعب على الرجل فهمها. أحست أن زوجها يخفي عنها شيئاً، لكنها عجزت عن معرفة سر تغيبه.
تساءلت أكثر من مرة: "هل يذهب للسهر مع أصحابه؟ هل يسهر معهم في الكازينوهات؟ هل يلعب القمار؟ هل أدمن على المخدرات؟ لا.. لا.. هذه كلها وساوس.. لن أستسلم لها، لكني سأعرف سبب غيابه."

أدمن الزوج زيارته السرية، ففتاة أحلامه أصبحت في دمه، في نبضات قلبه. علمته كيف يشتري أقراص الـ (إكس تسي) الممنوعة التي تثير لدى الرجل طاقته الجنسية، وتشعره بالرغبة لساعات طويلة.
أحس بمتعة لم يشعر بها من قبل في حياته كلها، فأدمن عليها.

في إحدى الليالي عندما كان مع عشيقته قرر أن يبلع قرصين (حبتين) من الـ (إكس تسي). أخرج مغلفاً صغيراً كان يخبئ القرصين به، وأخرج القرصين، وبلعهما على الفور.
قال لها:
- أشعر أنني اليوم قوي كالحصان. لن أدعك تنامين حتى الصباح.
فقالت له وقد أطبقت عليه صدرها:
- أنا لك جاهزة.. المهم ألا تتعب.
- أتعب؟ ها ها ها. هذه الليلة عندي بعشرة.
- سنرى.
ثم بدت تتحداه وتثير فيه كل غرائزه.

فجأة أحس بوخز في قلبه ثم سقط على الأرض.
حاولت أن تسعفه لكنها فشلت. رشت عليه بعض الماء فلم يستيقظ. تساءلت: هل مات؟
حركته بيديها. صفعته على وجهه بلطف فكان جثة هامدة.

- يا إلهي ماذا أفعل؟ لعله ما زال حياً؟
لم تتردد كثيراً، فاتصلت بسيارة الإسعاف التي نقلته على الفور إلى المستشفى، وفي الطريق بعد الفحوصات الأولية أعلموها أنه توفي.

بدأت تبكي وتلطم، وعندما وصلت السيارة المستشفى استغلت انشغال الممرضين بنقله، فاختفت من المستشفى. بحثوا عنها بعد نقله لقسم التشريح فلم يجدوها، فبلغوا الشرطة بالحادث، والتي باشرت التحقيق حيث عرف المحققون أن الزوج غادر منزله صباحاً كعادته ولم يعد.

بعد أيام اعتقلت الشرطة الفتاة الهاربة التي انهارت من الجلسة الأولى عندما عرفت أنه مات مسموماً.
- مات مسموما؟! أنا لم أقتله. لماذا أقتله؟! لقد وعدني بالزواج.
سألها المحقق إن كانت تتعاطى المخدرات معه.
- مخدرات؟ أبداً والله.
- ولكن التحليل أثبت أنه يتعاطى مادة منشطة.
- تقصد الـ (إكس تسي)، فهذه حبوب مقوية للرجال.
- حبوب مقوية؟! تعرفين أنها ممنوعة؟
- هو الذي كان يشتريها.
- التحاليل الطبية أثبتت أن مات مسموماً تلك الليلة، وأنه تعاطى السم قبل وفاته بساعة فقط، أي خلال وجودة في بيتك.
- في بيتي؟ لا لم يحصل، هذا غير صحيح.

كان التحقيق معها قاسياً، والاتهام موجه كله ضدها، وبعد تفتيش بيتها وجدوا لديها العشرات من الهدايا التي كان يقدمها لها.

اعترفت بكافة تفاصيل علاقتها به، والليالي الحمراء التي كانت تقضيها معه، لكنها أنكرت أنها حاولت تسميمه أو قتله.

عائلة القتيل كلها فوجئت بعلاقته بعشيقته، واتهموا العشيقة بخداعه، وقتله لابتزازه وطالبوا بإعدامها.
لبست زوجته وأولاده الملابس السوداء وأعلنوا الحداد المفتوح حتى إصدار الحكم على العشيقة. الصحافة وجهت كل الاتهامات لها، والصحافيون اخترعوا عنها الحكايات والأعاجيب.

وفي الجلسة الأخيرة، صمت الجميع في القاعة بانتظار قرار القاضي الذي أعلن إدانة المتهمة والحكم عليها بالإعدام.

- إعدام؟ لا.. أنا بريئة.

صرخت العشيقة بأعلى صوتها. نظرت إلى وجوه الحاضرين وقالت بأعلى صوتها:
- لم أقتله، والله لم أقتله. أعترف بعلاقتي معه، لكنني لم أقتله. كيف أقتله وقد كان يحبني ويغدق علي الهدايا؟

كانت تجول ببصرها في وجوه الحاضرين واحداً واحداً كأنها تحاول إقناعهم ببراءتها.
فجأة التقت عيناها بعيني زوجته بملابسها السوداء. ارتسمت ابتسامة عريضة على وجه الزوجة التي كانت تتمتم لنفسها بصوت لم يسمعه أحد: الآن اكتمل ثأري من خيانتكما.

موعد مع خالي الذي مات

أحببته كحبي لوالدي. كنت دائماً أنتظر زيارته لنا خصوصاً في الأعياد والمناسبات، فقد كان يقدّم لي عيدية كبيرة كانت في حينها أكبر هدية تقدم إلى طفل من أقاربنا؛ قرشان كاملان. كانت قطعة واحدة لونها أبيض، متداولة بين الناس في خمسينيات وستينيات القرن العشرين في الأردن، ويسميها الناس بالقرطة، لذلك كان خالي سعيد أكثر الأخوال والأعمام حظوة عندي. أفرح عندما يزورنا، وأنتظر قدومه ثانية بثانية. أستقبله بابتسامة، ولا أنسى تقبيل يديه، فقد تعلم الصغار تقبيل أيادي الكبار من الأقارب كتعبير عن الاحترام لسنهم، ومكانتهم الاجتماعية، ولم يكن حبي لخالي باتجاه واحد، فقد كان يبادلني الحب، ويسأل عني، حتى أنه كان أحياناً يرسل لي الهدايا مع أمي عندما تزوره وأنا في المدرسة.

فجأة توقف خالي عن زيارتنا، ولم أعد أراه لا في عيد، ولا في مناسبة. كنت أسأل أمي:
- أين خالي سعيد؟
فتقول لي بعد أن يتغير وجهها:
- خالك مشغول.
وعندما أعجز عن فهم سبب انشغاله، أسأل والدي بعد عودته من العمل:
- أبي.. لماذا توقف خالي عن زيارتنا؟
يشيح أبي بوجهه عني. لا يعرف ماذا يقول. بعد لحظات يسألني:
- هل اشتقت له؟
- نعم يا أبي، فأنا أحبه.
يقترب مني ويقول لي:
- لقد سافر خالك، وعندما يعود سيأتي لزيارتنا.

لكن إلى أين سافر؟ حاولت أن أسأل أقاربي الآخرين عن خالي، فلم أوفق في الحصول على جواب مقنع. هل فعلاً سافر خالي؟ أم أنه قرر التوقف عن تقديم الهدايا لي؟ هل أغضبته في شيء؟ هل تشاجر مع أمي؟ لا.. ليس كذلك، فأمي تزورهم بين الحين والآخر، وعندما أسألها أن تأخذني معها. تقول لي إنها لا تستطيع زيارة دار خالي إلا وأنا في المدرسة.

يبدو أن في المسألة سِرّاً غامضاً لا أعرفه. لماذا يخفونه عن أطفال عائلتنا؟ هل أنا صغير؟
سنوات مرت ولم أعد أسمع عن خالي شيئاً. كل ما عرفته أن كل الأطفال من أقاربي لم يعودوا يرون خالي، ولا يسمح لأحد منهم بزيارة بيته. لكني أسمع أمي وأبي يتهامسان عن خالي بالألغاز:
- كيف هو؟ هل تحسن؟

- الأمور تزداد سوءاً.

كان قلبي يخفق. لم أفهم شيئاً. الشيء الوحيد الذي فهمته أن هدايا خالي وعيديته وقرطته قد اختفت ولن تعود. اختفى خالي من حياتي، ولكنه ظل في عقلي، أحلم بين الحين والآخر بتلك القرطة البيضاء التي كان يضعها في يدي الصغيرة.

سنوات مرت قبل أن أعود من المدرسة لأرى أمي تبكي وتصرخ، وأبي ينتظرني على الباب. هل ضرب أبي أمي؟
- ماذا حصل؟ سألتهما.
- خالك يا سليم.
- ماذا حصل؟ ألم تقولوا إنه مسافر؟
- لكنه مات.
- مات في السفر؟
- بل مات في البيت.
إذاً لم يكن مسافراً. لماذا كذبوا علي طوال تلك السنوات؟ لا بد أنه خالي الذي طلب منهم ذلك.

ذهبت معهما إلى دار خالي التي كانت تعج بالمعزين. سلمت على الحاضرين، وجلست في غرفة الرجال. كنت مع الأطفال الآخرين نجلس صامتين لا مجال لنا للحديث، فالوجوه عابسة، والجميع يتحدثون عن خالي الذي مات. كنت الوحيد الذي فتح آذانه واسعة لأحاديث الكبار. أدقق في كل كلمة قالوها. كان الاستغراب يتسلل إلى عقلي الصغير رويداً رويداً. يا لها من مفاجآت!
- هل هذا حال خالي قبل أن يموت؟

الآن عرفت لماذا لم نعد نرى خالي سعيد منذ سنوات. الآن حصلت على إجابة كنت أبحث عنها طوال سنوات.
خالي الذي كدت أفقد حبي له، عدت لأحبه من جديد بعد موته.
لماذا يا أبي؟ لماذا لم تخبرني؟ لعلي عاتب على أمي أكثر من أبي. فهو أخوها الذي كانت تزوره دون علمي. ترى ما الذي دفعها لإخفاء الحقيقة عني؟ هل كان يطلب منها ذلك؟ معقول؟
لا.. لا أعتقد. ربما آثرا أن تظل صورة خالي في ذهني تلك الصورة المقدسة التي ترسخت في ذاكرتي. كانا لا يريدان أن تهتز مكانته عندي. وهل كانت ستهتز لو قالا لي ذلك؟ ربما لأنني صغير توقعت أمي أن لا أفهم الأمر ولا أقدره.
مهما يكن الأمر، فخالي قد مات.

مات؟ يعني لن يعود. سافر للمرة الأخيرة. سافر حقيقة هذه المرة. كيف أعرف؟ ألا يمكن أن يكون ذلك خدعة؟
خدعة؟
كل هؤلاء الناس جاؤوا ليودعوه.
أريد أن أرى خالي. أرى جثته. أريد أن ألمسه. أريد أن أودعه.
- أبي... أنا...
- قل يا بني، ماذا تريد؟
- أريد أن أراه. أرجوك.
وبدأت دموعي تتساقط على خدي.
ربت أبي على كتفي، وأمسك بيدي، وقادني نحو غرفة كانوا يغسلونه بها.
دخلت فإذا بمجموعة من الرجال يحيطون به، بعضهم يغسلونه. كانت جثته على تخت صغير.
وقَفْتُ أمامه عاجزاً عن الكلام. فتحت فمي غير مصدق: أهذا هو خالي؟
خالي الرجل الطويل العريض المنكبين الذي كان يحملني طفلاً صغيراً على أصابعه يقذف بي في الهواء ثم يلتقطني؟ ما الذي حوله إلى رجل نحيف؟ أين عضلاته البارزة؟ لماذا أصبح وجهه صغيراً؟ إذاً هو المرض الذي سمعتهم يتحدثون عن إصابته به قبل موته بشهور.
من أين جاءه هذا المرض اللعين؟ ربما بسبب حالة الإفلاس التي وصل إليها؟ هل كان خالي يخجل أن يزورنا في العيد دون أن يحمل لنا الهدايا ويقدم لنا قرطته المشهورة، فآثر الانزواء بعيدا عن عيون الأطفال؟ لماذا يا خالي؟ كيف حصل لك كل هذا؟ الآن عرفت لماذا كانت أمي تبكي خلال الشهرين الماضيين، لأن خالي كان في حالة غيبوبة نهائية. تقدمت قليلاً وعيون الكبار ترمقني، وأحدهم يقول لأبي:
- هذا صغير على هكذا منظر.
تفحصت وجه خالي. لم أعرفه. هذا وجه جديد. المرض غير كل شيء فيه. تجرأت ووضعت يدي على جسده، فأحسسته صلباً كالصخر. إذاً الميت يتجمد كالصخر القاسي. هل يحس يا ترى؟ هل يسمعني؟ هل يراني؟ كيف يراني وقد أغلق عينيه، أو أغلقوها له. إنه ميت إذاً.

يا لرهبة الموت! ما أقساه؟! نعم.. للموت رهبة. للموت حالة غريبة تتملك الإنسان.
تقدمت حتى لامسته، ثم قبلته فوق جبينه. فجأة امتدت يد أبي ليسحبني ويخرجني من الغرفة قائلاً:
- كفى يا ولدي، أدع لخالك بالرحمة.
- رحمه الله.
في المقبرة كنت قريباً من القبر. شاهدتهم يحملونه بالكفن ليدخلوه في القبر؛ مقره النهائي.
- هل هذا مكان خالي الأخير؟

تقدم خالي الأكبر يحمل المجرفة ليزيل بها أول حفنه تراب على خالي، وكان بجانبه ابن خالي البكر فوزي. ما أن بدؤوا يهيلون عليه التراب حتى صرخت بأعلى صوت سمعت صداه من جبل الطور القريب: لا.. لا.. لا.. وسقطت مغشياً على الأرض.

لم أستيقظ إلا مساء اليوم في البيت. اقتربت أمي مني وقبلتني.
- كيف أنت الآن؟
كان أبي بجانبها. نظرت حولي لأجد نفسي في البيت.
- متى سيعود خالي؟
قالت أمي:
- خالك لن يعود يا بني، لكنه سيزورنا كل فترة.
- يزورنا كيف؟ وهل سأراه؟
- يمكنك أن تراه إن أحببت.
- طبعاً أحب. كيف؟ أين هو؟
عندما تنام بعد تناول عشائك، أدع له بالمغفرة، واذهب إلى النوم، وأنت مرتاح البال. سيزورك في المنام وسيقدم لك هدية العيد.
أسرعت بتناول عشائي، وعدت إلى النوم مسرعاً بعد أن لبست أجمل ما عندي، فأنا الليلة على موعد مع خالي الذي مات.

اللعنة على الصورة

حرام عليّ؛ لقد تركتها معلقة تحلم بي كفارس أحلامها، وكزوج للمستقبل. لماذا اشتريت لها الخاتم إذاً؟ هل سأسترده منها؟ لا.. لا أريد منها شيئاً. أريدها أن تتقبل الواقع. ترى أية كذبة محكمة سأكذبها عليها؟ ماذا سأقول لها؟

بعد تفكير طويل وصلت إلى الحل. بعد وصولي بأيام اتصلت بها هاتفياً وقلت لها:

- حبيبتي.. هل تعرفين أين أنا؟

قالت وهي تبتسم بصوتها الناعم الرقيق:

- في البيت؟

قلت وأنا أتصنع الألم:

- كلا أنا...

وبدأت أبكي، ثم تابعت:

- أنا في المستشفى.

- ماذا حصل لك؟

- أصبت بجلطة قلبية وأنا الآن في المستشفى.

- سلامتك حبيبي.. سلامتك. ليتني بجانبك لأقف معك.

تغير صوتها وبدأ حزيناً. قلت لها:

- ليتني لم أعرفك يا حبيبتي. أنا حزين...

- لم أفهم ماذا تقصد؟

- الدكتور قال لي إنني مصاب بمرض القلب، وإنني ممنوع من الزواج لأن العملية الجنسية خطر على قلبي، وقد تؤدي إلى الوفاة...

- ماذا؟ ماذا تقول؟

- هكذا قال، ولكني قلت له لن ألتزم بما تقول، فلدي خطيبة تنتظرني، وعندما سمع أبي بذلك صادر مني جواز سفري، وقال لي: "يجب الالتزام بأمر الطبيب."

بدأت تبكي وتقول:

- اللعنة على الدكتور.. اللعنة على هذا المرض. ألا يوجد أمل بالشفاء؟

- على ما يبدو لا أمل. أحمد الله أنني عرفت بمرضي قبل أن نتزوج كي لا أعطل عليك مستقبلك.

صمتُّ قليلاً، ثم قلت وأنا أبكي حقيقة وليس كذباً:

- أتمنى لك الخير والمستقبل الزاهر. الخاتم والكاميرا وما قدمته من هدايا لك مني هدية، وسأرسل ألف دولار هدية ثانية، وآمل أن نظل صديقين.

- لا أعرف ماذا أقول لك؟ الآن تعبت. سأتحدث معك غداً، إلى اللقاء حبيبي.

أغلقت السماعة. كنت أبكي كالأطفال على الرغم من أنني حققت هدفي وتخلصت منها. كان صوت يهمس في أذني دون أو أراه: لماذا تبكي؟ هل رقّ قلبك لحالها؟ هل تشعر الآن أنك حطمت أحلامها، وأنت الذي يتباهى أنك ما كنت تحب أن تحطم حلم أحد؟ هل تشعر بالذنب؟ ألا يكفي كل ما قدمته لها من هدايا؟ لا ترد علي. أعرف أنك ستقول إن مشاعر الناس وأحلامهم لا تقاس بالنقود، لكن ما ذنبك؟ لقد خدعتك الصورة، الصورة هي السبب.

هل فعلا السبب الصورة، أم مزاجي الخاص بالنساء؟ اللعنة على النساء! لماذا لكل منهن إثارتها الخاصة؟ لا.. لا.. اللعنة عليّ، فأنا شرعت باتخاذ القرار. لا.. لن ألعن نفسي، فما قمت به كان صائباً. اللعنة على الصورة؛ الصورة هي السبب.. الصورة كانت خادعة. لن أصدق الصور بعد اليوم.. لن أصدق أية صورة، ولن أطلب صورة أية فتاة بعد اليوم.

عندما قررت الزواج بدأت أبحث حولي عن فتاة مناسبة لعش الزوجية.. فتاة تعجبني وتدخل قلبي. لم أستشر أمي ولا أحداً من أقاربي، فقد قررت أن أخوض غمار التجربة وحيداً.

كنت أعرف فتيات كثيرات، من ابنة الجيران إلى زميلاتي في الجامعة، إلى زميلات العمل، وغيرهن. تعرفت إليهن في مناسبات كثيرة. لم يكن سهلاً عليّ اتخاذ القرار في هذا المجال، فعندما أحكّم عقلي أختار إحداهن، ولكن عندما أحكّم عواطفي ومشاعري أختار غيرها. من كنت أرغبها زوجة تزوجت، كأن الخطّاب كانوا على باب بيتها مثلما كان القمر ينتظر أمام باب المطربة الراحلة فايزة أحمد رحمها الله، فاحتارت أن تنادي له أم تقفل الباب وتتركه بانتظارها.

في الزواج أنا رجل متقلب الآراء. لا يعجبني العجب ولا الصيام في رجب! علياء كانت أقربهن إلي. كنت أعدها صديقة عزيزة وأفشي لها ببعض أسراري. كنت على وفاق معها، لكن عندما عزمت على الزواج فعلاً لم أخترها على الرغم من أنها الأنسب لي. بصراحة لم تكن تثيرني، فأنا شاب لم يتزوج من قبل، وأحمل في قلبي ناراً. أبحث عن امرأة تعرف كيف تطفئها منذ أول نظرة. أبحث عن امرأة النظر إليها يروي بعض ظمئي. لكل رجل امرأة تثيره؛ بعضنا تثيره المرأة الطويلة، وآخرون تثيرهم المرأة الشقراء، أو السمراء، أو النحيفة أو... الخ.

وأخيراً وجدتها. نعم.. إنها هي التي أبحث عنها. دققت النظر في الصور التي استلمتها منها جيداً، فرأيت كل ما أبحث عنه, تعرفت إليها عبر الشبكة العنكبوتية. يا لهذه الشبكة التي حولت أحلامنا إلى واقع

ملموس! في البداية تراسلنا للتعارف، ومع الأيام بدأت أشعر بالانجذاب إليها، فطلبت منها أن نتبادل الصور، فلبّت سريعاً كأنها كانت مثلي تبحث عن شريك حياة.

بعد فترة اقترحت عليها أن نستخدم برنامج "سكايبي" للمحادثة المباشرة على الشبكة، فوافقت بعد تمنّع.فرِحت لموافقتها. كانت جميلة أمامي. كنت أتحدث معها وأنا أدقق النظر فيها. شعرت كأنها تدغدغني في كل مكان.

تمنيت حينها لو أن الزمن يتقدم بسرعة، وتصبح زوجتي. ترى ما هو شعوري في تلك اللحظة؟ أي رجل محظوظ سأكون أنا؟

كان صوتها ناعماً ينساب كالنسيم العليل. سحرتني، لكن كيف سأقابلها؟ وأين؟ فهي في دولة وأنا في دولة أخرى؟ هل أسافر لها؟ ولكن تحت أي مبرر سأسافر؟ وماذا سأقول لها؟ هل يسمح لها أهلها بمقابلتي.
قلت لنفسي:
- آن الأوان لكي أصارحها بالموضوع.
سألتها ذات مرة:
- فاتنة.. أتتزوجينني؟
- ماذا؟ ماذا قلت؟
- قلت إنني أحبك، وأعرض عليك الزواج، فهل تقبلين بي؟
- زواج؟
كانت السعادة بادية على وجهها. قالت:
- كيف وأنت في بلاد بعيدة؟
- سآتي لعندك وأتزوجك وآخذك معي.
صمتت ثم قالت:
- ومتى ستأتي؟
- الآن إن أحببت.
ضحكت وقالت:
- أنا بانتظارك.
- وأهلك هل سيوافقون؟
- لم لا؟ ألست أهلاً لابنتهم؟
- فاتنة.. أنا سعيد بموافقتك. غداً سأحجز تذكرة بالطائرة، وسأكون عندكم في أقرب فرصة. أحبك.. أحبك.. أحبك.
- وأنا أيضاً.

- أنت ماذا؟ قوليها.. أسمعيني إياها.
- أحبك.. أحبك.. أحبك.
- الله.. ما هذا الكلام الجميل الذي انتظرته طيلة عمري.

لم أنتظر كثيرا فقد عزمت على السفر للقائها وخطبتها من أهلها، اشتريت تذكرة السفر إلى البلد التي تعيش فيها وحملت معي بعض الهدايا وكرت الائتمان المفتوح، وبعض النقود لأشتري لها دبلة الخطوبة، وطرت بعد أيام إليها.

عندما وصلت فوجئت بالروتين الممل في المطار؛ ما زالت المطارات العربية متخلّفة في الخدمة وفي الاستعدادات. كنت أتوقع المطار أكبر وأجمل، لكن لم أحضر إلى هنا من أجل المطار. عندما عرف موظف الجوازات أنني عربي ولست أوروبياً أو أمريكيا وضع جواز سفري جانباً، ومضى يختم جوازات سفر الأوروبيين. سألته لماذا أخّرت جواز سفري؟ فأشار إلي بعينيه إشارة لم أفهمها. بعد قليل شاهدت مسافراً عربياً مثلي يخرج قطعة نقد لم أعرف قيمتها ووضعها في جواز سفره، ثم قدمها للموظف، فأعاد له الجواز مختوماً.

عرفت السر إذاً؛ العرب عليهم دفع بدل الدخول (رشوة). ماذا أفعل؟ هذا قدري. أخرجت من جيبي عشرين دولاراً ووضعتها بالخفية في يدي، ثم قذفتها له من الشباك دون أن يراني أحد.

أخذ جوازي. ختمه وأعاده وهو يقول مبتسماً:
- مرحباً بك في وطنك!

خرجت من المطار، فوجدت الناس بالمئات ينتظرون أقاربهم، ولمحت لوحة مكتوب عليها اسمي. عرفت أن حاملها ينتظرني. توجهت إليه، فرحب بي، وقال إنه السائق المكلف بإحضاري. سألته:
- هل معك أحد؟
فقال:
- نعم.. إنها هنا. ألم تعرفها؟
وأشار إليها بإصبعه. كانت تقف بجانبه. ذهلت عندما رأيتها. لم تكن بالشكل الذي شاهدته بالصورة. كانت صورتها أجمل، وأكثر إثارة. بدت لي على حقيقتها؛ قصيرة القامة.. رفيعة...

سلّمت عليها بفتور، لكني حاولت اصطناع اللقاء. شددت على يدها، وبدون تفكير احتضنتها، وطبعت على خدها قبلة مصطنعة. كانت معها أختها. سلّمت عليها. رحّبا بي، وتوجهنا جميعاً إلى بيتهم.

في الطريق جلست معها في المقعد الخلفي، وجلست أختها بجانب السائق كأنها أرادت أن تتركنا وحدنا نتبادل أحاديث الهوى. ليتها تعرف أن ذلك الشوق إلى لقاء أختها قد انطفأ منذ النظرة الأولى. نعم.. انطفأ!

شعرت ببرود وأنا أجلس بجانبها. صرت وأنا أحدثها مجاملة. أسأل نفسي: هل هذه زوجة المستقبل؟ لا يمكن أبداً. لم أجد فيها الإثارة التي وجدتها في الصورة! هل خدعتني؟ هل اصطنعت الصورة؟ الناس عندما يلتقطون صوراً لهم يحاولون أن يظهروا بأجمل شكل؛ يلبسون أجمل ما عندهم، ويوجهون الكاميرا بالاتجاه الذي يظهرهم بأجمل شكل.
هل هي السبب؟ أم أنا؟ لماذا لا تثيرني هذه المرأة الجالسة بجانبي على الرغم من العطور الرائعة التي تفوح منها كوردة جميلة يتسابق النحل على امتصاص رحيقها؟ ماذا دهاني؟ هل أنا غريب عن الناس؟ غريب عن العالم؟ لا أعرف. كل ما أعرفه أنها لم تعد تثيرني.

اللعنة على تلك الغريزة التي تتحكم بنا، وتفرض علينا أن نحب هذه ونكره تلك. لماذا لم يخلق الله الناس كلهم على شكل واحد فيريحني من هذه الحيرة؟ المهم ماذا أفعل الآن؟ هل سأتزوجها؟ أعوذ بالله. هل سأعتذر لها؟ نعم، ولكن كيف؟ أخاف أن أقول لها الحقيقة. أخاف أن أجرحها، أخاف أن أحطم مشاعرها. ما ذنبها أنها غير مثيرة بالنسبة إلي؟ لعلها حلم كثير من الشباب غيري أنا.
بعد تلك التساؤلات قررت التخلص منها بأدب.

عندما وصلنا بيتهم، كان والدها وأخوها وأختها الثالثة بانتظارنا. رحبوا بي جميعاً، وحولوني إلى مائدتهم للأكل.

لم أكن جائعاً، لكني شاركتهم الأكل. تحدثنا طويلاً، وعرفت من خلال حديثهم أنهم طيبون، وأناس يسعد المرء بمصاهرتهم.
عرضوا علي النوم عندهم، لكنني رفضت طبعاً، فقد كنت قد حجزت للنوم في الفندق، فغادرتهم مساء إلى الفندق، وعدت لهم في اليوم التالي لأخطب ابنتهم.

لم أصدق نفسي أخطب ابنتهم وأنا أعرف سلفاً أنني لن أتزوجها. لكن لم يكن لدي خيار آخر. كنت غير قادر على تركها ومغادرة البلاد. لا أريد أن أجرح مشاعرها. ماذا أقول لها؟

هل أقول: "أعتذر، فقد كنت بالصورة أجمل"؟ اللعنة على الصورة.. لقد خدعتني. لا أعرف كيف صدقت الصورة. الآن عرفت لماذا تبدو الممثلات جميلات! ربما لو رأيتهن على حقيقتهن لغيرت رأيي بكثير منهن.

خطبتها من أهلها، وذهبت معها إلى السوق في اليوم التالي، واشتريت لها خاتماً من الذهب والألماس بحوالي ألف دولار، وقضيت معها سهرة جميلة في أحد مطاعم البلد. أحمد الله أن تذكرة سفري كانت لمدة

أسبوع فقط. حضّرت نفسي للعودة بعد أن وعدتها أن أعود بعد شهر للزواج، وبعد أن أقوم بجميع الإجراءات اللازمة لأخذها معي حيث أقيم.

ودّعتها بعد أن عانقتها، وتركت معها الكاميرا كي نلتقط أجمل الصور في شهر العسل!

ليلة التوبة

لم يكن لحسان خيار آخر سوى الموافقة على قطع رجله اليسرى بعد أن أعلمه الطبيب أن ساقه لم تعد صالحة لأن (الغرغرينا) قد استفحلت فيها.
آخر ما كان يتوقعه أن تكون نهايته المأساوية بهذا الشكل.
سيقطعون رجلي؟! لن يكون بإمكاني السير عليها.. لن يكون بإمكاني العمل. سأصبح عاطلاً.

كان حسان وحيداً في غرفة العمليات. لم يزره أحد منذ دخل المستشفى سوى زوجته التي عادت إلى البيت كي تكون بجانب الصغار. سيواجه مصيره بنفسه.
الممرضات حوله يحاولن تهدئته والتقليل من مخاوفه:
- خلِّ إيمانك بالله قوياً. إن شاء الله ستكون بخير.

بعد دقائق كان حسان في غيبوبة تحت تأثير المخدر، وبعد أن بدأ يستيقظ من تأثيره كانت رجله قد قطعت إلى الأبد. نقل إلى غرفة فيها بعض المرضى الآخرين الذين يئنّون من المرض. لم يكن حوله أحد من أقاربه، فقد برروا غيابهم عنه بانشغالهم في ذلك اليوم، ووعدوا بزيارته فيما بعد.
ما أسوأ أن يصحو المريض من المخدر فلا يرى أحداً حوله. إنها لحظات تزيده ألماً وحسرة. في تلك اللحظة يرى الإنسان مَن حوله على حقيقتهم، بألوانهم الطبيعية، فيعرف أيهم الذي يتمتع بجمال الطبيعة وأيهم المزيف.
بدأ حسان يتحسس رجله، الآن تأكد أنها لم تعد موجودة.

ستة شهور مرت على حسان وهو جالس في البيت بدون عمل، فقد فصل من عمله السابق، مع شركة النقليات التي كان يعمل بها، وضاع المبلغ الذي منحوه إياه تعويضاً عن سنوات خدمته.

حاول أن يشد من عزيمة أولاده الصغار الذين بانت على وجوههم الكآبة بسبب وضع والدهم الصحي. كان لحسان أربعة أطفال؛ ولدان وبنتان، أعمارهم (عام، ثلاثة، خمسة، وسبعة أعوام).

طرق كل الأبواب، ولكنه لم يحصل إلا على الفتات. كان يبحث عن عمل، ولم يوظفه أحد.

في أحد الأيام، وبينما كان يسير في أحد الأسواق على عكازين، شاهد شاباً يحمل هاتفاً خلوياً يعرضه على المارة لاستخدامه مقابل (٧٥) قرشاً للدقيقة الواحدة. راقت له الفكرة وقال لنفسه: إنها فرصة للعمل دون الاستعانة بأحد.

اشترى حسان جهازاً خلوياً بعد أن استدانت زوجته ثمنه من صديقات لها، وتعلّم كيف يستخدمه ويعرف حساب الدقائق المستخدمة، ثم بحث له عن مكان في أحد الشوارع التي تزدحم بالمارة، فجلس على أحد الأرصفة، ووضع عكازه بجانبه، ثم علق ورقة كبيرة كتب عليها: (الدقيقة بخمسين قرشاً).
كان بعض المارة يعطفون عليه فيستخدمون الجهاز. بعضهم يترك له بعض القروش زيادة. شعر بالسعادة لأنه أصبح يعود إلى البيت ببعض المال لزوجته لتشتري المواد الأساسية للعائلة، ومع الأيام بدأ يتعود على الوضع.

تحسنت نفسيته، فقد صار يعمل من الصباح الباكر حتى ساعة متأخرة من الليل. ما أجمل أن يعمل الإنسان فلا يعود عالة على أحد! إنه يكبر أمام زوجته وأولاده.. يكبر أمام جيرانه وعائلته. إنه يكبر أمام نفسه فلا يعود يشعر بالإحباط والمذلة. إنه ينظر الآن إلى الحياة نظرة مختلفة؛ نظرة أكثر تفاؤلاً. اليوم بدأ يفكر كيف يؤمن مستقبل أولاده، يا له من مستقبل غامض يعتمد على مهنة غير مضمونة!

في أحد الأيام مرّ عليه أحد المارة يطلب استخدام الهاتف. كان شاباً في العشرين من عمره. حمل الخلوي وبدأ يتصل:
- ألو.. أيوه يا شوقي.. أنت فين؟ فين؟
وبدأ الشاب يمشي بالمحمول يتلفت حوله ويقول للشخص الآخر:
- أنا مش شايفك. أنت فين بالضبط؟ أنا واقف جنب الرجل بتاع المحمول اللي على الشارع. أنت فين؟ أنت لقدام خمسة محلات. طيب استنى أشوف.
وبدأ يسير بالمحمول. صاح عليه حسان:
- يا عم رايح فين بالمحمول؟
لم ينتبه له الزبون، واستمر في المشي وهو يقول:
- أنا قربت عليك، بص أنا لابس...
فجأة هرب الشاب بالمحمول. وقف حسان بعكازه يحاول اللحاق به وهو يصيح: "المحمول المحمول". لكن لم يستطع أحد مساعدته، فقد كان الشاب قد اختفى عن أعين المارة. غضب حسان وشعر بالإهانة. حينها أحس أنه عاجز تماماً.

آه لو كانت رجلي معي للقنته درساً لن ينساه طيلة حياته. أنا حسان يحصل لي هكذا؟ لعن الله العجز ما أسوأه! لو كنت برجلي الثانية لما تجرأ أصلاً على فعل فعلته السوداء. هكذا الناس دائماً يهاجمون الضعيف لأنهم لا يشعرون بانتصاراتهم إلا عليه. الضعفاء هم الأكثر تعرضاً للظلم في هذا العالم. كل الناس لها مخالب تدافع عن أنفسها إلا العجزة مثلي، فمخالبهم يكاد تسمح لهم بحك جلودهم.

جلس على الأرض، لاعناً حظه، مستعيداً سنوات حياته كلها، باكياً لمصيره المظلم.
كان المارة يرون دموعه المنهمرة على خدوده، بعضهم رق لحاله، فرموا له ما تيسر من القروش معتقدين أنه شحاذ.
بعد ساعة تجمع لديه بعض المال، جمعه ليعوض بها خسارته الباهظة في ذلك اليوم.

كان متعباً، محبطاً، فظل جالساً على الأرض كأن فكرة الشحاذ راقت له. وبينما هو مهموم حزين شارد البال توقفت امرأة تلبس نظارة سوداء كانت خارجة من أحد المحلات التجارية القريبة، فرمت إليه عشرين جنيهاً.
نظر فوراً إليها وقال:
- عشرون جنيها؟ لماذا هذا؟
رفعت النظارة عن عينيها وقالت له:
- إنها لك؟
- لي أنا؟
دقق النظر في وجهها. ارتعب منها. اهتز بدنه، ثم قال لها:
- لا.. لا.. أنا لا أستحق ذلك. خذي أموالك. الله ما بيني وبينك.
ثم أعاد لها فلوسها. أخذت منه النقود وغادرت المكان وهي تتعجب من هذا الشحاذ الغريب.

حاول حسان في اليوم التالي أن يشتري جهازاً جديداً خلفاً للأول، لكنه لم يستطع، فالأسعار ارتفعت، ولم يعد يملك ثمن جهاز جديد، فعاد إلى محطته القديمة في السوق لعل أحداً يعطف عليه كما عطفوا في اليوم السابق. إنه الآن يمارس مهنة جديدة دون أن يدري. يمارسها خجلاً، لكنه لم يجد بديلاً عنها. بعد الظهر مرت سيارة مرسيدس، ثم فجأة توقفت بجانبه. نزلت منها فتاة عشرينية قدّمت له عشرين جنيهاً، ثم انصرفت.
لم يصدق عينيه.
- عشرون جنيهاً.. يا إلهي! ما هذا الذي هبط علي من السماء؟ أشكرك يا رب.
- ألقى القبض عليها ودسها في جيبه حالماً بشراء بعض الحلويات للأولاد.
في اليوم التالي عادت السيارة نفسها. توقفت بالقرب منه. نزلت منها هذه المرة امرأة في الخمسين من العمر؛ شخصية جذابة من شخصيات المجتمع. تقدمت منه وألقت إليه بعشرين جنيهاً. انتبه إليها حسان. رفع عينيه ليرى من المتبرع الجديد. دقق فيها جيداً. هي المرأة نفسها التي جاءت قبل يومين بالنظارات السوداء. كان الصليب يظهر على صدرها، وعيناها تشعان نوراً. اهتز بدنه. ما الذي أعاد هذه المرأة إليه؟ أهو الله؟
قال لها:
- لا.. لا أستحق نقودك يا سيدة.

وقبل أن يعيد لها المبلغ كانت قد غادرت المكان.
ظل حسان متوتراً طوال النهار يفكر في إعادة المبلغ لها. نعم.. هو بحاجة إلى المبلغ، لكنه يشعر أنه لا يستحقه.
يا حسان.. إنها هبة السماء. أولادك أحق بها. لا إنها أموال لا أستحقها. سأعيدها لها.. سأعيدها لها.

في اليوم التالي كانت المحامية فيولا في مكتبها عندما دخلت عليها السكرتيرة تقول لها:
- سيدتي.. رجل كسيح في المكتب يصر على رؤيتك، مدعياً أنه أمر مهم. يبدو أنه شحاد.
انتصبت فيولا في جلستها وأمرتها أن تدخله.
دخل حسان إليها. بادرها بالتحية:
- السلام عليكم.
- وعليكم السلام.
- هذه نقودك يا سيدة فيولا. أرجو أن تقبلي اعتذاري. أنا بخير والحمد لله.
استغربت فيولا تصرفه. لماذا جاء إلى المكتب يعيد لها النقود؟ ألم يأخذ المبلغ نفسه من ابنتها؟ سألته:
- لماذا أعدت المبلغ؟ لا بد أن وراء تصرفك سراً غريباً! ما الأمر؟ أرحني!
كان حسان يتفقد مكتبها بعيونه. هذه صورتها مع زوجها الصحافي سمير الذي كان أشهر صحافي عرفته المدينة.

الوجه نفسه. الملامح نفسها. لم يترك فاسداً إلا ونشر فضائحه، ولكن عندما بدأ ينتقد رئيس البلدية اختفى عن الساحة. لا أحد يعرف أين هو إلا الجناة الذين ارتكبوا جريمتهم. قال لها:
- لا.. ليس هناك سر. أنا لست شحاداً، لكن الظروف رمتني هناك بعدما سرقوا مني المحمول الذي كنت أعيش منه.
- هل تريد العمل؟
- أين؟
- هنا؟
- أتسخرين مني؟
- كلا والله. أنا جادة في كلامي.
- وماذا سأعمل؟
- سترد على التلفون وتحول لي المكالمات. ستعلمك السكرتيرة ماذا تفعل.
- هل ستطردينها؟
- لا ستعمل معها.

وافق حسان مسروراً على العرض؛ ستكون له وظيفة يعيش منها بشرف، وفي اليوم التالي كان حسان في مكتب المحامية فيولا يرد على الهاتف. أعاد العمل له كرامته المهدورة أمام أولاده وزوجته. شعر براحة شديدة، وهدأت ثورته الدائمة على العالم. لم يكن يقلقه سوى صورة زوجها الصحافي المعلقة في المكتب. لا يدري لماذا كلما نظر إليه أصابته قشعريرة.

آه لهذا الزمان.. كيف كان زوجها سمير يهابه الكل، لكنهم تآمروا عليه وأسكتوه إلى الأبد. يا لهذا القدر؛ الناس الشجعان الشرفاء لا يعيشون طويلاً، لأن الفاسدين يتآمرون عليهم، ويتكالبون عليهم، ويحكمون أفكاكهم على رقابهم الغضة!
لماذا لا يحدث العكس؟ لماذا يا رب؟ لماذا لا يتكاتف الشرفاء على الفاسدين فيلقونهم أرضاً؟ لماذا الفاسدون هم الذين يتحدون؟ الناس مثل قطعان الحيوانات الهاربة من أسد مفترس، كل منهم يريد أن ينجو بنفسه. ترى عشرات الغزلان، والأبقار، هاربة من حيوان مفترس واحد. لماذا يهربون منه؟ ألأنهم لا يملكون أنياباً كأنيابه، ومخالب كمخالبه؟ هل جربوا أن يهجموا عليه كلهم؟ لا.. لا يريدون لأنهم قرروا أن يظلوا مشتتين، لا يثقون بقدرتهم وإمكاناتهم لو توحدوا ضد عدوهم.
لكنهم حيوانات لا يفكرون يا حسان!
وهل البشر أفضل حالاً؟ ماذا تفعل الملايين المستضعفة؟
اقترب من الصورة قليلاً وقال متمتماً:
- كم من الجنود المساكين ينفذون قرارات رؤسائهم، ويقتلون مساكين مثلهم، دون أن يعرفوا لماذا قتلوهم؟!

مر عام على وجود حسان في مكتب المحامية فيولا. كان راتبه مغرياً لشخص مقعد مثله لا يحمل شهادة، لهذا كان يخدمها بإخلاص. كان يشعر أنه مدين لها بالكثير، لا يعرف كيف يرد إليها هذا الجميل بغير جده واجتهاده.

هذا الأسبوع يصادف الذكرى العشرين لاختفاء زوجها الصحافي سمير، وقد قررت إقامة احتفال تأبيني في قاعة إحدى القاعات، ودعت حسان أن يحضره لأنه سيكون يوم إجازة مدفوعة الأجر.
لم يستطع حسان الاعتذار مع أنه لا يحب المشاركة في تلك الاحتفالات حتى لا يسجل الكبار اسمه في قوائمهم بأنه من الداعين لمحاربتهم، فهو ينظر خلفه ليرى ماذا حل بغيره. إنه واحد من الذين يواصلون الهرب حتى يصلون إلى بر الأمان. ليس لبر الأمان مكان محدد. إنهم يعرفون ذلك بحسهم الغريزي، فالحيوان المفترس لن يتوقف عن ملاحقتهم إلا عندما يشبع جوعه المؤقت. بر الأمان مجرد مرحلة زمنية تتغير باستمرار.

في احتفال تأبينه، تحدث الخطباء عن مناقب الصحافي سمير وشجاعته في مواجهة الفساد، وأدانوا الجهة التي تقف خلف اختطافه، وتقاعس السلطة عن اكتشاف الجناة وملاحقتهم. في كلمة له قال الصحافي عبد الله:
"لقد حقق الفاسدون انتصاراً بإسكات صوته، ويحققون كل يوم انتصاراً جديدا بشراء ذمم الضعفاء الذين تغريهم الفلوس، فيتخلون عن واجبهم، لكن انتصارهم لن يكون أبدياً، فلا بد لكلمة الحق أن تعلو يوماً، وتنتصر، وتسحق كل الطغاة!"
هز حسان رأسه.
هذا ما يقوله الضعفاء في كل زمن، لكني لا أرى إلا الصورة نفسها؛ أسياداً وعبيداً. تتغير الأسماء، والألوان، وتبقى الحقيقة التي لا فرار منها؛ أشخاص يركبون على أكتاف غيرهم.

أما فيولا، فقد كانت آخر المتحدثين. كانت كلمتها مؤثرة تخاطب الوجدان والقلوب والضمائر:
"يا من خطفتم سمير وقتلتموه لأنه أحبكم.. دلوني على مكان جثته. أعدكم أنني لن أشي بكم إلى الشرطة. لن ألاحقكم لأن ملاحقتكم لن تعيده لي حياً. أعيدوا جثته ليطمئن قلبي.. أعيدوا عظامه لكي أكحل بها عيوني قبل وفاتي، ولكي تلمسها ابنته التي يتمتموها طفلة قبل أن تستطيع لفظ كلمة بابا.
أيها المغرر بهم الذين نفذوا جريمتهم لحساب الكبار مقابل بعض الجنيهات وفتات الموائد.. دلوني على مكان دفنه لعل الرب يغفر لكم خطاياكم كما غفرها سمير لكم عندما كان يزورني في أحلامي. لقد ضربتموه على خده الأيمن فأدار لكم خده الأيسر. تركككم تنفذون جريمة أسيادكم لتقبضوا ثمن قتله، وتشتروا بها طعاماً لأولادكم.
إنني أعلن من هذا المنبر عن جائزة مقدارها نصف مليون جنيه لمن يدلني على مكان دفنه، وأعده أن لا أشي به، ولن ألاحقه، ليتصل بي على مكتبي، وليحدد طريقة إنجاز المهمة."

كان حسان يبكي بكاء مراً لكلمة المحامية فيولا. لقد هاجمت الجناة في أعماقهم. قتلوه ليطعموا أولادهم من دمه. نفذوا جريمتهم لحساب الكبار المتربعين في مكاتبهم، والذين لا يعرف أحد أسرارهم.
كانت الصحف في اليوم التالي تنشر خبر الاحتفال، وصورة الصحافي المفقود سمير، والمكافأة التي حددتها زوجته لمن يدلي عن مكان دفنه.

المحامية فيولا لا تعرف إن كان لا يزال حياً أم ميتاً، لكنها لم تعد تتوقع أن يكون حياً، فالمختطفون لا مصلحة لهم في الحفاظ على حياته طيلة هذه السنوات الماضية.
سألها حسان:
- ألا تعتقدين أنك تدفعين مبلغاً كبيراً ما دمت تعتقدين أنه ميت؟
- عظامه مقدسة لدي. لن أستريح حتى ألمسها وأقبلها قبل أن أواريها التراب بيدي.
- كيف ستعرفين أنها له؟

- بالفحص العلمي.
- يا لهذا الوفاء العظيم. لو كنت أعرف مكان دفنه لساعدتك في الوصول إليه دون مقابل. لعن الله القتلة.

بعد أيام رن جرس الهاتف. رد عليه حسان، فطلب المتحدث التحدث مع المحامية فيولا. سأله حسان:
- اسمك لو سمحت؟
- قل لها عطية.
- ألديك قضية لديها؟
- لا.. هي التي لها قضية عندي.
- لم أفهم.
- بلغها أنني سأتحدث معها بخصوص زوجها المختفي. أسرع، ولا تضيع الوقت.
- حاضر.. حاضر.

حوّل حسان المكالمة إلى مكتبها فوراً دون أن يعلمها كي لا يضيع الوقت.
- سيدة فيولا.. أنا عطية. قرأت إعلانك عن المكافأة. إن أحببت لعقد صفقة تسلميني المبلغ فأدلك على جثته، وإن خدعتني وبلغتِ الشرطة سوق أقتلك، وإن لم أستطع سيقتلك رجالي، وإن التزمت بالاتفاق كلّ منا يذهب إلى حاله.
- أقسم أنني لن أخدعك، لكن لا تخدعني أنت وتقدم لي عظام شخص آخر. سأفحصها.
- أنا رجل يحترم تعهداته. اسمعي.. اذهبي فوراً إلى مطلع الشارع حيث يقع مكتبك، ستجدين كابينة هاتف عمومي. انتظري حتى اتصل بك عليه.
ذهبت فيولا بسرعة إلى حيث أشار إليها. اتصل بها فور وصولها:
- سيدة فيولا.. احضري المبلغ غداً الساعة العاشرة صباحاً، وسأنتظرك في شارع صلاح قرب مطعم السلام. لا تتأخري. انتظريني قرب الإشارة. سأكون لابساً بنطلوناً أسود وقميصاً أخضر. لا تحضري معك أحداً. لا تخافي. إن لم تخدعيني لن أخدعك.
أغلق الهاتف وأنهى المكالمة.

في اليوم التالي تحركت فيولا في سيارتها تحمل في حقيبة صغيرة المبلغ المطلوب، متوجهة إلى لقاء عطية، وهي لا تعرف إن كانت ستعود سالمة من لقائها معه. كان أخوها مراد قد نصحها ألا تذهب لأنها تخاطر بحياتها، لكنها قالت له:
- بعد سمير لم أعد أخاف الموت. لعلني ألتقي به في العالم الآخر. ليرحمه الرب.
وعندما طلب منها تبليغ الشرطة، حذرته بأن ذلك قد يفشل الخطة ويعرضها للخطر. ونصحته ألا يتبعها، لكنها اتفقت معه أن تظل على اتصال دائم معه عبر هاتفها الخلوي كلما سنحت الفرصة.
- أنت تغامرين بنفسك.

- من أجل سمير.
- وما يدريك؟ ربما يلحقوك به.
- أكون قد حققت حلمي. أوصيك يا مراد بابنتي إن لم أعد.
ودعها وهو يبكي، ولام نفسه بعد مغادرتها لأنه لم يمنعها. هل يبلغ الشرطة أم أن الوقت متأخر؟

وصلت فيولا إلى المكان المتفق عليه، فشاهدت ثلاثة رجال يقفون قريباً من الإشارة الضوئية، كل واحد منهم يلبس بنطلوناً أسود وقميصاً أخضر. احتارت أيهم يا ترى؟ كيف ستعرفه؟ لا بد أنه قاتل محترف يجيد التمويه.
اقترب منها أحدهم وقال لها:
- والنبي ممكن تسلفيني عشرة جنيه؟
استغربت سؤاله، وتساءلت: هل هذا هو يا ترى؟ سألته:
- أهو أنت؟
- هل تعرفيني من قبل؟
قالت في نفسها: يبدو أنه ليس المقصود. ثم قالت له:
- اتكل على الله وشوف حد ثاني.
تقدم الثاني وقال لها:
- الساعة كم لو سمحت؟
نظرت إلى الساعة ثم قالت له:
- الساعة العاشرة تماماً.
لا بد أنه الثالث إذاً. تقدم الثالث. نظر إليها من الشباك المفتوح، فقالت له:
- هل أنت عطية؟
- عطية؟ لا يا حلوة. أنا شوقي بس أعجبك.
لم تعد تستحمل، "ما هذا العذاب يا رب؟!". ثم بدأت تتمتم: يا أبانا الذي في السماء أعني، وسهل لي أمري.
فتح الباب الخلفي ودخل إلى المقعد الخلفي رجل في الخمسينات من عمره وقال لها:
- مصر الجديدة إذا سمحتِ.
- ده مش تكسي يا فندم.
- اطلعي يا فيولا، بلاش تأخير، أنا عطية.
- عطية؟ لكن...
- لم ألبس كما اتفقنا. لا تقلقي. الاحتياط واجب. خليكِ دغري، وعلى التقاطع القادم اذهبي إلى اليمين وتوقفي هناك. سأسوق السيارة بدلا منك.
وبعد أن جلس مكانها تحرك بالسيارة إلى المكان المجهول. سألها:
- هل أحضرت النقود؟

- نعم.. أحضرتها.
- أين هي؟
- في هذه الشنطة.
- حسنا.. هل أخبرت أحداً؟
- لا.
- جيد. إن خدعتني سيقتلك رجالي ويقتلون ابنتك، وان حافظت على السر بعد ساعات سيكون كل منا في بيته.
- أرجو ألا تخدعني أنت.
- عطية لا يخدع أحداً، لكن الآن يجب أن تغلقي عيونك حتى لا تعرفي أين نحن ذاهبان.
- هل ستعصب عيني؟
- لا.. سوف ينتبة المارة، لكني أحضرت معي الحل، البسي هذه النظارة.
وناولها إياها.
كانت النظارة سوداء لا يرى المرء شيئاً من خلال زجاجها. قالت له:
- إنها سوداء قاتمة.
- حسناً.. إن خلعتها تكوني قد أخلِيت بالاتفاق، فآخذ النقود والسيارة وأرميك في الطريق. لا تخلعيها حتى آمرك. مفهوم؟
- أمرك يا عطية.
- هل معك هاتف خلوي.
- نعم.
- أعطني إياه.
حمله وأغلقه، ونزع البطارية عنه، ووضعه في السيارة.
في الطريق كانت فيولا تناجي الرب بأن يساعدها ويعيدها سالمة إلى ابنتها. فجأة تجرأت وسألته:
- لماذا قتلت سمير يا عطية؟
فقال لها:
- أنا لم أقتله.
- هل هو حي إذاً؟
- لا طبعاً. هل أنت مجنونة؟ لم أقل لك إنه حي. لقد قلت إنني لم أقتله.
- من قتله إذاً؟
- هذا لا يعنيني.
- هل تعرف لماذا قتلوه؟
- اسألي من قتله.
- وما دورك أنت؟

- أنا كلفت بإخفاء الجثة فقط. أنا الوحيد الذي يعرف مكانها، حتى الذين قتلوه لا يعرفون مكان جثته. توقفي عن الأسئلة، نحن لم نتفق على الثرثرة.

بعد ساعتين وصلا المكان المتفق عليه. أوقف السيارة، وقال لها: الآن انزعي النظارة. خلعتها لترى نفسها أمام جبل كبير. خرج من السيارة وطلب منها اللحاق به. صعدت معه إلى مغارة بابها صغير، ومظلمة بعض الشيء، وشكلها مخيف، كأنها مكان للوحوش الضارية. كانت دقات قلبها تزداد بسرعة. "يا لهذا المكان المخيف! هل دفنوك هنا يا سمير؟" أخرج عطية مصباحاً كهربائياً من جيبه، ثم أشار إليها بالنور المنبعث من المصباح إلى جثته. نظرت إليه تدقق إن كان هو. كان هيكلاً عظمياً وبقايا ملابس. عرفته من بقايا ربطة العنق الحمراء وخاتم زواجها الذي كان ملقى على التراب. تساءلت: "لماذا لم يسرق الجناة خاتمه الذهبي؟" سألت عطية:
- لماذا تركت خاتمه ولم تسرقه؟
- عندما كلفنا بنقله لإخفاء جثته كان داخل كيس أبيض، وطلب منا عدم فتح الكيس والتزمنا بالأوامر.

وضعت يدها تتحسس عظامه. حملت جمجمته. قبلتها. لا زالت تتذكر آخر يوم غادر فيه البيت إلى العمل. سألته: لماذا ربطة العنق الحمراء؟ فقال لها: ليوافق لون أحمر الشفاه الذي تلونين به شفتيك الجميلة.
اقترب منها، وطبع قبلة على شفتيها، ثم غادر البيت ولم يعد.
كانت تبكي بحرارة. تتمنى لو يعود ولو للحظة تودعه فيها الوداع اللائق. "أبانا الذي في السماء خذني إليه باسم المسيح، خذني إليه، ولا تتركني وحدي بين المجرمين.
قال لها عطية:
- لا تضيعي الوقت يا فيولا.
استدارت إليه، فرأته يبكي. قالت له:
- كيف تبكي وأنت الذي جئت به إلى هنا؟
- لا تسأليني عن شيء. كيف ستنقلين عظامه من هنا؟
- يوجد معي كيس في السيارة اذهب واحضره.
- ألا تخشين ألا أعود؟
- لو كنت ستتركني لتركتني في الطريق.
- قلت لك لن أخدع أحداً.

بعد عودتها بعظامه ووصولها الطريق الرئيس أوقف عطية السيارة وقال لها:
- سأنزل الآن من السيارة ومعي شنطة النقود. بعد خمس دقائق تخلعين النظارة، وتواصلين السير. لا تخلعيها قبل ذلك.
تركها واستقل سيارة كانت تنتظره واختفى عن الأنظار.

بعد انتظار عدة دقائق لا تدري فيولا كم كان عددها خلعت نظارتها، واتصلت بأخيها لتخبره أنها عادت بسمير، وطلبت منه انتظارها في البيت.
- فيولا هل أنت بخير؟ لا أصدق! هل سمير معك؟
قالت له باكية:
- نعم.. إنه معي في مؤخرة السيارة. سأكون في البيت لنودعه قبل أن ننتقل به إلى الكنيسة. لا تقلق عليّ. أنا وحدي في الطريق إلى البيت.

في صباح اليوم التالي كانت عظامه في تابوت خشبي مغلق استعداداً للقداس الجنائزي قبل نقله إلى مثواه الأخير مرة أخرى. كان أقاربها وأقارب زوجها وأصدقاؤها ومعارفه محبوه قد حضروا بعدما سمعوا بخبر وصول رفاته.
كلهم كانوا يتساءلون: كيف وصلت إليه؟ كيف عرفت أنه هو؟ كانوا يسألونها:
- لماذا لا تعرضيه على الفحص الجنائي.
كانت ترد عليهم ببساطة معهودة:
- لقد ألهمني الرب أنه سمير؛ ربطة عنقه الحمراء، ورائحة عظامه، وطول جثته، وخاتم زواجنا. لن تخفى علي حتى عظامه.
بعد انتهاء القداس، اقترب منها أحد رجال الأمن في ثياب مدنية وهمس في أذنها:
- سيدة فيولا.. نريدك في القسم لأمر مهم.
نظرت إليه وقالت:
- إن كنتم ستسألوني عن كيفية الحصول على رفاته فليس لدي أية معلومات.
- لا أعرف لماذا يريدونك، لكن ثقي أنها أخبار أكثر أهمية.
هزت رأسها:
- وماذا تكون الأكثر أهمية؟ عودته حياً؟ حسناً.. سأحضر يوم الغد صباحاً.

في اليوم التالي كانت الصحف تنشر خبر الصحفي سمير الذي أعادت زوجته رفاته بعد عشرين سنة، وتنتقد الحكومة لأنها مقصرة في الكشف عن مصير المخطوفين الآخرين.
إحدى الصحف كتبت في تعليقها: "كيف تستطيع المحامية فيولا وحدها إعادة عظام زوجها المخطوف بعد عشرين سنة، وتعجز عن ذلك حكومة بمئات الآلاف من رجال الأمن السريين والعلنيين وآلاف البنادق وسيارات الأمن...؟"

صباح اليوم التالي كانت فيولا لدى قسم الشرطة، حيث سألها المقدم جلال عن الشخص الذي دلها على مكان الجثة، فردت عليه:
- ألم تغلقوا ملف سمير منذ (١٩) سنة، فلماذا تعيدون فتحه؟

سكت، ثم قال لها:
- حسناً سأريك شخصاً تعرفينه لعلك بعد ذلك تغيرين رأيك.
أخذها إلى غرفة أخرى. فتح الباب، ودخلت خلفه، فوجئت أن عطية يجلس هناك مقيداً.
قالت لنفسها: يا إلهي.. كيف ألقوا القبض عليه؟ قد يعتقد أنني وشيت به فيلاحقني رجاله.
قالت للمحقق:
- لماذا أحضرتني إلى هنا؟
- ألم تعرفي عطية؟ سيدة فيولا.. إنكارك سيحمي المتهم.
لقد كشفنا عصابة كبيرة تسببت في قتل الكثير من الأبرياء بطلها رئيس البلدية السابق. كلهم الآن في السجن.
فجأة تحدث عطية قائلاً:
- أنا ليس لي علاقة بشيء، ولا أعرف مَن عطية هذا.
- والنقود التي وجدت معك، من أين جاءت إليك؟ من السيدة فيولا طبعاً.
- كلا، إنها نقودي.
- حسناً.. نقودك من أين؟ ألا تعرف أن أرقام النقود عندنا؟ لقد سجلناها عندما طلبتها فيولا من البنك.
ثم استدار لفيولا:
- سيدة فيولا.. النفود التي سحبتها من البنك لدينا أرقامها، فقد قدم مدير البنك كشفاً بها إلى الشرطة لأنه اشتبه بسحب هذا المبلغ الكبير نقداً من فيولا التي لم تتعود خلال طيلة معاملتها أن تسحب مثل هذا المبلغ نقداً.
صمتت. شعرت أن لا داعي لإنكارها فهي محامية وتعرف القانون. سألته:
- كيف عرفتم عطية؟ هل كنتم تلاحقونني؟ لا يمكن.
- لا.. لم نلاحقك، لكن الذي لاحق سيارتك كان موظفاً لديك، وعندما رآك في سيارتك تقلين عطية حضر بسيارة التاكسي إلينا وقدم اعترافاً بكل شيء.
- من تقصد؟ حسان؟
- نعم.. حسان هو الذي ساعدنا.
- لكنه أعرج.
- كان يستقل عربة أجرة (تاكسي) حتى صعد عطية معك وتعرف إليه، وقد انتظرناه في بيته ما أن عاد حتى قبضنا عليه.
- وماذا عرفتم غير ذلك؟
- رئيس البلدية السابق كان مَن أصدر الأمر بخطف زوجك سمير، فقام حسان وشخص آخر معه باختطافه. وقد أصدر رئيس البلدية السابق أمراً بقتله، ونفذ القرار شخص آخر مساعد له اسمه خليل، وبعد قتله أوكل إلى عبد الغفور المعروف الآن بعطية مهمة دفن الجثة.

أصيبت بدوار. كادت تسقط. جلست على الكرسي. طلب المحقق من الشرطي نقل المتهم إلى زنزانته.
أفاقت فيولا واستعادت وعيها. لم تصدق.
(حسان هو الذي خطف سمير؟! حسان الذي يعمل عندي. الآن عرفت لماذا كان يقول لي: "لا.. لا أستحق هذه النقود"، كأنه كان يشعر بالندم لما فعل. لكن لماذا لاحقني وسلم عطية واعترف بما حصل؟ لماذا يعرض نفسه للخطر الآن دون سبب، فلا أحد يشك به).
سألت المحقق:
- هل لي برؤية المتهم حسان.
طلب المقدم من الشرطي إحضار المتهم حسان.
دخل حسان بعكازيه، وعندما رآها سقط على الأرض باكياً.
- سامحيني يا ست فيولا، والله لم أقتله، ولو كنت أعرف مكان دفنه لقلت لك. لقد كلفوني بخطفه. قالوا لي إنه يحرض على رئيس البلدية المسلم، وإنه مسيحي كافر، وإنهم يريدون إخافته حتى يتوقف عن ملاحقة رئيس البلدية بمقالاته، وعندما اختطفناه أنا وشخص آخر مفيد عبد السلام، انتهت مهمتنا، وقد عرفت لاحقاً أنه قتل ودفن في مكان سري. لم أقتله، ولم أشارك بقتله ولا دفنه، وعندما جاءك الهاتف من عطية، خفت عليك أن يؤذيك، ولم أعرف أين لقاؤك بهم، فلحقت بك في سيارة أجرة صباح أمس، وعندما شاهدت عطية يصعد إلى سيارتك عرفت أنه هو لأني أعرف أنه من رجال رئيس البلدية السابق، ومن شدة خوفي عليك توجهت فوراً إلى الشرطة واعترفت لهم بكل شيء.

كانت فيولا تستمع إلى كلماته، وهي تذرف الدموع على زوجها سمير.
- كل هذا التآمر عليك يا سمير يا مسكين! لماذا؟ ماذا فعل لكم؟
قال حسان:
- أرجوك سامحيني، لقد عاقبني الله قبل أن تعاقبني الحكومة، لقد اعترفت لهم لحمايتك. أنا مذنب، وليس لي سوى أن تسامحيني. أرجوك دافعي عني. ليس عندي نقود لأوكل محامياً. ليس لأولادي من معين. أعرف كم ذرفتِ الدموع من أجل سمير. نستحق الجلد.. نستحق القتل، لكن قلبك كبير. بحق المسيح وتعاليمه السمحة سامحيني.
- الآن تتذكرون تعاليمه السمحة؟
- كنت أداة طيعة أنفذ الأوامر.
قال له المحقق:
- حتى لو سامحتك، ستنال عقابك. قم وعد إلى زنزانتك. ساعده أيها الشرطي.
- لكنك وعدتني أن تساعدني.
- ستخفف عنك المحكمة الحكم لأنك أدليت بشهادتك كلها ضد المجرمين.

بعد شهر استقلت فيولا سيارتها وذهبت مع ابنتها إلى بيت حسان. استقبلتها زوجته، وسألتها من تكون؟

فقالت لها:
- أنا المحامية فيولا التي كان يعمل لدي زوجك حسان.
- أنت زوجة الصحافي سمير؟ الله يرحمه.
ثم بدأت تبكي، وتقول:
- والله العظيم لم يقتله. لعن الله مَن كان السبب.
قالت لها فيولا:
- لا تبك. جففي دموعك. جئت أعطيك ما تركه حسان لك.
ثم ناولتها مغلفاً. سألتها زوجة حسان:
- ما هذا؟ لم يقل لي حسان شيئاً. لقد زرته قبل يومين.
- ربما أراد أن يجعلها مفاجأة لك.
فتحت المغلف، ثم بهتت.
- نقود!! نقود كثيرة نحن ما عندنا شيء نأكله! لا.. هذا ليس من حسان. لا نستحق كل هذا.
- اسمعي ولا تضيعي وقتي. اهتمي بأولادك، ولما تزوري حسان اشتري له شيئاً من الكباب.
- أنا لا أصدق عيني. الله يجمعك مع سمير في جنات النعيم.

في الطريق إلى البيت سألتها ابنتها:
- لماذا تفعلين هذا يا أمي؟ أنت تكافئين قتلة أبي.
- لا يا ابنتي. أنا لا أكافئهم، لكني أعمل بتعاليم المسيح التي كان ينادي بها أبوك سمير.
- لا أستطيع أن أفهم هذه التعاليم! أنا أؤمن بأنهم يجب أن يموتوا كلهم. يجب قتلهم كما قتلوه. يجب تعذيبهم كما عذبوه.

في جلسة المحكمة النهائية، وقفت المحامية فيولا لتعلن أمام هيئة المحكمة:
"سيدي القاضي.. لقد زارني زوجي سمير يوم أمس في المنام وعاتبني قائلا: "لماذا تحاكمون أعدائي؟ أطعموهم واسقوهم واعفوا عنهم. أنا سامحتهم. إن كانوا يريدون خدي الثاني ليصفعوه، فها أنا أقدمه لهم."
وشكرا لإصغائكم.

وقف المدعي العام يعلق على الموضوع قائلاً:
- سيدي القاضي.. هؤلاء القتلة يجب أن ينالوا جزاءهم. لقد سامحتهم زوجة القتيل السيدة فيولا، وهي حرة في ذلك، فقد يغفر الله لهم عندما يحاسبهم في الآخرة. لكن في الدنيا يجب إنزال أقصى العقوبات بهم لأنهم أثاروا الفتنة بين أبناء الشعب الواحد، وأساءوا لديننا الحنيف. "ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب".

سيدي القاضي.. مع مراعاة ما قدّمه لنا السيد حسان من معلومات لولاها لما توصلت النيابة إلى قتلته، فإنني أطالب إنزال العقوبة القصوى بهم والإعدام ضد رئيس البلدية السابق، فحياة المواطنين مقدسة، ومن قتل نفسا بريئة بغير حق كأنما قتل الناس جميعاً".

بائع الأرض

في نهاية العام (١٩٦٨)، وفي يوم من أيام شهر كانون أول حيث البرد القارس في القدس، كان صالح جالساً في محلة الصغير الذي لا تزيد مساحته عن عشرة أمتار مربعة في باب السلسلة في القدس القديمة، ما بين مدخل حوش الغزلان وطريق الهكاري، يحتسي الشاي الساخن الذي طلبه من مقهى الرشق التي تبعد عنه عدة أمتار، ويقرأ جريدة الصباح، وينتظر أول زبون يهل عليه ليشترى أحد براويزه التي يعرضها للبيع.

فجأة دخل عليه زبون يبدو في الأربعين من عمره، يلبس بذلة أنيقة، ولحيته خفيفة. كان شكله يوحي أنه يهودي، فقد تعوّد اليهود على النزول من باب السلسلة متجهين إلى معبدهم الذي يبعد عن محلة حوالي مائة متر. كان اليهودي يتكلم العربية بطلاقة، فسأله:

- أكيد أنت صاحب المحل؟

وقف صالح ووضع الشاي على الطاولة ثم قال:

- نعم أنا. ماذا تريد؟

- أنا (عزرا) جئت لأعرض عليك مشروعاً يغنيك.

- يغنيني؟!

قالها صالح بتهكم وهو يقول في قرارة نفسه: "من أين يأتي الخير منكم؟! سلبتم أرضنا، ووطننا، وقتلتم أبناءنا..."

فقال له عزرا بعد أن صافحه:

- نعم يغنيك. اسمع حبيبي جيداً، وفكر في العرض بهدوء.

- ماذا عندك؟

- أنا تاجر ببحث عن محل في هذا الشارع لأنه قريب من معبدنا، وعندي استعداد أن أدفع ثمنه مضاعفاً.

- ماذا تقول؟ أتريد أن...

فقاطعه عزرا:

- صالح لا تغضب. هو عرض. محلك هذا لو بعته لا يساوي أكثر من عشرة آلاف دولار، وأنا أعرض عليك مائة ألف يعني عشرة أضعاف.

- أبيع محلي لليهود؟ ألا يكفي أنكم أجبرتم الناس على الرحيل من حوش الغزلان وحوش الشاي وحارة الشرف؟!

- لقد دفعنا لهم تعويضاً.

- تعويضاً؟! لقد طردتموهم بالقوة، وقلتم لهم مَن أراد تعويضاً عن بيته فليأت، ومن لا يريد فليضرب رأسه بالحائط. لم تتركوا لهم خياراً. لقد هدمتم البيوت في حارة المغاربة على أثاث أصحابها وممتلكاتهم.

- سيد صالح.. هذه بيوت بنيت في ساحة الهيكل. اسمع.. لماذا تضيع وقتنا في جدال لا يفيد. العرض الذي أعرضه عليك هو تسليم المحل بعد (٢٥) سنة!
- لم أفهم.. وضّح ما قلته؟
- تبيعني المحل، وتقبض ثمنه كاملاً، ونسجل في الأوراق أنك ستسلمني المحل بعد خمسة وعشرين سنة من تاريخ التوقيع على الاتفاق.
ضحك صالح وقال:
- أنت متفائل جداً، ومَن يضمن لك أنني سأسلمك المحل بعد هذه السنوات؟
- حسناً.. إن كنت تعتقد أننا سنرحل فهذا أفضل لك. أنا أعرض عليك مائة ألف تدفع لك كاملة فور التوقيع على عقد البيع، وتسلمني المحل في التاريخ المحدد. لن ترى وجهي قبل موعد التسليم، وإن متّ سيأتيك أحد الورثة ومعه صكوك البيع والشراء.
احتار صالح في العرض، وقبل أن يرد عليه، قال له عزرا:
- على كل حال سأترك لك رقم هاتفي. فكّر، فإن أحببت تتصل بي...
صمت لحظة ثم قال:
- لا تضيع الفرصة، فإن عثرت على محل غيره فلن أشتري محلك.

عاد صالح مساء إلى البيت، وحدّث زوجته بما حصل معه.
فقالت له:
- لماذا يدفع لك هذا المبلغ الخيالي؟
- يريدون طردنا بكل طريقة. في العام (١٩٤٨) طردونا من بيتنا في المالحة، غربي القدس بالقوة، وحولونا إلى لاجئين، واليوم يريدون طردنا بقوة المال.
فقالت له زوجته:
- ولكنه عرض عليك التسليم بعد (٢٥) سنة.
- هذا ما قاله.
- إذاً لماذا لا نأخذ النقود منه بدل ما سلبوه منا في العام (١٩٤٨)، وبعد (٢٥) سنة لن نسلمه المحل.
- كيف؟ سنوقع على أوراق. أنسيت أنهم يحكمون البلد الآن؟
- يا صالح.. وهل تتوقع أن نظل تحت حكمهم (٢٥) سنة؟!
- لا أدري.. ربما.
- لا..لا، خلِّ إيمانك بالله قوياً. ستطردهم الجيوش العربية.
- الجيوش؟! ألم يهزمونا قبل سنة؟
- إنها نكسة، ولن تتكرر.
- يا فتحية.. هذه مقامرة.

- يا صالح.. لقد خدعونا دائماً، فلماذا لا نخدعهم الآن؟ أنسيت قبل عشرين سنة، عندما هجموا علينا وأجبرونا على ترك بيتنا بما فيه ونهرب إلى البلدة القديمة؟ ماذا أخذنا سوى بطاقة اللاجئين، وكيس الطحين الشهري وحليب البودرة؟! آخ يا صالح!
- يا فتحية.. لا تذكريني دخيلك. لقد حكيت لك ما حصل لتشجعيني على رفض العرض، فإذا بك تقنعيني بالموافقة.
- أنا لا أنصحك بالبيع، فكل ملايينهم لا تساوي حجراً في القدس، لكني أحببت أن تستغل شرط أن التسليم بعد (٢٥) سنة. بهذا المبلغ نشتري قطعة أرض في ضاحية البريد ونبني عليها بيتاً، فالأولاد يكبرون، وغداً يحتاج كل منهم إلى غرفة خاصة.
- وماذا لو مرت السنوات وجاء يطلب تسليم المحل؟!
- خلال هذه المدة ستكون "إسرائيل" قد انهزمت، وعادت القدس إلى العرب. لن يطول احتلالهم، ولا تغتر بقوتهم. لو هجم العرب عليهم بالعصي والسكاكين سيهمونهم.
ضحك صالح وقال لها:
- والله حيرتني. أتمنى أن يكون كلامك صحيحاً، وإلا سأصبح في نظر الناس بائعاً ممتلكاته لليهود، وسيقولون عني جاسوساً، وسوف أتمنى أن تنشق الأرض وتبلعني.
- توكل على الله، واسمع كلامي ولو مرة واحدة، ولن تندم.
تنهد صالح وقال لها:
- سأسمعه هذه المرة، وأرجو أن يتحقق نصر العرب كما تتوقعين.

عشرون عاماً مرت على عقد البيع، ولم يرحل اليهود، وزادت مستوطناتهم حول القدس، وصادروا الكثير من بيوتها ومحلاتها. شعر صالح أن موعد تسليم المحل آت لا محالة. بقي خمس سنوات على الموعد.

انطلقت الانتفاضة الأولى، واستمرت بشكل متصاعد فتأمل خيراً، لعلها ساعة تحرير الوطن، وتحرره من الهم الذي ينتظره. كان يعد الشهور ثم السنوات، وعندما هل العام (١٩٩٣) كان يحمل كل هم الدنيا على كتفيه. لا أحد يعرف سر الصفقة سوى زوجته، قال لها:
- ها قد اقترب موعد تسليم المحل. لم يبق سوى شهور، ماذا سنفعل؟ سأصبح خائناً، جاسوساً. سيبصق علي الناس. سيفاجأ الأولاد بما فعلت. سأقتل نفسي.
- بعيد الشر يا زوجي. اصبر لعل الله يرسل حلاً من عنده.
- هل تهذين؟ من أين سيرسل حلاً؟ كانت هذه مشورتك. الحق علي لأنني استمعت إلى اقتراحك. أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

في شهر أيلول (١٩٩٣) كانت الصحافة ومحطات التلفزة تنقل خبر اتفاق أوسلو ولقاء عرفات ورابين في البيت الأبيض الأمريكي. قالت فتحية لزوجها:

- أرأيت؟ لقد جاء الحل.
- أي حل؟
- ألم تسمع بالاتفاق؟ أكيد غداً سينسحب اليهود من القدس.
- يا فتحية.. إنهم يقولون غزة وأريحا.
- اسمع.. لا تعقدها. لماذا لا تلتقي مع عزرا وتقول له إن الاتفاق يعني أنهم سينسحبون من القدس، وتعرض عليه ما دفعه لك مقابل إلغاء البيع. قل له إنك تعرض عليه ذلك من حسن نية حتى لا يخسر نقوده.
- فكرة معقولة، ولكن هذا عزرا اليهودي. إنهم أبالسة.
- جرب ولن تخسر شيئاً.

اتصل صالح بعزرا وطلب الاجتماع به.

جاءه عزرا بعد انقطاع أكثر من عشرين سنه لم يره فيها حتى كاد ينساه. كانت لحيته قد طالت، وابيض شعره، وأصبح يلبس نظارات، ويضع على رأسه طاقية صغيرة (كوفع). قال له صالح:
- سيد عزرا لا شك أنك سمعت باتفاق أوسلو بين عرفات ورابين.
- طبعاً، نريد السلام معكم.
- وتعلم أنكم ستنسحبون من القدس؟
ضحك عزرا وقال له:
- لا.. لا تصدق ذلك. الاتفاق لم يتطرق إلى القدس.
- يوماً ما ستنسحبون، لهذا أنا هنا أعرض عليك إلغاء صفقة بيع المحل وإعادة ما دفعته لي حتى لا تخسر نقودك.
ابتسم عزرا يخبث وقال له:
- تعرض عليّ إعادة ما دفعته لك قبل (٢٥) سنة؟! هل أنت مجنون. هذا المبلغ لو شغلته في البنك لأصبح أكثر من مليون دولار.
- سأدفع لك أرباحاً عليه.
- ولا حتى مليون دولار.
- لكنك قد تخسر المحل.
- لا يا حبيبي، سأكون هنا في موعد التسليم صدقني، سأستلم المحل في الموعد المحدد. إذا كنت لا تريد أن يراك أحد، فلا تحضر ذلك اليوم. سألتقي بك في مكان ما وتقدم لي المفاتيح. حتى لو لم تسلمني المفاتيح، سأكسر الأقفال وأركّب باباً جديداً وقفلاً جديداً. يجب ترميم المحل، وتركيب (مازوزا) (الوصايا العشر) على باب المحل مع نقش لنجمة داوود أعلى الباب.

أحس صالح بشوكة في حلقة. لم تنجح محاولته، وغادر عزرا المحل رافضاً كل العروض.

قبل موعد التسليم بشهر مرض صالح، ولم يفتح المحل، وقرر ألا يفتحه نهائياً. اشتد مرضه، وعندما زاره أبناؤه للاطمئنان عليه قال لهم:
- أشعر أن نهايتي قد اقتربت، سامحوني إن أخطأت بحقكم.

أحس صالح بالسعادة بوجود أبنائه حوله. كان يود أن يخبرهم بسره، لكن فتحية منعته من ذلك.
- لماذا يا فتحية؟ غداً سيعلمون من الناس.
- سأشرح لهم الموقف في حينه. لقد اعتقدنا أن اليهود سيرحلون، لكنهم بقوا على صدورنا. سيطروا على ثلث البلدة القديمة بيتاً بيتاً.
- أنا المجرم، أنا المذنب. استمعت لاقتراحاتك الهدامة. أنا المسؤول. ليتني لم أفعل. قبل (٤٥) سنة أخذوا بيتنا بالقوه. طردونا بالسلاح. تركنا كل ما نملك وهربنا بملابسنا، وغداً سيستلمون محلنا، اشتروه منا بالمال. خدعونا لطمعنا. لقد طمعنا، لقد حسبناها غلط. أين سأذهب من ربي؟! من الناس، من أولادي. لا أريد أن أراهم بعد اليوم. اللهم أرحني، أرحني من تلك الساعة.

بعد يومين رن جرس الهاتف:
- ألو.. أبو علي.
- أهلا جاري (أبو حلمي).
- الحقْ، المستوطنون اليهود كسروا محلك مع الجيش وسيطروا عليه.
- ماذا تقول؟
- كما سمعت. يجب حضورك بسرعة.
- أنا قادم.

أغلق صالح الخط، وصار يبكي وينوح كالأطفال.
جاءت فتحية تسأله ما الأمر؟
- سيطروا على المحل. كسروا الباب واستلموه. جاري أبو حلمي يطلب مني أن أحضر لأحمي محلي منهم. لا يعرف أنني بعته لعزرا قبل خمس وعشرين سنة.

بدأت الرائحة تفوح يا فتحية. آه.. أشعر بضيق.. أشعر بالبرد. غطيني.. غطيني.
- هل أنقلك إلى المستشفى؟
- لا.. لا أريد أن يراني أحد. أريد أن... أموت... هنا... ف... ي... البيت.

شهق صالح شهقة.. اثنتين.. ثلاث شهقات، ثم انتقل إلى العالم الآخر.

صرخت فتحية، وبدأت تلطم وتشق ملابسها. انكبت عليه تقبل رأسه، وتناديه:
- صالح.. صالح.. أنا السبب.. أنا السبب. هذه مشورتي. لقد ظلمتك. لقد حمّلتك عاراً إلى الأبد.
لماذا لم يحرروا فلسطين؟ لماذا لم يستعيدوا القدس؟!

يا خسارتك يا صالح.. يا عارك يا فتحية.

التلفون والجريمة

في رحلته الأخيرة إلى ألمانيا لحضور معرض دولي للتكنولوجيا، كان سميح يحاول توقيع عقد لشراء كمية من الهواتف النقالة (المحمول) لصالح الشركة التي يعمل بها في مصر. لفت انتباهه في إحدى أجنحة المعرض جناحاً خاصاً للأدوات الأمنية التي تباع للحكومات والشركات الكبيرة التي تسمح لها دولها باستخدامها. إحدى الأدوات المعروضة كان جهازاً خلوياً يعمل كهاتف، ويستخدم في الوقت نفسه كجهاز إرسال، ولديه جهاز آخر تابع له يمكنك من خلاله (الجهاز المستقبل) التصنت على المكالمة التي يجريها المتكلم في الجهاز الأول، وسماع ما يدور معه أو حوله من أصوات وحديث دون الحاجة إلى أي جهد من جانبه. كل ما عليك عمله هو الضغط على زر في جهاز الاستقبال لتسمع كل شيء، والجهاز يعمل حتى مسافة بعيدة.

فكر سميح بهذا الجهاز العجيب وقال في نفسه:

- فكرة أن أشتري جهازاً لأجربه، فإن نجح يمكن بيعه. سيتهافت الناس على شرائه.
اشترى سميح الجهاز، وقرأ طريقة استخدامه، ولم يبلغ أحداً بسره حتى يكتشفه بنفسه.

بعد عودته إلى بلده قال لزوجته: لقد أحضرت لك هاتفاً محمولاً جديداً. انظري إنه جميل وعجيب، يمكنك الاتصال به مع الشبكة العنكبوتية أينما كنت. إنه أكثر تطوراً من الجهاز الجديد المسمى "آيفون".

شكرت نادية زوجها على هديته اللطيفة، وطبعت قبلة حارة على شفتيه. نقلت الشريحة إلى هاتفها الجديد، وبدأت تتباهى به أمام زميلاتها في العمل، حيث تعمل محاسبة في إحدى الشركات الكبيرة.

صار سميح بين الفينة والأخرى يتصنت عليها، فيسمع مَن حولها وهم يتحدثون إليها. لم يكن يرغب بالتجسس على زوجته، لكنه فجأة أصبح كأنه يراقب حركاتها. كان يريد الاطمئنان على أن الجهاز يعمل كما سمع عنه، لكنه أصبح مشدوداً لأحاديث النساء على الهاتف، فصديقاتها يتحدثن معها عن أسرارهن وعلاقاتهن مع أزواجهن، وأحياناً كانت إحداهن تتحدث على الجنس، وقدرة الرجال، ...

أحاديث جذبته. أصبح أحياناً يقضي الساعات يستمع للثرثرات النسائية حتى أدمن عليها، ولم يستيقظ إلا على صوت مدير الشركة التي تعمل فيها زوجته نادية يقول لها:
- بعد الدوام مناسب يا نانا؟
- مناسب جداً.
فقال لها:
- لا تنسي الموعد.

فكر سميح في الموعد، وتساءل أي موعد بعد ساعات الدوام.
لم يهتم كثيراً، فربما هناك لقاء عمل، لكنه قلق جداً عندما اتصلت به زوجته وقالت له:
- حبيبي سأذهب الليلة إلى بيت أختي على العشاء وقد دعتك معي. ما رأيك أن تذهب إلى البيت مساء وتحضر معك الأولاد لنسهر عند أختي، فأمي أيضاً ستأتي إلى هناك وأخي أحمد.
- ما هذه السهرات المفاجئة يا نادية؟ لا أستطيع الحضور، سأكون مشغولاً في البيت بتحضير بعض الأوراق.
- حسناً.. سأراك الليلة، إلى اللقاء حبيبي.

في المساء عند الساعة السابعة تقريباً، كان سميح في البيت يراجع عبر حاسوبه بعض الطلبات الخاصة بالشركة، فقرر أن يستمع لهاتف زوجته، لعلها الآن تحاور أختها وأمها، فقد كان والدها قد توفي منذ سنتين، بينما كان ابنه سامح، 17 سنة، وابنته سميحة 16 سنة، في الغرفة الأخرى يشاهدون مسلسلاً

تلفازياً. فوجئ سميح بصوت ينبعث من الجهاز. هز رأسه، ووضع إصبعه في أذنه، لم يصدق. إنها تأوهات امرأة مع زوجها في قمة الانفعال.
عاد يتذكر ما حصل اليوم: "ما رأيك بعد الدوام يا نانا؟". "حبيبي ما رأيك أن نسهر عند بيت أختي".
فجأة سمع صوت رجل يقول لها:
- ما أروعك! ما ألذ الجنس معك! ليتك تأتي كل يوم.
اهتز بدنه وبدأ يهذي: ما الذي أسمعه؟
جن جنونه! هل هذه نادية؟ معقول؟ لكني لم أميز صوتها تماماً، كل ما أسمعه تأوهاتها وأنينها، لكنه صوت أنينها، تختلف بعض الشيء، مَن يدري ربما شعورها هناك يختلف.
فجأة سأل نفسه:
- هل يمكن لهذا الجهاز أن ينقل لي صوت جهاز آخر لشخص آخر اشترى جهازاً مشابهاً؟ لا أصدق أن نادية تعملها! تزوجتها منذ عشرين سنة، لكن من يدري لربما كنت المغفل.
أراد أن يغلق الجهاز لئلا يسمع شيئاً، لكنه ظل مشدوداً لتأوهات قادمة عبره. فجأة سمع التأوهات الأخيرة ولم يعد يسمع سوى صوت القبلات، كأنهما وصلا إلى الرعشة الأخيرة.

ضرب الطاولة بيده، وأغلق الجهاز، لا يريد أن يسمع. اتصل بها على هاتفها، فلم ترد. الجهاز مغلق. طبعاً مغلق لأنها في قمة اللذة. تفوه.
لم يعد سميح يركز بشيء. بعد لحظات اتصل إلى بيت أختها، فردت عليه أختها:
- أهلاً سميح، أين أنت يا زوج أختي؟ تمنينا أن تشاركنا العشاء مع الأولاد.
لم يرد قال لها:
- هل نادية عندكم؟
- طبعاً.
- هل ممكن التحدث إليها؟
- لو سمحت اتصل بعد عشر دقائق، فهي في الحمام.
أغلق الخط. لم يصدق ما قالته أختها.
- في الحمام؟ طبعاً في حمام الهنا. هل يمكن أن تكون أختها تغطي على عيوبها؟ لكن من أين ستحضر خلال عشر دقائق؟

عاد يفكر بمدير الشركة، وتذكر أنه يسكن في منطقة قريبة من بيت أختها نادية. يبدو أنها هناك، وتحتاج لعشر دقائق لوصولها إلى البيت! لكن الرجل متزوج ولديه أولاد، إذاً ربما في فندق، فندق من؟ إنه فندق "بيراميزا"، هذا فندق قريب جداً من بيت أختها نادية، إذاً هو.

فتح الجهاز ليستمع، فلم يسمع شيئاً. بعد ثوان صدر صوت منبّه سيارة. يبدو أنها في طريق العودة.

الخائنة، سأقتلها.
بعد عشر دقائق اتصل ببيت أختها، فردت نادية:
- ألو..
- أنت أين يا نادية؟ قال بانفعال.
- أنا عند أختي يا حبيبي منذ الخامسة مساء.
- من الخامسة؟
- نعم، ألا تصدقني؟ لم أنت غاضب؟
- متى ستعودين؟
- إن أحببت أعود الآن، لعيونك أترك كل شيء.
- لعيوني؟
ضحك ضحكة مصطنعة، وقال لها:
- أنا بانتظارك. أشعر بالتعب بعض الشيء.
- حاضر يا سمسم، سأكون عندك بعد لحظات.
أغلقت الخط.
هز رأسه ساخراً: سمسم!! تخونني وتقول سمسم؟!
لكن لماذا أختها لم تقل لي إنها خارج البيت. من غير المعقول أن تكون أختها على علم بما يجري، لربما قالت لأختها أن تبلغني أنها في الحمام.
أو...
لا أدري، رأسي يكاد ينفجر.

لم يشأ أن يحدثها بالأمر أمام الأولاد، فأولاده في سن لا يسمح لهم بمثل هذه الصدمة، ولأنه حريص عليهم، ويبذل جهداً لتعليمهم، فقد انتظر بعد وصولها بفترة، تم طلب منها أن تلحقه إلى غرفة المكتب، وهناك بدأ يمطرها بالأسئلة:
- متى ذهبت إلى بيت أختك؟ وأين كنت عندما اتصلت بك؟ ولماذا لم تردي على الهاتف عندما اتصلت بك؟
لم تتحمل نادية أسئلته المتلاحقة، فقالت له غاضبة:
- ما هذه الأسئلة يا سميح، أفصح عما تريده، فشكلك غاضب من شيء وتبحث له عن مبرر.
- مبرر؟ طبعاً. وهل ما فعلته اليوم يحتاج إلى مبرر؟
- فعلت؟ ماذا فعلت؟
ضحك بصوت خافت كي لا يسمع الأولاد ثم أجاب:
- ترتكبين الجرائم وتتظاهرين بالبراءة؟!
- لا إله إلا الله.
- محمد رسول الله. يا حبيبي، أية جرائم؟ أرجوك وضّح كلامك.

- أين كنت اليوم الساعة السابعة؟
- قلت لك عند أختي!
- من كان عندكم؟
- أنا وأخي وزوجته وزوج أختي، وأمي ذهبت في مشوار صغير وعادت.
- وهل ذهبت أنت في مشوار صغير وعدت؟
- لا.. لم أترك البيت. هل تحقق معي يا سميح بعد كل هذه السنين.
اقتربت منه. نظرت إليه، وقالت:
- سميح.. ما الذي يدور في رأسك؟
- حسناً.. دعيني أسمعك هذا التسجيل؟
أخرج من جيبه جهاز الاستقبال، وكان قد سجل تلك الحادثة، فجهاز الاستقبال لديه الإمكانية لتسجيل المكالمات لأكثر من ساعة كاملة.
- اسمعي يا نانا.
بدأت تخرج صوت تأوهات امرأة يضاجعها رجل في لحظة انسجام عاطفي. فوجئت نادية، وكأنها عرفت ما يقصد.
- هل أفهم أنك تتهمني أن هذه أنا مع رجل آخر؟ آخر ما توقعته منك يا سميح!
- أليس هذا صوتك؟
- اخرس. احفظ لسانك! إنك تطعنني في الصميم. إن كرامتي التي جرحت لا تلتئم بعد ذلك بكلمات الصفح والغفران. ما هذه التفاهات التي تتهمي بها؟ تسجيل في جيبك تدّعي أنه لي؟ حسناً.. من الذي تتهمني به حضرتك؟
- مدير شركتك؟
- السيد فريد؟ يا إلهي. ما هذا الذي تقوله؟ يبدو أنك جننت.
- اسمعي.. أنا لم أجن، سأثبت لك خيانتك دون الحاجة لنرفع أصواتنا ونقلق الأولاد. لا أريد أن أصدمهم بحقيقة أمهم.
- احفظ كلامك.
نظر إليها بغضب. كاد يهوي عليها بقبضة يده، لكنه تراجع عن ذلك، فلو فعل ذلك لحصل ما لا يريده أن يحصل.
قال لها:
- الهاتف الذي معك، في داخله جهاز إرسال مرتبط بالجهاز الذي أحمله، مثل الـ (ووكي توكي)، لكنه باتجاه واحد، وأنا أستطيع بالنسخة الثانية الموجودة معي أن أستمع لما يدور من حديث بجانب الهاتف الذي معك، وسأجعلك تجربين ذلك الآن لتتأكدي، كما يمكنني سماع أية مكالمة هاتفية تجرينها، وهذا التسجيل الذي أسمعتك إياه سجلته اليوم الساعة السابعة مساء، فإن كنت في بيت أختك كما تدعين، فكيف وصلني هذا الصوت؟ هل كانت أختك مع زوجها في غرفة النوم وأنت في الخارج مع أمك تتفرجين على التلفاز؟

- سميح.. أي جهاز وأي تسجيل؟ هل كنت تتجسس علي؟
- لا.. كنت أجرب الجهاز لأستورد مثله، لكني فجأة بدأت أكتشف أشياء لم أعرف بها.
فجأة قال لها:
- انتظري لحظة.
فتح حقيبة يدها. أخرج الهاتف، وخرج حيث الأولاد. وضع الهاتف بجانبهم وقال لهما: لا تستخدماه. وعاد لها.
ضغط على إحدى الأزرار المخصصة للاستماع للجهاز الأول، فسمعا ما يدور بين ابنهما وابنتهما في الغرفة الأخرى، وكان صوت التلفاز واضحاً خلال سماعة الجهاز.
قال لها وهو يحدق بها:
- أستطيع تسجيل ذلك الصوت إن أحببت، لكني لا أريد حذف التسجيل الأول. هكذا يا ست نانا سجلت الصوت الذي سمعته، فهل اعترفت بالجريمة؟

احمر وجهها. أصيبت بدوار شديد. لم تعرف ماذا تقول. بعد لحظة صمت قالت له:
- حبيبي.. صدقني إن كل ما سمعته لا علاقة لي به، وإنني كنت عند أختي، ويمكنك أن تسأل زوجها إن أحببت. حبيبي.. لا تتخذ قرارات متسرعة. قد تكون هذه الأجهزة تخطئ فتنقل مكالمات خاطئة. لا تحكم على علاقة بنيناها عبر سنين طويلة بالموت. ليس هكذا تكون نهاية حب جميل.
- حب؟ حسناً.. أعطني جواباً لما سمعت؟
صمتت.
- لا أعرف. صدقني لا علاقة لي بما سمعت.
نظر إليها وقال:
- اسمعي.. سأترك البيت، ولن أنام هنا الليلة، سأتركك لتفكري. مصلحة أولادنا أهم شيء عندي.
إن كان لديك بقية من كرامة سأحضر غداً، لأجدك راحلة من حياتي إلى الأبد. سنبلغ الأولاد أننا اختلفنا، ليس حرصاً على إخفاء الحقيقة، ولكن لأنني لا أريد لأولادي أن يطأطئوا رؤوسهم إلى الأسفل.
- يكفي طعناً بأشرف أم وأنبل زوجة. أنت تقتلني قبل أن تحاكمني. لن أغفر لك إساءتك. إن كنت قد اتخذت قرارك، فلتتحمل مسؤوليته وحدك.

خرج سميح غاضباً، لا يعرف إلى أين.
كان خلال الطريق يفكر بكلامها: اتهامك باطل. إنك تصدر الأحكام قبل أن تتأكد!
لكن الجهاز لا يخطئ، جربته، والصوت يشبه صوتها، ربما شعورها بالانسجام معه غير نبرات صوتها. اللعينة، هل اتفقت مع أختها وزوج أختها أنها كانت عندهم؟

توجه إلى أحد الفنادق لينام ليلته، لكن أنّى له أن ينام؛ القلق سيطر عليه. قرر أن يخرج ليسهر في إحدى الكازينوهات. ترك سيارته أمام الفندق واستقل تاكسي إلى إحدى الكازينوهات. هناك جلس على طاولته وحيداً، وطلب كأساً من الفودكا، يريد أن يسكر لعله ينسى.
هل السكر نسيان، أم مجرد تخدير للعقل الباطني للحظات يفقد فيها الإنسان توازنه؟!
كان يهلوس كالمجانين لا يعرف ماذا يقول ولا ماذا يريد، بينما كانت زوجته في البيت تبكي حظها المتعوس. بعد أن غادر البيت بلحظة اتصلت بأمها وقالت لها:
- هل أنت في البيت؟
- نعم.
- انتظريني سأحضر إلى زيارتك.
- في هذا الوقت المتأخر من الليل؟ اللهم اجعله خيراً.
كان منظرها لا يوحي بالخير؛ وجهها الأحمر، ودموعها التي لم تجف على خدودها، وشعرها المنفوش.
سألتها بعد أن جلست:
- هل تشاجرت مع سميح؟
- ليس المهم سميح، المهم أريد أن أعرف اسم المحل الذي ذهبت إليه اليوم مساء لتبديل الفستان منه؟
تغير شكل أمها، وتلعثمت بالحديث، ثم قالت:
الفستان؟ المحل؟ طبعاً. لكن لماذا؟ هل أعجبك أنت؟ لم ترينه بعد!
- أمي بدون مقدمات ولا لفات، أين كنت مساء اليوم، الساعة السابعة مساء؟
- لقد قلت لك كنت أستبدل الفستان لأن قياسه غير مناسب.
هزت نادية رأسها وقالت لها:
- اسمعي.. التلفون الذي كان معي، جهاز حديث، وأحضره معه سميح في آخر رحلة عمل إلى ألمانيا، وهو يحتوي على جهاز إرسال، أي أن سميح يستطيع أن يستمع من جهاز آخر معه ما نتحدث به الآن لو كنت أحمله. لكنني تركته في البيت. وأنت، عندما خرجت الساعة السادسة والنصف، قلت لي إن بطارية هاتفك على وشك أن تصبح فارغة وتحتاج إلى شحن، فاستبدلت جهازك بجهازي، ووضعت شريحتك في الهاتف الخاص بي، وذهبت إلى مشوارك. في تلك الفترة كان سميح يستمع، فسمع ما لا يجب أن يسمعه، وقد أسمعني إياه فلم أصدق. أمي دعك من الإنكار، فالتسجيل موجود لديه.
تغير وجه الأم، وأجهشت بالبكاء.
- لقد توفي والدك منذ سنوات، وأنا وحيدة، أنام وحيدة لا أحد معي. لا أحد بجانبي. أنا إنسانة...
- أمي! ولكن تعلمت منك إنه زنى...
- نعم إنه زنى.
- فلماذا تمارسينه؟
- الشيطان.
- الشيطان؟ أي شيطان؟ إنه أنت، أنت التي ارتكبت الجريمة، وليس الشيطان.

صمتت الأم.
- وهل ستعترفين له بذلك؟
- لا أعرف، أنا بين نارين، إما أنا أو أنت. الأمر سيان عندي. لكن المأساة أن من أحب يتهمني بخيانته وأنا التي ضحيت من أجله، وأحببته حباً أعظم من حب ليلي لقيس. أنت السبب يا أمي، أنت السبب! إنك تقتلين ابنتك بيديك.
تركتها وعادت إلى بيتها لا تعرف ماذا ستفعل.
الصدمة أكبر مما توقعت، وأوسع مما يمكن تضميده!

في الصباح، عندما أشرقت الشمس، غادر سميح الكازينو متوجهاً إلى الفندق، وهناك اتصل بالشركة يعلمهم أنه سوف يتغيب عن العمل لأمر مهم. وضع رأسه على المخدة، وذهب في سبات عميق.
بعد الظهر اتصل به ابنه سامح يخبره أن أمه حملت حقيبتها وقالت لهما إنها ذاهبة إلى بيت أمها لعدة أيام.
- أبي.. لماذا تشاجرت مع أمي؟
- لا.. لم نتشاجر...
- أبي.. أنا لست طفلاً. هناك مشكلة ومن حقي أن أعرف.
- حسناً.. عندما أحضر بعد قليل سنتحدث معاً.
خرج سميع من الفندق باتجاه البيت، وفي الطريق رن جرس الهاتف، ضغط على الزر، كان المتصل زوج أختها.
- سميح أين أنت يا باشا؟
- أنا في الطريق إلى البيت.
- حسناً.. أنا قادم لزيارتك هناك!
- أهلاً وسهلا. خير يا عاصم؟
- عندما أصل سنتحدث.

لم يكن مفاجئاً أن يعرف عاصم بخروج نادية من البيت، فقد أخبرت سميحة ابنة خالتها التي أخبرت زوجها، وقد طلبت منها خالتها ألا تنقل الخبر لعماتها أو أعمامها. أسرار الآباء يجب أن يحافظ عليها الأبناء مفهوم؟!
- أمرك يا خالتي.

حاول عاصم أن يعرف من سميح سبب خلافه مع نادية، لكنه لم يستطع الوصول إلى الحقيقة، كل ما سمعه أن الخلاف بسيط، وأنها هي التي تركت البيت لتريح رأسها بعض الوقت. أما نادية فقد استسلمت لقدرها، وقالت لأختها إنها لا تستطيع العيش مع سامح، لكن أختها لم تتركها حائرة، فقد ظلت وراءها تسألها حتى عرفت الحقيقة فصعقت ولم تصدق!

- أمي.. أمي ابنة الستين سنة! لا لن أصدق ذلك، أي فضيحة جلبتها لنا، وأي عار. ماذا لو عرف أخونا؟ سيقتلها. لا تخبريه. يكفي إلى هنا. لكن لماذا عليك أن تتركي سامح من أجل جريمة أنت لم ترتكبيها؟
- وماذا أفعل؟ هل أخبره حقيقة أمي؟ هل أغطي على فضيحة لأكشف غيرها؟

فشلت كل الجهود بإصلاح ذات البين بين نادية وزوجها.

في أحد الأيام حمل سميح تلفون زوجته الذي سبب كل المصائب، فقد تركته زوجته عندما غادرت البيت وأخذت الشريحة فقط، وضع به شريحته، وتوجه إلى العمل في الشركة، خلال العمل اقترب منه صديقه أحمد وقال له إن بطارية هاتفه قد توقفت، ولا يريد شحنها في الشركة حيث هذا مخالف للقوانين، وهو بانتظار مكالمة مهمة، لذلك طلب منه أن يقرضه هاتفه لبعض الوقت ليضع به شريحته. أخرج سميح الهاتف من جيبه، وأخرج شريحته منه، وأعطاه لصديقه.

في المساء كان ابنه سامح عابس الوجه على غير عادته. لعله اشتاق لأمه. سأله أبوه مداعباً:
- ما لي أراك عابساً يا سامح؟
نظر سامح في وجه أبيه، ولأول مرة خاطبه كالرجال، قال له:
- أبي.. هل أستطيع التحدث إليك منفرداً؟
- طبعاً.
انفرد سميح بسامح في مكتبه وسأله:
- لماذا تريد الاجتماع بي؟ هل وحشتك أمك؟
- أكيد، ولكن أريد أن أعترف لك بأمر!
- أمر؟! ما هو؟ قل ولا تخف.
- كنت أتفقد هذا الجهاز، وضغطت على أحد الأزرار فسمعت صوت رجل يخاطب امرأة واتفق معها على موعد اليوم مساء، لم يكن صوتك، لكن كان الصوت كأنه محادثة تلفونية، بعد ذلك سمعتك تتحدث مع الرجل نفسه كأنك تعرفه. هذا جهاز رائع.
هز رأسه سميح وسأله:
- وماذا سمعت أيضاً؟
- فقط هذا ما سمعته.
فتح سميح الجرار وأخرج الجهاز. وسأل ابنه:
- ألم أعلمك يا سامح أن لا تعبث بأغراض أبيك؟
- لم أقصد، لكنه كان يشبه الهاتف، وشكله غريب، فأحببت أن القي نظرة عليه.
- حسناً.. لا تقلق.
- لكن من هذا الذي كان يتحدث مع المرأة؟ لقد كان يتحدث بأمور... على الهاتف.

- وماذا سمعت؟
- كان يقول لها أحبك، لا أستطيع العيش بدونك.
- كفى.. كفي يا بني. هذا شخص من الشركة طلب مني استعمال هاتفي لإجراء مكالمة له. لم أعرف ماذا قال.

جلس سميح يفكر بما حدث. صديقه أحمد يلاحق امرأة غير زوجته!
صمت، وأطلق العنان لتفكيره وتساؤلاته:
- هل يمكن؟ لا.. لا.. لمَ لا؟
فجأة اتصل بعاصم، وبعد أن اطمأن على أخباره سأله:
- عاصم.. هل تذكر ليلة كانت نادية عندكم؟
- وكيف أنسى؟
- هل تذكر أن استخدم أحد هاتفها؟
- لا.. لا أذكر، لكن لماذا تسأل؟
- بصراحة التلفون مكسور، ولا أعرف إن كسرته هي أم كسره أحد الأولاد؟
- كل ما أذكره يا سميح أن أمها ذهبت تستبدل فستانها، وأخذت هاتف نادية لتستخدمه مع شريحتها لأن هاتفها كان لا يعمل بسبب البطارية. وعندما عادت أعطتها الهاتف، وكان سليماً على ما أظن.
- هل تذكر متى؟
- قبل السابعة بقليل، حوالي السادسة والنصف.
- لكن ما علاقة الوقت بالتلفون؟ يبدو أن هناك شيئاً آخر تريد الوصول إليه.
- لا شيء تحديداً، لكني سأتصل بك فيما بعد.

أطرق سميح رأسه، وأصبح في حيرة؛ زوجته بريئة من كل الاتهامات، أهانها واتهمها بخيانته. أمها في قفص الاتهام لكن من يدري فقد تكون أمها بريئة مثلاً؟ أحمد صديقه يخون زوجته. ابنه سامح يكتشف خيانة صديق أبيه!
ربما اعتقد سامح أن أباه يخون أمه مثل أحمد، فالناس على شاكلة أصدقائهم! هل الجهاز السبب؟ أم الناس وحبها للتلصص؟!
ولكن بعد كل ما جرى، ما العمل؟ كيف أستعيد نادية إلى البيت؟ هل أكشف لها جريمة أمها؟ أم أنها تعرف ذلك الآن؟ ربما تعرف قبلي ورأت أن تستر فضيحة أمها، إنها أمها، لكن ما ذنبها؟ ما ذنب الأولاد؟ هل ستعود عندما أذهب إليها؟ هل ستصفح عني بعد كل الإساءات التي وجهتها لها؟

في اليوم التالي حمل سميح باقة ورد وتوجه مع أولاده سامح وسميحة إلى بيت جدتهم. رن جرس فتحت نادية الباب، نظرت إليهم جميعا، فوجئت بحضور سميح مع سامح وسميحة. نظر سميح إليها، وقدم لها باقة الورد مع ابتسامة عتاب، قال لها:

- نادية! كلنا نريدك.

بكت. لم تصدق. لم تتحمل المفاجأة. أصيبت بدوار. أمسكت بالباب كي لا تسقط على الأرض. كانت أمها في الداخل تسألها:

- من بالباب يا نادية؟

أعطى سميح الورد لابنته سميحة، وفوراً تلقف نادية. حملها بين ذراعيه ودخل بها إلى البيت.

ألقى بها على السرير. كان الأولاد قلقين ينادون: أمي.. أمي، والأم تصيح: نادية.. نادية..

ثم ذهبت تحضر بعض الماء لترشه عليها. وضع يده على وجهها. تحسس يدها، ثم مسد شعرها وقال لها:

- نادية.. سامحيني.

أفاقت نادية من غيبوبتها. نظرت إلى زوجها وأولادها. لم تعرف ماذا تقول.

نعم تحبه، ويحبها، لكنه جرحها، أهانها، لكن فضيحة أمها تجبرها على التنازل عن كل كبرياء.

كانت تتساءل وهي تنظر إليه: هل ترى عرف السر؟ لا يمكن أن يأتي إلا إذا عرف أنني بريئة، لكن هل يعرف صوت من كانت تلك المرأة؟ قطع عليها حبل تفكيرها وقال:

- نادية.. جئنا نأخذك إلى البيت.

- إلى البيت؟ أنا؟

دخلت أمها تحمل إبريق الماء. وقفت بعد أن شاهدتها تقف، أما سميح فقال لها مقاطعاً:

- لم نأت نسألك العودة، بل جئنا نحملك إلى البيت.

اقترب منها. أمسك بيديها. نظر إليها وقال لها:

- هل يصلح الورد ما أفسده الشوك؟

احمر وجه أمها، فخرجت لتتركهما وحدهما، وسحبت الأولاد معها.

نظرت إليه، كأنها بثت في عيونها رحلة عتاب طويلة. قال لها:

- لا تقولي أي شيء. عرفت السبب؛ إنه الهاتف اللعين، إنه تشابك خطوط، سأكسره بعد عودتي. لا.. أريد بيعه حتى لا يقع الناس في مشاكل مع شركاء حياتهم.

ابتسمت. عرفت أنه عرف السر، لكنه لا يريد أن يذكرها بجرح أمها، فكتم الأسرار نوع من الحب. هل هو سر؟ إنها جريمة، لكن بعض الجرائم لا يعالج بعصبية. إنها مثل الجرح الذي يحتاج الطبيب إلى تضميده بعض الهدوء.

اقترب منها أكثر. عانقها. شدها إلى صدره. ألقت برأسها على كتفه، وبدأت تجهش بالبكاء.

ذات المعطف الأحمر

لم يدر بديع كيف خطرت له تلك الفكرة، ولا كيف سيطرت على تفكيره. جلس وحيداً في سيارته يفكر فيما أقدم عليه. كان يضرب كفاً بكف، يحاول جاهداً أن يجد حلاً لتلك المشكلة الكبيرة التي ورط نفسه فيها، والتي ستغير مجرى حياته كلها. كان يخاطب نفسه كالمجانين فالصدمة كبيرة، والنتائج آخر ما كان يتوقعه.

لو كانت تحبني لما أقدمت على خيانتي. لماذا استجابت لدعوته للتعارف؟ لماذا قبلت أن تقابله اليوم خلال وجودي في العمل؟ تريد مقابلة رجل لم تره من قبل؟ ما الذي تكرهه بي؟ ألست وسيماً؟ ألم تقل لي صباح مساء: "أنت أجمل رجل رأيته؟" ألم...؟ لا.. لا.. هذه ليست هند التي أعرفها. هذه ليست زوجتي. هذه... يا إلهي.. ما هذه الورطة التي ورطت نفسي بها؟

كنت مرتاحاً وسعيداً معها حتى تعرفت إلى ذلك المدعو إسحاق لعنه الله. ظل يوسوس لي كيف يكتشف الرجل وفاء زوجته عبر الشبكة حتى وقعت في المصيدة، فبدأت أراسل زوجتي من بريد إلكتروني جديد، منتحلاً اسماً آخر، وشارحاً حبي لها ورغبتي في التعرف إليها ومقابلتها. لم أترك كلمه حب إلا كتبتها لها.
في البداية لم ترد، بعد ذلك بدأت ترد مرة كل أسبوع، وفي النهاية انهارت أمام رسائلي المنهمرة مثل المطر عليها، واليوم موعد لقائي بها، أو لقائها بحبيبها الثاني، أليس هذا ما هيأت نفسها له؟ الخائنة لم تقل لي شيئاً. لم ألمس تغيراً في ملامحها، كأنها أتقنت الخيانة منذ طفولتها! هل أتحمل مسؤولية هذا الانزلاق؟ ألست من دفعها إلى ذلك؟ أم على المرأة أن تدافع عن شرفها ووفائها؟ لا لست مسؤولاً عن شيء. لقد وضعتها في الامتحان وهي التي اختارت إجابتها، إما أن ترسب أو تنجح بامتياز. ترى كيف أحدد النتائج الآن؟ هل أنتظر حضورها إلى الموعد؟ هل أذهب لأعاتبها الآن؟ هل أطلّقها؟ هل أقتلها؟ هل أضربها؟ ماذا لو كانت بريئة؟ ماذا لو كانت تعرف أنني وراء كل ذلك وأنها جاءت إلى الموعد لتكشف سخافتي؟ ماذا سأقول لها حينها؟

كان بديع يهذي وعلامات الغضب تملأ وجهه، ثم بدأ يضرب مقود السيارة أمامه، لاعناً إسحاق على هذه الفكرة التي ورطته وجعلته يعيش أياماً فاقداً رباطة جأشه. صار يشك بكل حركة لزوجته. يشك بكل شخص يتصل بها. يراقب حركاتها واتصالاتها، لكنه لم يستطع أن يلقي القبض على أية هفوة أو غلطة، إما أنها

أحسنت اللعبة، ومارست خيانتها بذكاء لم يعهده، وإما أنه يعيش في أوهامه التي صنعها بنفسه، وها هو يقطف ثمارها.

"اليوم سأرى النتائج.. اليوم ستظهر الحقيقة". هكذا كان يردد بديع، لكنه ما زال يفكر بالطريقة التي تشفي غليله.

فجأه انفرجت أساريره. لقد وجد الحل. قال لنفسه:
- الحل عند شريف؛ هو الوحيد الذي سينقذني من حيرتي، فهو صديق يحظى بثقتي وبسمعة طيبة، ولا يعرف زوجتي فلم يرها من قبل، فهو شاب أعزب، تعرفت إليه بعد زواجنا.

اتصل بديع بشريف من هاتفه الخلوي طالباً منه اللقاء بأسرع وقت لأمر مهم، وبعد ساعة كان بديع يشرح لشريف المهمة التي سيوكلها إليه. لم يقل له الحقيقة، فحتى شريف لم يعرف بالضبط الحكاية كاملة. قال له بديع:
- اسمع يا شريف.. لقد تعرفت إلى فتاة من خلال الشبكة، وسألتقي اليوم بها في مطعم (النهر الخالد) الساعة الرابعة بعد الظهر. الحقيقة أنني لم أكن أعرف أنها ستوافق، وخجلت من الاعتذار، وأخاف إن قابلتها أن أكون قد أسأت لنفسي ولزوجتي، وأخشى إن لم أحضر أن تفسر غيابي بعدم إعجابي بها، أو...
سأله شريف:
- وما المطلوب مني؟
- أن تقابلها بدلاً مني، وتبدي إعجابك بها وحبك...
قاطعه شريف:
- ماذا؟ إعجابي؟ حبي؟ لم أرها بعد، فكيف سأحبها؟
- لا تقلق. إنها جميلة.
- ولماذا لا تتركها وشأنها؟ لا بد أن أمراً مهماً وراء ذلك؟
- بصراحة نعم.
- وما هو؟
قال له بعد تفكير كأنه اكتشف الحل:
- إنني أكتب رواية أصنع أبطالها على أرض الواقع.
- رواية؟ لم أعرف أنك روائي.
- لقد بدأت من جديد.. أرجوك لا تضيع الوقت. لا تنس أن اسمك أحمد، أحمد الشرقاوي.
- حسناً ما دامت جميلة، لكن كيف سأعرفها؟ ألديك صورتها؟
- لا، لكنها ستأتي بمعطف أحمر، وعندما تدخل المطعم تقف أنت، وبيدك ورده حمراء، ستعرفك من الوردة الحمراء، وتتجه فورا نحوك حيث تجلس، فترحب بها والبقية عندك.

- ومن أين لي وردة حمراء الآن؟
- موجودة معي بالسيارة.
- يا إلهي.. لم أعرف أنك عبقري إلى هذا الحد. هل هناك حدود لحديثي معها؟
- ماذا تقصد؟
- هل أستطيع أن ألمس يدها مثلاً، أقبلها...؟
هنا استشاط بديع غضباً، وبدأ الدم يعلو وجهه، لكنه مضطر أن يكمل المسرحية حتى إسدال الستار.
تمتم فجأة ثم قال لشريف:
- إن قبلت فهي لك، حاول لكن بلطف.

الساعه الرابعة إلا عشرة دقائق بعد الظهر، جلس شريف في إحدى زوايا المطعم الفاخر يراقب من واجهة المطعم الزجاجية السيارات القادمة، بينما كان بديع يجلس متخفياً في الجهة المقابلة للمطعم بعيداً عن سيارته التي أوقفها بعيداً عن المطعم حتى لا تلاحظها زوجته.

فجأة وقفت سيارة أجرة أمام (النهر الخالد). تسابق العاملون في باب المطعم إلى فتح باب السيارة الخلفي. خرجت امرأة جميلة ترتدي معطفاً أحمر، وتلبس نظارة سوداء تغطي نصف وجهها، وكان شعرها يتدلى على جانبي الرأس بحيث لم يبق من الوجه سوى الأنف والشفتين وأعلى الجبهة.

بدأ بديع يتمتم لنفسه: اللعينة تعرف كيف تخفي ملامحها! حسناً.. اكتشفتك قبل أن أرزق بأولاد. سيكون قصاصي منك عادلاً.

كانت عيناه تلاحقانها من بعيد. ها هو شريف يقف ملوحاً لها بالوردة الحمراء. سارت باتجاهه، بخطى بطيئة تتمايل يميناً ويساراً. العيون بدأت تتجه إليها. استشاط غضباً. كاد ينفجر. بدأ يسأل نفسه: يبدو أنك ستودع هذا الدلال كله اليوم. الخائنة.. سأشرب من دمها. تفوه عليها.

سلم شريف عليها. رفع يدها إليه مقبلاً بعد أن بهره جمالها، وخفة دمها. هاج بديع في الشارع، فضرب رأسه بيده...
إن كان تقبيل اليدين البداية فكيف ستكون النهاية؟ هل أدخل فأضرب الاثنين؟
لا.. لا تتهور يا بديع. أنت السبب في كل ما جرى. أنت الذي ورطت نفسك، وورطت صديقك. ماذا ستقول له الآن؟ هل ستعترف له أنها كانت زوجتك؟ ماذا لو أحبها وطلب يدها؟ أتكون قد قدمت له زوجتك هدية؟

لم يستطع بديع تحمل الصدمة، فقد أثار بتصرفاته المارين بالشارع، فآثر الانسحاب بعد أن قرر التخلص من زوجته بعد أن تعود من لقاء حبيبها. قرر تلقينها درساً لن تنساه.

استقل سيارته من مكانها القريب من المطعم وتوجه إلى البيت، وهو بحالة عصبية غريبة، لم يعرف كيف استطاع تحمل ذلك. كان في أسوأ حالة نفسية مر بها في حياته. شعر أن سنوات الحب الجميلة التي عاشها مع زوجته قد انهارت بعد رسائل إلكترونية. اللعنة على الشبكة العنكبوتية.. اللعنة على إسحاق، بل اللعنة عليها، فلولا أنها خائنة لم تفعل ذلك.

في الطريق إلى البيت اتصل بوالد زوجته:
- عمي (أبو حسان) هناك مشاكل كبيرة مع هند، أرجو حضورك إلى بيتنا لتحل في وجودك.
- يا بديع.. ألم تتعود بعد كيف تحل مشاكلك مع زوجتك وحدك؟ ألم تعدني أنك لن تتصل بي إذا اختلفت معها؟
- لكن المشكلة التي تواجهني كبيرة. ليست خلافاً. هناك جريمة أريدك أن تسمعها بنفسك.
- يا ستار يا رب. خوفتني يا رجل. سأحضر بعد قليل...

وأخيرا قرر بديع أن يضع أباها بصورة خيانتها، ليحطم كبرياءها أمام أهلها، لكن عليه الآن الوصول إلى البيت ليسحب من خزانتها كل ما قدمه لها من هدايا لم تعد تستحقها.

وصل بديع إلى البيت، وبعد أن فتح الباب توجه على الفور إلى غرفة الجلوس ليستلقي على أحد المقاعد الكبيرة، متعباً، لا يعرف ماذا يفعل. بدأ يدقق النظر في الصورة المعلقة على الحائط، صورة بحجم كبير (بديع وهند). كان يجلس في الصورة على الكرسي وهند تقف خلفه، ويداها تطوقانه.

اقترب من الصورة ليكسرها، لكنه تراجع قليلاً وعاد إلى الوراء. جلس على كرسي قريب منه، وسرح في البعيد. فجأة كانت يدان ناعمتان تطوقانه. أفاق من ذهوله.
- أنا في البيت منذ الصباح ولم أغادره.

ارتبك أمام جوابها، لقد تركها هناك وعاد قبلها، فكيف وصلت قبله، قبل أن يرد عليها، اتصل فوراً بشريف:
- ألو.. شريف، هل هي عندك؟
رد عليه شريف:
- نعم.. شكراً لك. أنت قدمت لي خدمه العمر...

لم يتركه يكمل. أغلق الخط، ولم يتابع الحديث، لكنه هدأ بعض الشيء.

هي عنده، وهند هنا، فمن كانت إذاً صاحبة المعطف الأحمر؟ إنه معطف زوجته. دخل على الفور إلى غرفة نومها، وفتح الخزانة، وبدأ يبحث عن المعطف الأحمر الذي اشتراه لها منذ سنه تقريباً. لم يجده. قالت له بعد أن شعرت أن شيئاً يقلقه:
- ما الذي تبحث عنه لكي أساعدك.
- معطفك الأحمر.. أين معطفك الأحمر؟
- لقد استعارته مني اليوم أختي حنان.
هز رأسه، فقد عرف الآن الحكاية أو خيل إليه أنه حل اللغز. تمتم في سره: إذاً هي التي أرسلت أختها مكانها، لكن لو كان ذلك صحيحاً لعادت أختها بعد لقائها بشريف.

لم يعد بديع مهتماً إن كانت تعرف أنه هو من كان يراسلها، بل كان اهتمامه الأكبر الآن هل تآمرت هند مع أختها حنان عليه أم أنه أمام لغز جديد عليه حله؟

جلس على المقعد يعيد حساباته؛ يقيناً أن كل أوهامه تبخرت بعد أن عرف أن هنداً ليست ذات المعطف الأحمر، بينما ذهبت هند تحضر فنجان القهوة لبديع لعله يهدأ، ويتماسك قليلاً كي تستطيع التحدث إليه. عادت إليه بفنجان القهوة. نظر إليها، وسألها بعد أن استعاد رباطة جأشه:
- هل تعرفين أين حنان؟
- لا يا حبيبي، لكن لم هذا الاهتمام بأختي حنان؟
- لأطمئن على معطفك الأحمر.
- أليس الأفضل أن تهتم بي بعد حطمت أعصابي بغضبك وانفعالك؟
قال لها وهو يتساءل في قرارة نفسه إن كانت تعرف ما يدور حولها:
- لكن كيف عرفت حنان موعد (النهر الخالد)؟
- النهر الخالد؟ موعد؟ لم أفهم شيئاً. عمّ تتحدث؟ أفصح. هل شاهدت حنان مع أحد هناك؟ ألم تكن في العمل؟ لم عدت مبكراً أصلاً؟

استفزته هذه الأسئلة، كأنها لا تعرف شيئاً.

عاد إلى الهذيان من جديد.. إن كانت لا تعرف شيئاً فكيف عرفت حنان الموعد؟ لقد أرسلت رسائلي إلى بريد هند وليس حنان.

صمت بديع ثم قال لهند:
- هناك لغز يحيرني، إن لم أحله الليلة فسأموت غيظاً.
- بعيد الشر عنك، لا أريدك أن تموت، أتتركني وحيده؟

قال متهكماً:
- ستتزوجين بعدي.
- لن أقبل بغيرك كل رجال العالم.

شعر براحه، ثم قال:
- ولا حتى نور الشريف؟!
- ولا حسين فهمي.
- ولا أحمد الشرقاوي؟
- وهل هذا ممثل أيضاً؟ أم مطرب جديد؟ لا أقبل بديلاً عنك ملائكة الجنة، لكن ما اللغز الذي تريد إيجاد حل له؟
- يبدو أن الجواب لدى حنان.

ترك بديع البيت متوجهاً إلى بيت حميه بعد أن بلغ زوجته أن أباها سيحضر إلى البيت لأنه دعاه لأمر مهم، ووعد زوجته أن يعود في أسرع وقت.

كان بديع يقف بسيارته قريباً من بيت حميه (أبو حسان) عندما عادت حنان من موعدها مع أحمد الشرقاوي، فناداها وطلب منها الصعود إلى السيارة لأمر مهم. شغل سيارته، وبدأ يسير باتجاه بيته. سألها بعد ثوانٍ:
- كيف كان لقاؤك مع أحمد؟
استغربت سؤاله، كأن أحمد (شريف) أخبره بكل شيء. ردت عليه:
- هل اتصل بك شريف على الفور؟
- إذاً صرتما أصدقاء بهذه السرعة، وعرفت اسمه أيضاً. أكيد عرف أنك أخت زوجتي هند.
- ولماذا أنت خائف من ذلك، أليس صديقك؟
- وماذا عرفت أيضاً منه؟
- وماذا سأعرف منه عنك أكثر مما أعرف أنا؟ بعد اتصالك به سألته من المتصل؟ فقال لي: إنه بديع. فقلت له: إنك زوج أختي، وتحدثتا قليلاً عنك.
- هل حدثك شيئاً عن الرواية؟
- لا، لم نتحدث عن أية رواية، فهذا لقاؤنا الأول.
- وهل سيكون هناك لقاءات أخرى؟
- بديع.. ألهذا جئتني؟
- أنت تواعدين رجلاً غريباً دون معرفة أهلك!
- ألم تلتق سراً بهند قبل زواجكما؟

- وهل تلتقين بشريف للزواج منه؟
- قال لي إنه سيحدثك بهذا الأمر.
- بهذه السرعة؟
- ألا تؤمن بالحب من أول نظرة؟

تماسك أعصابه، ثم بادرها بسؤاله الرئيس:
- حنان.. كيف كنت تراسلين أحمد الشرقاوي؟
- عبر البريد الإلكتروني.
- أعرف ذلك، لكن من أي بريد؟ هل كان يراسلك على بريدك أم...

بدأت حنان تُتَأتئ في الحديث، فقد شعرت أن خطتها كشفت. قالت في سرها:
- يبدو أن هنداً كشفت اللعبة، لهذا أرسلت بديعاً ليحضرني إليها.
نظرت إليه لترد على سؤاله، وقالت:
- أحياناً عبر الماسنجر كنا نتبادل الرسائل القصيرة.
ضحك وكأنه لا يعرف التفاصيل. قال لها:
- اقتربنا من البيت. هل تعرفين مَن ضيفنا الليلة؟
- مَن؟
- أبوك. لقد دعوته لأمر مهم.
- دخيلك. هل ستحدثه عن موعد (النهر الخالد)؟ شريف صديقك وقصدي شريف. أنت تعرف ذلك تماماً.
- لا تسهبي في الحديث. أريد جواباً شافياً. كيف كنت تراسلينه من بريد أختك هند. أريدك أن تحلي هذا اللغز.
- هل تعدني بعدم إفشاء سر لقائي بشريف؟
- إنْ حللت اللغز.
- حسناً.. اسمع يا بديع. كنت قبل شهرين أتسلى على الحاسوب، وفجأة خطرت لي فكرة اقتحام بريد هند للتسلية فقط. قلت في نفسي: تُرى ما هي كلمه السر إلى بريدها على الـ (جوجل)؟ وضعت عدة افتراضات منها (badiiloveyou) لأنها تحبك كثيراً وتموت فيك، وبالفعل دخلت بريدها، فقد كانت هذه كلمه السر، وبعد أن تسليت في بريدها لفتت انتباهي رسالة وصلتها من شخص اسمه أحمد الشرقاوي يعرض عليها التعارف، وكانت قد حذفت الرسالة هناك، لكنها نسيت أن تفرغ سلة المهملات، فظلت الرسالة في سلة مهملات بريدها. قمت أنا بالرد عليه باسم وهمي طبعاً، ولكن خفت أن أعطيه بريدي الإلكتروني حتى لا يكون من الشباب السيئين، وتركته يراسلني على عنوان هند.
- وطبعاً كنت كل يوم تدخلين إلى بريد هند؟

- لا، فقد قمت ببرمجة بريد هند من الـ (وب ميل) في (جوجل) بحيث يتم تحويل الرسائل التي تصل من عند أحمد الشرقاوي إلي دون أن يترك أي نسخه في بريدها، ولأنها ليست خبيرة فلن تلاحظ ذلك.
- كل هذا حصل منك يا حنان؟ حسناً، وكيف كنت تراسلينه من بريدها؟
- لم أكن أراسله من بريدها بل من بريدي، ولكن كنت أستخدم عنوان بريدها وكأن الرسالة صادرة منها، أنسيت أنني خبيرة حاسوب.
هز رأسه بعد سماع القصة من حنان، وقال لها:
- لقد عجز إبليس عن دهائك! هل تعرفين أن أعمالك هذه كادت أن تقضي على أجمل قصه حب؟
شعرت بغلطتها فلم تجب. احمر خداها، وسألته:
- هل عرفت أختي بالحكاية؟
- ليس بعد، لكني كنت على وشك أن أخبرها.
- ماذا تقول؟ اللعنة عليّ أنا السبب، لكن كيف عرفت؟ كنت تتجسس على بريدها مثلي؟
- أنا زوجها.
سكت، ثم أكمل بعد لحظه:
- لعنك الله يا إسحق، أنت سبب كل المصائب.
سألته حنان:
- من إسحق هذا؟

فقال لها:
- هذا سبب لقائك بشريف.
- لا بد أنه رجل طيب، إذاً فلا تلعنه.
ضحك، ثم قال:
- ليس بأطيب منك يا حنان!

خذ حاسوبك وارحل

منذ أواخر تسعينيات القرن العشرين يحاول ابني البكر إقناعي بشراء حاسوب شخصي، وتعهد بتعليمي كيف أتصفح الشبكة العنكبوتية، لكنني كنت دائماً أتهرب من اقتراحه، فلم أستخدم هذا الجهاز اللعين من قبل، ولا أعرف شيئاً عنه.

لم يهدأ ولدي، وظل يغريني بفوائد الحاسوب المتنقل (المحمول)، ويشرح لي كيف أستخدمه. وأخيراً في عيد ميلادي السبعين فوجئت به يهديني حاسوباً شخصياً، ويفتح لي اشتراكا بالشبكة العنكبوتية، وحفظ لي في قسم (بوك مارك) الصحف التي أحب قراءتها فسهل علي الموضوع.

وبالفعل بدأت كل يوم أتابع ما تنشره مواقع الأخبار، وأحياناً استخدام زر البحث للتسلية لأرى ماذا يعرضون علي، وصرت كلما خطر على بالي شيء كتبته في زر البحث وضغطت على زر الإدخال. هكذا مع الأيام أصبحت لدي بعض المعلومات باستخدامه، وصرت شغوفاً به ما أثار زوجتي التي قالت لولدنا:
- ماذا أحضرت لوالدك لتشغله عني؟ خذ حاسوبك معك.
كان ابننا سعيد يضحك ويحاول إقناع والدتي بأن تحذو حذوي، لكنها كانت ترد عليه بقولها المشهور:
- بعد ما شاب ودّوه على الكتاب.

مرت شهور، ثم سنوات، أصبحت فيها ملماً بالبريد الإلكتروني، وأعجبتني الفكرة، فاتصلت ببعض أصدقائي وأقاربي وجيلي طبعاً، وعرضت عليهم الفكرة، وصرنا نتراسل من خلال الحاسوب، وكنت كلما صعبت علي مسألة أسأل أحفادي الذين كانوا يتسابقون لتعليمي، وكنت أفاجأ بذكائهم باستخدام الحاسوب على الرغم من

صغرهم، فيما هم يتغامزون على جدهم المتخلف تكنولوجياً، وكنت محتاراً بينهم، فهذا يحاول إقناعي أن أنتقل إلى بريد الـ (هوتميل)، وآخر إلى (ياهو) وهكذا، لكن ابني سعيد شجعني أن أستمر في (جوجل)، وقال لي: لا تغير بريدك فهذا أسهل الموجود. وفعلاً رأيته أفضل لأنه لا يعرض علي إعلانات كثيرة وأنا أكره الإعلانات.

في أحد الأيام فوجئت بكثرة الرسائل التي تصلني من مجموعات بريدية ومواقع للدردشة، فسألت أحفادي أن ينجدوني، فأخبروني أنهم أضافوا اسمي إلى تلك المجموعات.
- لماذا يا جدي؟
- حتى تشارك في الحوار والمناقشة.
- يا فرحة جدتك، لو سمعت ما تقول لوبختك.

لم أكن أشارك بالحوارات، وكنت أحذف كل الرسائل التي تصل من المجموعة دون أن أخبر أحفادي كي لا يغضبوا، وفي إحدى المرات عرض علي أحدهم اسم موقع للدردشة والتسلية قال إنه مشوق، فسجلت به، وبدأت أدخل إليه لأرى رجالاً ونساء يشاركون في الحوار. أعجبني مشاركة النسوان، فقلت لنفسي: فرصة للتسلية بعيداً عن زوجتي العجوز.

كانت دردشات تلك المجموعة غير منضبطة، فهي تبدأ بالسلام والكلام، وتنتهي بالإيحاءات الجنسية، وعلى الرغم من ذلك لم ينسحب أحد من النساء من الحوار، بل يشاركن به ويقهقهن كأنهن كن يستعذبن ذلك.

شجعني ذلك على المتابعة، ولكني لم أستطع المشاركة في الحديث كي لا تسمعني زوجتي التي لم تكن تسمع ما يقولون لأنني أضع الـ (هدفون) على أذني.
في أحد المرات قلت لها: سنذهب الليلة للسهر عند سعيد، اسبقيني وسوف ألحق بك. وبعد ساعة من ذهابها قلت لها عبر الهاتف: أشعر بالإرهاق والنعاس، لذلك لن أحضر.
استغليت غيابها وبدأت بالدردشة، وهكذا أصبح لي بعد فترة صديقات على الشبكة، كانت إحداهن من لبنان عرضت علي زيارة لبنان ورحبت بي. سررت بذلك، وقلت لنفسي: إنها فرصة لتغير جو، فأنا تجاوزت السبعين من عمري، وبحاجة إلى الراحة والاستجمام.

سافرت إلى بلد الصديقة الجديدة، والتقيت بها. كانت امرأة في الأربعينيات من عمرها جميلة متوسطة الطول، ممتلئة الجسم. استقبلتني في المطار، وأخذتني إلى الفندق، ومنذ تلك اللحظة تكررت زيارتي إلى لبنان حاملاً الهدايا للعشيقة الجديدة حتى صرفت كل مدخرات عمري الذي قضيته بالتدريس، فتوقفت عن زيارتها وشراء الهدايا لها، فانقطعت علاقتي بها.

فجأة صحوت على نفسي لأجد بأنني لم أعد أملك شيئاً، ولم يعد راتبي التقاعدي يكفيني بعد الانهيار الاقتصادي العالمي العام (2008). وعندما طلبت مني زوجتي بعض النقود لشراء ملابس لها فوجئت برفضي. لم تصدق أنني صرفت كل النقود، وقالت لي هازئة: صرفتها على السهر وشمات الهوا؟
حاولت أن أشرح لها أنني لم أكن أسافر لشمات الهواء، لكنها لم تقتنع، فساءت العلاقة بيننا.

شعرت بحجم المصيبة التي أنا بها، وأصابني الإحباط. لم أعرف ماذا أفعل. لكنني بعد فترة اهتديت إلى الحل.
عندما جاءنا سعيد للزيارة قلت له:
- قبل أن تخرج احمل هذا الصندوق معك.
- ما هذا يا والدي؟
- إنه جهاز الحاسوب الذي أهديتني إياه.
- ماذا تقول؟ ما الذي جرى؟
بعد تفكير قلت له:
- الحاسوب أخذ وقتي من أمك، ولم أعد أسهر معها كالسابق.
- وهل يجب أن تقضي وقتك على الحاسوب؟
- صدقت، لكني قررت ولن أتراجع عن قراري. إنه إدمان مثل المخدرات.
- يا والدي الحاسوب علم وثقافة، وليس فقط دردشة وتسلية...
قاطعته:
- يا ولدي، أنا لست من جيل حاسوبك. دعني وجيلي. أنا من جيل أمك.

حمل سعيد الحاسوب مرغماً، وغادر فيما بقيت أنا وزوجتي وحيدين، وجهي بوجهها. قالت:
- الحمد لله الذي أراحنا من حاسوبك، صرنا نراك على الأقل.
ضحكت وقلت لها:
- ما رأيك أن نذهب الليلة إلى السينما؟
- سينما؟ بعد هذا العمر؟
- طبعاً سينما، ألا تريدين أن تستعيدي سنوات الشباب عندما كنا نذهب معاً بعيداً عن أعين آبائنا.
ضحكت وقالت:
- وماذا سنحضر الليلة؟
- سنبحث عن فيلم رومانسي، نستعيد فيه رحلة الحب القديمة.

رفاق الأمس

ستة عشر عاماً أمضاها أسيراً خلف القضبان في السجون الصهيونية. كان يحلم بالحرية ولا يعلم متى سيتحرر من السجن. التحرر كان أمنية له ولرفاق الأسر، فقد كان محكوماً بالسجن المؤبد من قبل محكمة عسكرية صهيونية.

لم يتوقع في بداية الأسر أن يطول اعتقاله. كان أمله بالثورة كبيراً جداً، لكن الأمل بقدرتها على تحريرهم تضاءل مع الزمن.استبشر خيرا في حرب (١٩٧٣)، وكان ينتظر تحريره مع رفاق دربه على أيدي الجيش المصري أو السوري الذي كان يصفق خلف الأسوار لانتصاراتهم، لكن خاب أمله، فلا الجيش المصري حرره، ولا الجيش السوري ضمه لقائمة الأسرى الذين تم تبادلهم بين الجانبين.

على الرغم من ذلك لم ييأس، ولم تهن عزيمته، بل ظلت قوية قوة الشمس في وضح النهار.
وعندما سمع أن صفقة على الأبواب لتبادل الأسرى مع المنظمات الفلسطينية العام (١٩٨٥) فرح كثيراً.
كان يشعر بالسعادة تغمره، وعندما حصلت المفاجأة وكان أحد المحررين كانت سعادته لا توصف.

ها هو الآن في شوارع القدس بعد غياب طويل لم يرها فيه ولا حتى في الصور. الشوارع تغيرت، والناس تغيروا. كلما مر من أحد الشوارع يسمع الشبان يتهامسون عليه: هذا البطل كان من المحررين من الأسر. شعر بالفخر أمام هذا التقدير، وكان يرد عليهم بابتسامة ملوحاً لهم بيديه.

وبعد استراحة المحارب، بدأت مصاعب الحياة المالية والمسؤولية تواجهه مرة واحدة. فعندما اعتقل قبل ستة عشر عاماً كان طالبا بالمدرسة، أما اليوم فهو رجل يخجل أن يطلب مصروفه من والده، خصوصاً وأن والده يعمل في محل لصناعة الحلويات ويكاد راتبه يكفي العائلة، فتوجه على الفور إلى أحد المسؤولين في القدس، وسأله إن كانت ثمة مساعدات مالية للأسرى المحررين، فرد عليه وقد عرف أنه لم يعد عضواً في الحزب قائلاً:

- الثورة ليست شؤوناً اجتماعية.. الثورة كفاح ونضال وتضحية.

لم يناقشه بالموضوع، لكنه يسمع من آخرين يثق بهم تحرروا من الأسر بأنه صرفت لهم مساعدات مالية تساعدهم على الانخراط في المجتمع. أحد الأصدقاء همس له قائلاً:

- المساعدات لن تشملك لأنك خارج التنظيم.

- ولكني لا أبحث عن راتب أو مكافأة حزبية، بل عن مساعدات للأسرى بغض النظر عن التزامهم بالحزب بعد الأسر.

لم يسمع أحد كلامه، وأهمله الجميع. طرق أبواب الأحزاب الأخرى فصار كل منهم يحاول استمالته لطرفه. شرح لهم دون فائدة، أنه لن يتخلى عن وطنه، ولا عن مساعدة أبناء شعبه، لكنه لا يريد البقاء عضواً في أي حزب، يريد أن يتخذ قراره بمفرده دون عائق.

كتب في دفتر مذكراته الذي كان يسجل به أحداث الأسر:

"بعد فشلي الذريع في استمالة أحد لمساعدتي بدأت أبحث عن عمل مناسب، فليس في يدي شهادة جامعية، ولا أعرف أية مهنة أو حرفة. توجهت إلى إحدى المؤسسات التابعة لإحدى القوى السياسية فاعتذروا بأنهم بغير حاجة لعمال، ولكني عرفت فيما بعد أنهم لم يوظفوني لأنني كنت أسيراً محسوباً على تنظيم آخر، فبدأت أتنقل من محل إلى آخر. بعضهم خاف من توظيفي حتى لا تتردد عليه المخابرات الإسرائيلية لأنني من الأسرى المحررين والخطرين. قال لي أحدهم بصراحة ولم يكذب علي: نتمنى أن نشغلك عندنا، ولكن اعذرني فوجودك هنا قد يعرضنا لمضايقات المخابرات.

ثم عرض علي مائة دينار، فسألته: لم هذه؟ فقال إنها تبرع لي. شعرت بالإهانة، ورفضت أخذها، وذهبت إلى آخر. كان سعيدا برؤيتي، ورحب بي، وعندما علم أنني أبحث عن عمل لم يصدق. قال لي:

- أنت تبحث عن عمل؟

- نعم، وما الغريب؟

بدأ يتأتئ بالحديث وقال:

- لكنك... زعيم وطني... ستة عشر عاماً في الأسر وتبحث عن عمل عندنا؟ أين المؤسسات الوطنية لتوظيفك لديها؟

ضحكت وقلت له:
- لقد توجهت إلى أكثر من مؤسسة فاعتذروا.
بهت من كلامي وقال:
- هذا غير ممكن! لا أصدق أن يتركوك هكذا بدون عمل. إنها إهانة بشرف الثورة. لماذا لا تذهب إلى جريدة الفجر وتسألهم عن عمل، سيرحبون بك.
- وماذا سأعمل هناك؟ لست صحافياً.
- اعمل أي شيء، وهل تعتقد أن العاملين هناك أفضل منك؟ معظمهم يقضون وقتهم في طق الحنك لا يفقهون بالصحافة شيئاً.
هززت رأسي وشكرته، وخرجت لأتوجه في اليوم التالي إلى صحيفة الفجر. سألت عن المسؤول عن التوظيف، فأرسلوني إلى شخص يجلس خلف مكتب عريض. كان أمامه عشرات الأوراق والتقارير. رحب بي بعد أن عرفني، وطلب لي فنجاناً من الشاي، وشكرني على صمودي في الأسر، وقال لي مجاملاً:
- نحن مهما قدمنا لكم لن نكافئكم على صمودكم وتضحياتكم البطولية. لقد كنتم الوجه الأكثر إشراقاً للثورة الفلسطينية.
خجلت من مديحه لي وقلت له:
- لقد جئتك في أمر مهم أرجو أن لا تردني خائباً.
فقال لي:
- ولو يا رجل أنت تأمر وأنا أنفذ.
قلت له:
- أشكرك على تواضعك. في الحقيقة أنا أبحث عن عمل لأستطيع أن أفتح بيتاً وأعيش كما الآخرين.
صمت لحظة وقال:
- اسمح لي بسؤالك ولو أنه ليس من اختصاصي، لماذا لا يجد رفاقك عملاً لك في مؤسساتهم؟
ابتسمت له بسخرية وقلت:
- لأنني لست ملتزماً مع أحد. أنا مع الوطن كله.
ابتسم ابتسامة عريضة كأنه لم يتوقع ما سمع مني وقال:
- متى سنرحب بك لدينا؟
فقلت له:
- لا أفكر بالانضمام لأي حزب. أفضل أن أكون صديقاً للجميع.
غير من تقاطيع وجهه وقال:
- نرحب بك كصديق.
وقبل أن يتابع حديثه قلت له:
- ها هل سأجد عملاً عندكم؟
فرد علي قائلاً:

- حالياً لا يوجد وظيفة شاغرة. أعطني رقم هاتفك أو عنواناً لك وسأتصل بك في أية فرصة نحتاج فيها لموظف. لكن ماذا ستفعل؟
- أي شيء.
- أي شيء؟ لا.. لا أقبل لك ذلك.
- حسنا ماذا تقترح؟
- لو كنت أسيراً من تنظيمنا لن يتركك الإخوة بدون عمل، فقد يجدون لك عملاً داخل التنظيم وراتباً دائماً. غريب أن رفاق دربك تركوك بهذه السهولة. نحن لا نترك إخوتنا.
هززت رأسي وأنا أحدث نفسي قائلاً: كذاب، لو كنت من حزبكم وتركته ستصبون غضبكم علي كما حصل مع آخرين أعرفهم.
قطع علي حبل تفكيري قائلاً:
- على كل حال عندما تغير رأيك اتصل بي، وهذا رقمي الخاص بالمكتب.
حملت الورقة التي قدمها لي، ودسستها في جيبي، وسلمت عليه واعداً إياه بلقاء آخر.
غادرت المكتب وأنا ألعن الأحزاب والحزبيين كلهم."

عاد إلى البيت غاضباً. اسودت الدنيا بوجهه، وصارت شوارع القدس الجميلة سوداء.
والداه أحسّا بما هو فيه. قال له أبوه:
- يا بني هذه مسيرة طويلة، أنت اخترتها لا ليكافئك الناس، ولكن لأنك مقتنع بها.
- ولكن...
- لا تكمل. أعرف أحاسيسك ومشاعرك. لا تقلق. لماذا لا تبحث عن عمل في أحد المصانع الإسرائيلية؟
- مصانع إسرائيلية؟ بعد ستة عشر عاماً في الأسر؟
- ولكنك بدون عمل، وأمامك بيت وزواج ومستقبل؟ فماذا تفعل، وأنا لا أملك أن أقدم لك شيئاً.
- لا تقلق، سأتابع الأمر.

خرج من البيت إلى باب العامود، وهناك جلس في مقهى ادكيدك قرب محطة الباصات، ومن هناك صار يراقب البسطات التي تملأ جوانب الشارع، فهذا يبيع الكعك، وذلك يبيع الملابس، وهذا يبيع الألعاب... إلخ.
بدأ يحدث نفسه وهو يحتسي الشاي: لماذا لا أعمل مثلهم؟
- أعمل في الشارع؟
- لمَ لا؟ أحسن من الجلوس في البيت.
- وماذا سيقول الناس؟ بعد ستة عشر عاماً في الأسر يعمل في الشارع؟
- ليقولوا ما يقولون، بعد شهر سيتعودون على الوضع.

بعد أسبوع كانت له بسطة في باب العامود قريبة من الباب. كان يبيع الكلسات الرجالية والولادية وللأطفال، وكان ينادي كالآخرين ويحث الناس المارين على الشراء.
في البداية تغلب مع الزبائن، فمهما طلب منهم يعرضون عليه سعراً أقل، فلو قال لهم عشرة، يقولون سبعة تكفي، وإن يطلب سبعة يعرضون خمسة، فصار يطلب أعلى ثم يتنازل في السعر.

تعلم فن الكذب، وعرف أن الزبائن لا يحبون الصدق، ومهما صدق لن يصدقونه. لم يكن عمله سهلاً أبداً.

كتب في دفتر مذكراته بعد عودته من العمل:
"أصحاب المحلات المجاورة كانوا يتضايقون منا لأننا نعطل عليهم عملهم، ونسلبهم بعض تجارتهم، مع أنهم دائماً يقولون: الرزق على الله. والمارة أحياناً كانوا يتذمرون منا لأننا نأخذ حيزاً من الشارع الضيق أصلاً والمزدحم بالمارة أبداً، وموظفو البلدية كانوا يلاحقوننا لأننا غير مرخصين للتجارة بالشوارع. كنا نعرف كيف نواجه هؤلاء، ونتحمل تعليقات المارة، ونهرب من موظفي البلدية عندما يهاجموننا، ما أن يراهم أحد الباعة حتى يحمل بضاعته ويهرب وينذر البقية صارخا: "البلدية يا شباب".

موظفو البلدية كانوا يستعينون أحياناً بالجيش الصهيوني لملاحقتنا فقد كنا باعة كثر، ربما لقلة الأشغال، وربما لأنها تجارة أسهل لدى بعضنا. كان عملنا هذا محصوراً في أشهر الصيف وبعض أشهر الربيع، أما فصل الشتاء والبرد والريح فلم يكن يجرؤ أحد منا على بسط بضاعته.

سارت الأمور معي لعدة أشهر، وأصبح لدي عمل أعتمد عليه ولو أنني كنت لا أحبه. كان زملائي من الأسرى المحررين أو القدامى يلومونني لاختياري تلك المهنة ويتساءلون: "أنت هنا؟" كنت أجيبهم: إنني لم أجد عملاً آخر. بعضهم كان يحزن لحالي وينتقد الثورة وأحزابها التي تتخلى عن أبنائها عندما يتوقفون عن الالتزام الحزبي.

لم أعد أهتم بالتعليقات ولا بالانتقادات، فلم يعد الوطن عندي مجرد انتماء حزبي، بل انتماء إلى الشعب والأرض. كثيرون مثلي لم يجدوا عملاً فهاجروا من الوطن بعضهم للعمل في دول الخليج، وآخرون إلى أوروبا وأمريكا وأستراليا وكندا. سمعت أن بعضهم قدم للجوء سياسي. بعض أولئك كانوا يوماً ما في قيادة أحزابهم. لا أفهم لماذا يهاجر المناضلون أوطانهم عندما يستريحون من النضال؟ لمن كانوا يناضلون؟ كان الوطن لديهم وظيفة ما أن يتركونها حتى يهاجروا إلى بلد آخر بحثاً عن غيرها. رفضت كل المغريات التي قدمت لي للهجرة من وطني. لا لن أترك الوطن ولو عينت رئيساً لمنظمة التحرير الفلسطينية. هنا سأبقى وسأموت. هنا سأشرب كأس وطني كما شرب دريد لحام كأس وطنه في مسرحية (كاسك يا وطن). أنا لا أختلف عنه بشيء، ستة عشر عاماً في الأسر لأنني أريد للوطن أن يتحرر، لا لأهجره بحثاً عن بريق ماليّ مزيف حول البحار."

في أحد الأيام بينما كان مشغولاً مع أحد الزبائن داهمه موظفو البلدية مع بعض أفراد الجيش، وقبل أن يلم بضاعته ويهرب ألقوا القبض عليه، وصادروا منه كل البضاعة التي قدرها بحوالي ألف شيكل، وقيدوه وحملوه في سيارتهم إلى سجن المسكوبية التي سجن بها يوماً ما قبل أكثر من ستة عشر عاماً. لم تتغير الغرف كثيراً، لكن وجوه السجانين كلها تغيرت. بدأ يستعيد ذكريات الأمس البعيد، فيما كان الجنائيون اليهود يسألوه: "لماذا أنت هنا؟" وعندما عرفوا أنه ليس من المعتقلين السياسيين تركوه بحاله.

في الصباح عرضوه على القاضي، فحكم عليه دفع غرامة مقدارها ألف شيكل، فقال للقاضي: لقد صادروا بضاعتي التي اشتريتها بنقودي. فردّ القاضي اليهودي بأنه مسؤول عن ذلك لأنه تاجر بدون رخصة. موظف البلدية قال للقاضي بأنه كان أسيراً سابقاً فزاد حقده عليه، وعندما أخبره أنه لا يستطيع دفع المبلغ لأن كل نقوده كان قد اشترى بها البضائع التي صادرتها البلدية، أمر بسجنه لمدة شهر حتى يدفع أحد من الأهل عنه المبلغ.
كان والده في المحكمة في ذلك اليوم، وقد شعر بالمرارة لقرار القاضي وعجزه عن الدفع، لكنه ودّع ابنه أمام بوابة السجن قائلاً:
- سأطرق كل الأبواب، وستخرج قريباً إن شاء الله.
توجه والده إلى رفاق دربه الذين أمضى نصف عمره مناضلاً معهم فقالوا له: إنهم لا يدفعون غرامات للبلدية عن أحد.
بعد يومين، كان جالساً في غرفة السجن يفكر بحظه في هذه الدنيا، فإذا بالسجان على باب الغرفة يفتح الباب وينادي عليه، فقفز على الفور ورد عليه:
- نعم أنا هو.
فقال له:
- الحقْ بي.. إفراج.
- إفراج؟
- نعم.

كانت أجمل لحظات حياته، ربما أجمل من التحرر بعد ستة عشر عاماً من الأسر، لهذا أفرد لها فصلاً خاصاً في دفتر مذكراته. كتب يقول:

"طرت من الفرح. قلت في نفسي: لا بد أن أحد رفاقي دفع عني الكفالة. طبعاً لا يمكن أن ينساني أحد فهُم رفاق الدرب، رفاق الأسر، رفاق الزنزانة، رفاق النضال. لن يتخلوا عني. ماذا لو تقاعدت عن الالتزام الحزبي فأنا ما زلت الابن البار لهذا الوطن المقدس.

بعد أن وقعت على الأوراق اللازمة، وحملت أماناتي التي أخذوها مني عندما أدخلوني السجن (ساعة يد، قلم، بطاقة الهوية، بعض النقود... الخ)، فتح السجان الباب الحديدي الرئيس الذي يؤدي إلى عدة درجات لأجد نفسي في ساحة المسكوبية الخارجية ووالدي ينتظرني هناك مع أمي ومعهم شخص ثالث لم أعرفه في البداية.

ترى من يكون هذا؟ أهو مسؤول كبير في الحزب جاء يستقبلني؟! لا.. لا يمكن أن يأتي هنا قيادي في الحزب لئلا يعتقلونه. من يكون يا ترى؟
هجم علي والدي يعانقني ثم تبعته أمي، قالا لي:
- الحمد لله على السلامة، مش مهم النقود، بالمال ولا بالعيال.
بعد ذلك تقدم الرجل لمصافحتي ومعانقتي قائلاً لي:
- الحمد لله على سلامتك يا بطل. نورت فلسطين. مثلك مكانه ليس في السجن، بل في بيت العز والكرم.
كنت أنتظر أن يعرفني عليه والدي، لكنه كان يعتقد أنني أعرفه. رحبت به وعانقته طويلاً. حاولت أن أتذكر شكله، لكن ذاكرتي خانتني. قلت لنفسي: هذا الصوت ليس غريباً عليّ، فمن يكون؟ لم أجد جواباً، فتجرأت وسألت والدي:
- لم تعرفني على الأخ الكريم؟
فقال لي مستغرباً:
- ألم تعرفه بعد؟
وسألني الرجل معاتباً:
- أنسيتني بهذه السرعة وأنا الذي ما زلت أحتفظ بصورتك معي في بيتي أتفاخر فيها بين أولادي بأنك صديقي؟
- يا إلهي!
ضربت يدي على رأسي. اقتربت من تذكره. نعم إنه هو زميلي أيام الدراسة. ترى ما اسمه؟ ما اسمه؟ يا ربي كيف نسيته؟ كيف أتذكر كل رفاق الأسر ونسيت زميلاً كهذا درس معي.
فقال لي مذكراً:
- شارع الزهراء، مدرسة المأمونية، نادية.
أوه تذكرت. نعم تذكرته. كنت أذهب معه أحياناً في الصباح، فنمرّ من أمام مدرسة المأمونية للبنات لعلني أرى نادية التي كنت أحبها لأقدم لها رسالة غرام، كنت قد كتبتها لها. إنه زميل قديم، لكنه لم يكن يهتم بالنضال ولا بالمنظمات. كان والده موسراً وكان مرفها، وكل همه كان إنهاء دراسته والالتحاق بتجارة والده. قلت بصوت عال:
- أنت عماد؟
- أنا هو.
- لقد تغيرت كثيراً، لا تؤاخذني. لم أرك منذ أكثر من عشرين عاماً! أين كنت وما أخبارك؟

- انتقلت بعد المدرسة للعمل في الأردن في أحد مشاريع والدي وبقيت هناك، وقد جئت لزيارة الأهل هنا منذ أيام، فقررت رؤيتك بعد الإفراج عنك، وعندما أخبرني والدك بما حصل معك جئت بنفسي لأستقبلك مع أنني كان يجب أن أستقبلك عندما تحررت.

فقال لي والدي:

- يا بني لقد دفع عنك الغرامة، وأقسم أنه لن يستردها منا.

- لا.. لا هذا كثير. إن شاء الله بعد أن أشتغل سأردها له.

- عيب يا صديقي هذا أقل ما نقدمه لمناضل مثلك. لقد قدمت ما يكفي من عمرك للوطن.

حاولت أن أبتسم فعجزت. قلت له:

- هيا بنا إلى البيت فلا بد أن أمي حضرت لنا بعض الغذاء، أنا جائع.

- لا تقلق أنتم مدعوون معي.

- إلى أين؟

- إلى مطعم البتراء.

- وأكل أمي؟

- لقد أخبرت والدك من قبل فلم تعد أمك شيئاً.

قال والدي:

- لقد أصر الأخ عماد على أن يدعونا للمطعم وحجز طاولة لنا هناك.

قلت له:

- أنا عاجز عن شكرك.

فقال لي ضاحكاً:

- هذا غير مقبول منك. أتشكرني لأنني حظيت بشرف ضيافتك؟ أنا الذي أشكرك، فأنت من ناضل عنا، وضحّى عنا، وأمضى ستة عشر عاماً من عمره خلف القضبان متحدياً جلادي الاحتلال.

وأخيراً وجدت من يقدّرني، ويهتم بي ويسأل عني.

شعرت ببعض الراحة. لم أصدق أن عماد الذي كان لا يشارك في أية مسيرة وطنية أو مظاهرة أو أي تحرك طلابي هو الذي يأتي ويدفع كفالتي فيما كل الذين طرق والدي أبوابهم من رفاق الأمس سدوا الباب بوجهه، ولم يفكروا حتى في توجيهه إلى الجهة التي يمكن أن تساعده.

كان الغذاء دسماً، والأكل كثيراً، حتى أننا سألناه لم كل هذا؟ فقال مبتسماً:

- ولو يا صديقي هذا من خيرك. أنسيت أنك صديقي، وهناك مثل يقول (رب أخ لك لم تلده أمك)، عدني أخيك، فأنت وحيد أبويك وبحاجة لأخ يقاسمك همومك.

خلال الغذاء دار بيننا أحاديث كثيرة كان أهمها سؤاله لي:

- ما رأيك أن تعمل سكرتيراً في مكتب للسياحة والسفر في شارع صلاح الدين؟

- مكتب للسياحة والسفر؟ وماذا بإمكاني العمل هناك؟

- بسيطة.. ترد على الهاتف، وتسجل المواعيد، وتتابع المهمات التي توكل إليك.

- أي مكتب تقصد؟
- مكتب (ألتاليا) مقابل شركة كهرباء القدس.
- وهل تعرف المسؤول هناك؟
- إنه أخي.
- وهل هو بحاجة لموظف؟
- وهل تعتقد أننا سنوظفك بدون عمل؟
شعرت أن الدنيا بدأت تبتسم لي عن طريق هذا الصديق. هل أضيع الفرصة بالتفكير؟ هل أوافق على الفور؟
قلت له بعد ثوان:
- موافق. هل الراتب مناسب؟
- لن يظلمك أحد. ستكون مرتاحاً في العمل، وإن شعرت بالغبن بلّغني، فأنا دائم الزيارات للقدس، وسوف أوقفه عند حده.
- أنا عاجز عن شكرك يا عماد.
قالت أمي:
- الله يستر عليك دنيا وآخرة، لولاك لم نعرف ماذا نفعل.
فقال لها:
- أستغفر الله يا حاجة. هذا من خير الله. أنت أم أحد أبطالنا الذين نعتز بهم ونفخر ونرفع رأسنا عالياً.

بعد الغذاء نقلني مع والدي بسيارته إلى بيتنا في رأس العامود، وهناك ودّعني على أمل أن يراني مرة أخرى قبل عودته إلى الأردن.

ساعة امرأة

في أحد الأيام وجدت نفسي في أحد المطاعم لتناول طعام الغذاء. لا أعرف لماذا اخترت ذلك المطعم بالذات، مع أنني لا أحب الأكل فيه. جلست على أحد الكراسي، وبدأت أتفقد هاتفي النقال، فقد أصبح الهاتف أكبر إدمان للكبار والصغار.

طلبت ما تيسر من الغداء من النادل، ورحت أنتظر إحضاره منشغلاً بالهاتف.

فجأة لمحت امرأة تدخل المطعم في قمة أناقتها كأنها على موعد مع حبيب، أو عاشق. كان شعرها طويلاً يغطي كتفيها، والبسمة لا تفارق شفتيها. ظلت تسير تبحث عن طاولة مناسبة فلم يعجبها سوى الطاولة التي تقع أمام طاولتي. جلست في وضع مقابل لي، فالتقت عيناها بعيني كأنها أرادت أن تستفزني. رائحة عطورها تسللت إلى أنفي فخدّرتني. دققت النظر في وجهها، وعندما التقت عيناي بعينيها مرة أخرى ابتسمت لها، فردت علي بابتسامة مماثلة وأومأت برأسها، فبلعت ريقي غير مصدق.

قالت للنادل أنها تريد فنجان قهوة وبعض الوقت لتفكر في نوع الغداء الذي ستتناوله.

بعد لحظات رأيتها تدقق النظر في ساعتها وتعبث بها كأنها تحاول الهرب من عيني، وعندما رفعت عينيها عن ساعتها قلت لها:
- مرحباً.
صمتت للحظة، ثم سمعتها تقول دون أن تنظر إلي كأنها في قمة الخجل:
- أهلاً.. كيف حالك؟
فرحت لردها. إذاً لأتابع هجومي:
- أنا بخير، وأنت؟

ضحكت ثم قالت:
- نص على نص.
تشجعت على متابعة الحديث:
- هل تقبلين عزومتي على الغداء؟
- وهل أستطيع أن أرفض لك طلباً؟!
قالتها وهي تنظر لساعتها.
يا لهذه الساعة!!
لماذا كلما سألتها شيئاً تدقق في الساعة؟ أتخجل مني؟ كيف تقبل عزومتي وتخجل مني؟
حسناً.. يجب استغلال الموقف قبل أن تغير رأيها، فالنساء يغيرن آراءهن ألف مرة بالساعة.
قلت لها:
- يمكنك تغيير الطاولة. أهلاً وسهلاً بك هنا.
ضحكت بصوت انتبه إليه بعض الزبائن ثم قالت:
- أنا بانتظارك.
إذاً هي تدعوني أن أنتقل أنا إلى طاولتها. تريد أن تفرض رأيها عليّ. لا مانع، فذلك لا يهمني. المهم أن تقبل دعوتي لتناول الغذاء معاً.
حملت أغراضي وانتقلت إلى طاولتها.
جلست أمامها مبتسماً وقلت لها:
- شكراً لدعوتك لي. أنا سعيد بالتعرف إليك.
نظرت إلي بعد أن توقفت عن النظر للساعة. تغير لون وجهها، ثم سألتني بصرامة:
- ماذا تريد؟
استغربت سؤالها وحسبتها تمزح:
- ألم تقبلي دعوتي للغداء؟
- غداء؟ دعوة؟ ماذا تقول؟
نظرت لساعتها بسرعة ثم قالت:
- رجل يعاكسني.
قلت لها:
- ماذا؟ رجل يعاكسك؟ مع من تتحدثين؟
ألم أدعوك للغداء وقلت لي: "أنا بانتظارك"؟
- أنا لم أكن أتحدث إليك أصلاً.
- ومع كنت تتحدثين إذاً؟
- مع خطيبي.
- خطيبك؟ ولكني لم أرك تحملين هاتفاً، ولم أره أمامك.

ضحكت وقد عرفت ما لم أعرفه بعد.
ثم قالت لي بعد أن رفعت ساعتها:
- هذا هاتفي انظر.
- هذه الساعة؟
- نعم ألم ترها من قبل؟
دققت النظر بها وإذا هي فعلاً هاتف صغير كساعة يد تماماً، ويمكنك بشاشته أن ترى الشخص الآخر أمامك. كان ينظر إلينا فيما نحن ننظر إليه.
قلت لها:
- ولكن كيف كنت تسمعينه؟
فرفعت شعرها عن أذنها لأشاهد سماعة صغيرة تعمل لاسلكياً مع الساعة.
يا إلهي.. هذه أدوات رجال المخابرات.
- من أين لك كل هذه الأدوات؟
فردت علي قائلة:
- خطيبي يعمل بقسم التحقيقات السياسية.
- تحقيقات؟
تغير وجهي وقلت لها على الفور:
- أعتذر فقد حدث سوء فهم بيننا. هل تقبلين اعتذاري؟
قالت لي وقد لاحظت انزعاجي:
- لا تقلق. كل شيء على ما يرام.
وقفت وتوجهت لدفع الحساب، وأقسمت اليمين ألا أعود إلى ذلك المطعم أبداً.

الجاسوس

عندما هبت المظاهرات احتجاجاً على قيام أحد المستوطنين بإطلاق النار قرب قبة الصخرة المشرفة، كان أحد المتظاهرين الذين رفعوا العلم الفلسطيني على الرغم من أنه لم يكن من جيل الشبان الذين يقومون دائماً بهذه الأعمال. كان الحدث عنيفاً، هز الشارع الفلسطيني.

مستوطن يقتحم ساحة الحرم ويطلق النار. كيف دخل الحرم بالسلاح؟ ألم يره أحد؟ ألم يفتشه أحد؟ لا بد أنه دخل من الباب الذي يسيطر عليه أفراد الجيش الإسرائيلي الواقع في الجهة نفسها التي يقيمون فيها طقوسهم، والذي يسميه المسلمون باب المغاربة.

بعد يومين كان فريد معتقلاً لدى المخابرات الإسرائيلية. اتهموه بأنه يحرض على الإرهاب والكراهية، وأنه سبب جرح أحد الجنود.
- أنا؟
- نعم أنت. أنت قذفت حجراً باتجاه الجنود.
- أنا لم ألقِ حجراً على الجيش.
- بلى لدينا الشهود، ولدينا صورتك وأنت ترفع العلم الفلسطيني. انظر في هذه الصورة، هذا أنت.

لم يصدق فريد أن صورته لديهم، فلم يكن في المكان صحافيون. قال لهم:
- نحن تظاهرنا احتجاجاً على ما فعله المستوطن. لماذا سمحتم له بالدخول؟
- اخرس. هذا مواطن مختل عقلياً. نحن لم نسمح له بالدخول، ثم إن مهمة الأمن مهمتنا وليس مهمتك.

كانوا عدة أفراد من رجال المخابرات استغلوا كبر سنه وقلة معلوماته، فقد كان فريد في نهاية الأربعين من عمره ولديه خمسة أولاد وبنتان.
نظر مسؤولهم إليه جميعاً، ثم بدؤوا واحداً واحداً يهاجمونه بالأسئلة:
- إلى أي تنظيم تتبع؟
- أين تخبئ القنابل؟
- من دفعك لارتكاب الجريمة؟
- إنه مخرب، لدينا كل الإثباتات ضده.
- سيدخل السجن.
- سنحكمه عشر سنوات.
- سيظل أولاده دون أكل ويموتون دون أن يسأل عنهم أحد.
- ستفتش زوجته عن رجل آخر. هل ستنتظره عشر سنوات؟
- سيخرج عقيماً.
- لن يستطيع أن يعاشر امرأة.
- هذا إن خرج.
- الكلب سنلقنه درساً. أعطني القيود؟

فتح أحدهم دُرجاً وأخرج قيداً (كلبشات) قيده بها. جعل يديه إلى الخلف. تقدم آخر ووضع كيساً على رأسه فلم يعد يرى شيئاً، ثم بدؤوا يركلونه وقد سيطر عليه الخوف من كل الاتجاهات. لم يعد يعرف بماذا يفكر. من أين أتت عليه كل هذه المصائب؟
عشر سنوات سجن لأنه اشترك لأول مرة في مظاهرة؟!
- يا رب أين أنت؟ لقد تظاهرت احتجاجاً على اقتحام مسجدك من أحد المستوطنين وإطلاق النار. أهذا جزائي؟ لعن الله اليهود، وأعد لهم جهنم.
عشر سنوات. من سيطعم أولادي الخمسة وزوجتي؟

بدأ يحلف لهم الأيمان أنه بريء، وأنه اشترك في مسيرة فقط، وليس له علاقة بالإرهاب، فتدخل أحد المحققين وقال بصوت يبدو عليه الرحمة:
- يمكن أن نعطيك فرصة، إذا وافقت على شروطنا.
- ما شروطكم؟
- تشتغل معنا.
- جاسوس يعني؟
- لا.. لا تسميها جاسوسية.
- وماذا إذاً؟
- سنرسلك في مهمة بسيطة لتنفذها.
- وما هي؟
- ستذهب إلى نقابة العمال بصفتك عاملاً في مخبز وتسجل هناك كعضو، وتزور النقابة كل يوم تخبرنا عن النشاطات التي تقوم بها نقابة العمال وعن أية تحركات عمالية، سياسية هناك.
- وماذا بعد؟
- إذا سمعت أحد الناس يتحدث عن الإرهاب تبلغنا.

تردد فريد في الموافقة، فقال أحد رجال المخابرات لزملائه:
- هذا فريد لا يصلح لهذه المهمة، لنسجنه عشر سنوات، ونرسل غيره ليأتينا بالأخبار. كيف نعفو عنه مقابل خدمة تافهة؟! سيأكله الدود في السجن. سيموت أولاده جوعاً فيما الزعماء يعيشون في قصور.

حسم فريد أمره ووافق على طلبهم. عشر سنوات سجن ستكون كارثة عليه.

فك أحدهم قيوده، فيما رفع الثاني الكيس عن عينيه، فشعر كأنه عاد إلى الحياة من جديد.
بقي معه محققان وخرج الباقي.

سمح له بالجلوس على الكرسي. أحضر أحدهما له كأسا من عصير الليمون، فيما قدم له الآخر سيجارة، وقال:
- سيد فريد، لقد اخترت الطريق الصحيح، لا تترك التطرف يسيطر عليك، نحن مهمتنا الحفاظ على الأمن. سنفرج عنك الآن، وعليك تنفيذ ما طلبناه منك بدقة. ستتصل يومياً برقم هاتف سأعطيك إياه من أي هاتف عمومي وتتحدث معي، وتنقل لي الأخبار المطلوبة، وسأكلفك بالتوجيهات أولاً بأول.
صمت قليلاً، فقال الثاني:
- حتى لا يخدعنا عليه التوقيع الآن على ورقة بخط يده.
قدم ورقة فارغة وقلماً وأملى عليه أن يكتب:
أنا الموقع أدناه ..... حامل هوية رقم ..... أوافق على العمل لصالح المخابرات الإسرائيلية وسأنفذ التعليمات بدقة.
التاريخ: التوقيع:

قال له المحقق الأول:
- هذه الورقة إذا خالفت أوامرنا سننشرها للناس حتى يقتلوك.

أحس فريد أنه ورط نفسه، فإما التجسس وإما السجن عشر سنوات.
خرج مسرعاً إلى زوجته وأولاده، عانقهم جميعاً، وبكى فرحاً بعودته سالماً. كان يعتقد أنه لن يراهم أبداً.

كان فريد لا يتردد بنقل الأخبار أولاً بأول، فإذا سمع عن ندوة، أو محاضرة، أو احتفال نقل الخبر، وكان يحظى بتشجيع مسؤول المخابرات، فيما فريد يشعر أنه يغرق كل يوم في الوحل أكثر وأكثر. وكلما أراد أن يتوقف عن تقديم المعلومات هدّدوه بتلك الورقة التي وقع عليها فيتراجع، ويذعن للأوامر.

"ما أصعب الخيانة، وما أسهل الوقوع بها! إنها مثل إبرة (حقنة) المخدر، تشعر بالألم الناتج عن اختراق الإبرة للجلد، وما أن يستقر المخدر في جسمك حتى تفقد السيطرة على نفسك، تصبح ملكهم. يفعلون بك ما شاءوا.
لا أحد يملك رفع هذا السيف المسلط على رقبتك. أنت مجرد آلة تتحرك وهم يوجهونها. لماذا يا رب حصل هذا معي؟ أنا رجل مسكين، ما لي وللسياسة.

أخرجني أبي من المدرسة وعمري عشر سنوات. أكاد أعرف كتابة اسمي. أرسلني للعمل فراناً في أحد المخابز، ومنذ ذلك التاريخ وأنا فران، أعمل ليل نهار لإطعام أولادي."

بعد شهور، كان فريد يعرف جميع أعضاء النقابة وصديقاً لبعض النشطاء هناك. أحد الشباب المقربين منه كان يدعوه لزيارته في البيت ويحاوره في شؤون الحياة، وبعد أن ارتاح له صديقه الجديد جمال عرض عليه العمل في إحدى المنظمات الفلسطينية. تردد فريد في الموافقة، فكيف يعمل معهم وهو يتجسس عليهم؟

احتار في أمر صديقه جمال، فعلاقته معه جيدة. هل يخبر المخابرات بما عرضه عليه أم يتجاهل الأمر؟
بدأت الوساوس تهاجمه: "ماذا لو كانوا هم الذين أرسلوه، وعرفوا أنني لم أبلغ عنه، ستكون مصيبة."

حسم فريد تردده وأبلغ المخابرات بما عرضه عليه جمال، فطلبوا منه انتظارهم في مكان حددوه له، وهناك جاءت سيارة تحمل المحقق المسؤول (روني) الذي طلب منه الصعود إلى السيارة، وأخذه إلى مطعم في القدس الغربية، وطلب منه الموافقة على عرض جمال، ولكن عليه في البداية أن يتردد حتى لا يشك جمال بأمره.

وبالفعل نفذ فريد الأوامر بدقة، وبعد فترة كان عضواً بالتنظيم. وبعد اطلاعه على سياسة التنظيم وأهدافه وجد فريد نفسه في خلية حزبية مع أربعة من العمال الآخرين الذين كانت مهمتهم تنظيم العمال وتوعيتهم وإشراكهم في العمل السياسي ضد الاحتلال الإسرائيلي. كانوا يجتمعون أسبوعياً، يناقشون بعض الأمور وقرارات القيادة العليا، وجزءاً من برنامج التنظيم السياسي، ويوزعون المهمات على بعضهم.

كان المحقق روني سعيداً بإنجازات فريد، لقد أصبح يعرف ما يدور في داخل التنظيم، ولديه كافة المعلومات عن أية تحركات قريبة.

بعد سنة من الحادث أصبح فريد موضع ثقة أكبر لدى جمال، فطلب منه نقل رسائل سرية من التنظيم في فلسطين إلى القيادة في الأردن، فوافق فريد على ذلك، وتكررت زيارته إلى الأردن، فأعجب المسؤولون بالأردن من شجاعته، وبعد فترة بدأ فريد ينقل الرسائل بالاتجاهين، فقررت المخابرات هنا إنهاء مهمة جاسوسها، وفتح الرسائل التي يعود بها من عمان، وحتى لا تكشف أمره اعتقلته على جسر أريحا وهو في طريق عودته إلى القدس حاملاً معه كمية كبيرة من الرسائل في جوفه.

فريد في السجن. صعق جمال من الخبر، فهو بانتظار الرسائل التي يحملها.
(لا بد أنه سيتلفها الآن، لا لن يسمح لهم بالوصول إليها).

كانت المعلومات بالرسائل غنيمة لدى المخابرات، فاعتقلوا عدداً من المسؤولين ومنهم جمال إذ حولوه إلى الاعتقال الإداري. أما فريد فقد حكموا عليه بالسجن لمدة عامين حتى لا يكشفوا أمره وليتابعوا معه التجسس داخل السجن.

لكن جمال لم يصدق ما جرى، وبعد نقاش مع زملائه في التنظيم اقتنع أن فريداً كان جاسوساً عليهم.
(فريد جاسوس؟! كيف قَبِلَ أن يلطخ شرفه وسمعته؟ كيف سيواجه أولاده الوضع أمام زملائه الطلبة في المدارس؟ ابنه سعيد طالب بالثانوية وهذه سنته الأخيرة، إنه أحد نشطاء الطلبة الوطنيين. أما ابنته فهي في الصف العاشر، والأولى في المدرسة باستمرار. كيف ستواجه الخبر الآن؟ ليت الآباء يفكرون في مشاعر أبنائهم وهم يرتكبون جرائمهم).

أنكر فريد تهمة التجسس عندما حقق معه رفاق دربه في السجن، لكنه بعد أيام اعترف بما نسب إليه. وقدم تقريراً كاملاً عن كافة نشاطاته. عندما اعترف بكى بشدة، بكى بصدق، بحرارة. لأول مرة يشعر أنه يبكي بكل جوانحه.. لأول مرة يشعر بالخزي والعار.. لأول مرة يشعر أنه آن أوان التخلص من الإدمان الذي تعود عليه. كان كالسكران الذي يتمنى أن يصفعه أحدهم ليذهب أثر الخمر من رأسه، فيصحو من جديد.

نعم أنا خنتكم. تجسست عليكم. خدعوني، وبعد أن ورطوني لم أعد أستطيع المقاومة. فقدت القدرة على الرفض كنت كآلة في يدهم تتحرك حسب أوامرهم. هددوني بالسجن عشر سنوات. صدقتهم، فسلكت الطريق الذي يكره كل فلسطيني شريف أن يسير به.

أنا مجرم، سافل، افعلوا بي ما تشاؤون، لكن أرجوكم لا تظلموا أولادي، لا تقتلوا تلك الورود بأيديكم كما قتلتها أنا.

كان المسؤولون في التنظيم يدركون أن أولاده سيكونون ضحية أفعاله، وعندما انتشر خبر أنه كان جاسوساً، أصيب أولاده بصدمة، لم يصدقوا الخبر، لكنهم عندما زاروه آخر مرة قرؤوا في عيونه اعترافه. بكى أمامهم، وقال لهم:
- سامحوني. ليتني سجنت عشر سنوات على أن أضعكم في هذا الموقف. لقد أخطأت. سأكفر عن خطئي. لا تعاقبوني مرتين، افسحوا لي مجالاً للتوبة.

بعد الإفراج عنه، قرر فريد الانتقال للعيش في الأردن ليكون بعيداً عن مسرح الجريمة، فعلى الرغم من إعلانه التوبة لكن نظرة الناس إليه لم تتغير. ولأن أولاده سوف يواجهون في نظرات الناس لهم ألف عقاب كل يوم. وبعد عامين من انتقاله إلى لأردن، وعندما اطمأن أن ابنته تزوجت وابنه سعيد يعمل لدى إحدى الشركات وجدوه ميتاً في اليوم التالي.
- هل انتحر؟ هل انتهى أجله؟
لم يعرف أحد السبب.
قال سعيد لإخوته وأمه:

- بموته انتهت حقبة من حياتنا. ليرحمه الله على إساءته لشعبه ولنا. لقد قضى على وجودنا في فلسطين، ولطخ شرفنا بالعار.
فقالت أم سعيد وهي تبكي:
- لقد خدعوه يا بني. أبوك كان ضحية من ضحاياهم. كان في حاله طوال عمره، لم يؤذ أحداً، ولم يعتد على أحد، يحب كل الناس، يحبه كل جيرانه، وقع في مصيدتهم، خاف منهم، لم يستطع تحمل تهديداتهم فانهار. الله يرحمه ويسامحه ويغفر له.
فقال ابنها الثاني محمد:
- يجب أن نعود إلى القدس. نحن بوجودنا هنا نحقق أحلام اليهود. أبونا ضحية من ضحاياهم ونحن كذلك. إنهم فرحون بهجرتنا. الأردن وطننا الثاني، أحبه وأحب شعبه، ولكن مكاننا هناك في القدس.
فقال له أخوه:
- كيف سنعود وسمعة أبينا على لسان أقاربنا ومعارفنا وأصدقائنا؟
- سنغيرها.
- كيف؟
- الناس يجب أن لا يعاقبوا الأبناء بجريمة الآباء.
- ولكنهم لا يفعلون ذلك.
- فهل نستسلم لهم؟

من يحب لا يكذب

فوجئت سعاد اليوم برسالة جديدة في بريدها الإلكتروني يعرض عليها صاحبها التعارف.
- التعارف!! لكن من أين له بريدي الإلكتروني؟

سعاد طالبة مدرسة في السنة الأخيرة. لديها بريدان إلكترونيان أحدهما خاص لا يعرفه سوى المقربين والثاني عام لجميع من هب ودب، وهذه الرسالة وصلتها إلى بريدها الخاص، فكيف استطاع ذلك الشاب اقتحام عالمها الخاص والوصول إليها؟
آه من هؤلاء الشباب! يتفننون في اصطياد عناوين البنات كأنها مباراة بينهم أيهم الأسبق.
قرأت سعاد رسالته مرة أخرى وقررت إلغائها، فليس لديها الوقت للتعارف على شاب لم تره بعد.

بعد أسبوع وصلتها رسالة أخرى منه. يبدو أنه شاب لا يمل. يؤمن بنظرية المحاولات. هذه المرة أرسل لها صورته ومعلومات وافية عنه. اسمه أشرف الصياد، طالب جامعي سنة أولى في جامعة القاهرة، كلية الهندسة.....
حقاً إنه شاب وسيم، يبدو من صورة وجهه بأنه مرح. ترددت في حذف رسالته، فصورته جذابة، كذلك كلماته. يبدو أنه مهندس كلمات لا مهندس عمارات. قال لها:
"أعتذر أنني أقتحم عليك خلوتك ومحرابك. أعرف أنني تجاوزت حدودي، لكني لا أقتحم عليك خلوتك لأفسدها، وإنما لأقدم لك فيها باقة ورد تزيد بستانك رونقاً وبهاء، ثم أنسحب بهدوء مكتفياً بمحاولتك استنشاق الورود التي سأتركها لك، فباستنشاقها إنما تعيدين إلي الحياة لأنني قطفتها لك من حديقة قلبي الصغير".

يبدو أنه لطيف! لكن كيف يرسل لي كل هذه الكلمات وهو لم يعرفني؟! أتراه يتسلى بي كعادة كثير من الشبان الذين يحلفون الأيمان لكل فتاة أنهم يعشقونها ويذوبون في هواها؟
ابتسمت وتابعت تساؤلاتها وهي تعيد قراءة رسالته.

على الرغم من كل ذلك، فالفتاة تحب سماع كلمات جميلة. إنها خمرتها التي تسكرها. الكلمات الرقيقة تسحر الفتاة، تدغدغ مشاعرها. إنها الخطوة الأولى نحو قلبها... كلمات لا تحملها ولا تضجر منها، بل تغفو على سماعها. ما أجمل أن يتغزل العشاق بعشيقاتهن! هل تكره الفتاة أن يتغزل بها أكثر من شخص؟! نعم.. تحب أن تكون مثار إعجاب الجميع. إن هذا الإعجاب والجري خلفها يشعرها بأنوثتها، بجمالها، إنه يرضى غرورها.

بعد لحظة تأملٍ قررت سعاد الرد عليه برسالة قصيرة:
"شكراً لك على رسالتك اللطيفة. لكن كيف عرفت اسمي وبريدي يا أشرف؟"
ورد عليها في اليوم التالي:
"عزيزتي سعاد..
لم أتوقع الرد على رسائلي إليك، فكل ما كنت أطمعه أن تقرئيها، لأن قراءتك لها تثير لدي الشعور بالأمل والحنين. لقد اكتفيت من العقد بما يوضع حول العنق، أما وأنك أتحفتني بالرد عليها، فهذا وسام شرف لي لكأنني اليوم أصبحت أشرفين لا أشرف واحداً."

أعجبتها رسالته. لم تصدق أنه طالب في سنته الجامعية الأولى. من يدري لعله أستاذ فيها.
أذهب وأسأل عنه هناك؟ أم ألتقي به لأكشف عنه القناع؟

منذ تلك الرسالة استمرت في مراسلته، لكن دون أن تعطيه رقم هاتفها، أو تمنحه الأمل باللقاء. كان يرسل لها قصائده الشعرية واصفاً حبه لها. إنه يعرفها. يراها من بعيد. معجب بها. يتمنى لو توافق أن تكون زوجة له. لقد عثر على بريدها بطريقة عفوية لم يتوقعها، فقد كانت قد تركت عنوانها الخاص في أحد المنتديات التي كتبت فيها تعليقاً على نص أدبي قرأه، وها هو يعرض عليها أن يلتقي بها.
هل آن أوان اللقاء؟ لمَ لا؟ لا بد أنه شاب رائع. من يدري ربما يكون فارس أحلامي.
سألته:
- أين سنلتقي؟
بعد تفكير رد عليها:
- في "جروبي" الأربعاء القادم، الساعة الثانية بعد الظهر.

وصلت سعاد جروبي قبل الوقت بربع ساعة. جلست تحمل معها صورته التي طبعتها على ورقة عن الحاسوب. كانت تراقب الشباب الداخلين إلى المحل وتقارن بينهم وبين الصورة. حان الوقت المحدد للقاء ولم يظهر أشرف.
اللهم اجعله خيراً.

اقترب منها رجل يبدو أنه في الثلاثين من عمره، ضخم الجثة، كرشه يتدلى أمامه كعلاء ولي الدين، يحمل معه جريده الأهرام. ابتسم لها وقال:
- مساء الخير آنسه سعاد.
فوجئت به، وسألته:
- أهلاً بك. من أنت؟
- أنا أشرف.
تغير وجهها، قطبت حاجبيها، ثم سألته:
- أشرف الصياد؟
- نعم، أنا بذاته، صورتي لديك قديمة بعض الشيء.
نظرت إلى الصورة، لم تر شيئا فيها يشبهه. أتراه كان يستعير صوراً من الشبكة؟!
جلس مقابلها، وقطع عليها حبل تفكيرها.
- آنسة سعاد.. اسمحي لي أن أشرح لك الموقف. أعترف أنني أرسلت لك صورة أخي الصغير فقط لكي أحظى بفرصة لقائك. أنا متأكد أنك لا تهتمين بالشكل فقط لكن بالجوهر...
قاطعته:
- ترسل لي صورة أخيك على أنها أنت؟ وهل كان أحد يكتب لك رسائلك؟
- كلا أقسم إنها كلماتي وأشعاري. أنا شاعر أنشر قصائدي في مواقع كثيرة على الشبكة. اذهبي إلى موقع....
- ما الذي جعلك ترسل صورة غير صورتك؟
احمر وجهه خجلاً، وتمنى لو انشقت الأرض وبلعته. قال:
- لأن شكلي ضخم. الفتيات يهربن مني. أقسم أنني سأعمل على تخفيض وزني.
صمت ثم تابع:
- جئت لأعترف لك بحبي، فلا تحرميني من تلك الفرصة.
- أتحبني فعلاً؟
- نعم، وازداد حباً لك الآن.
- ولم كذبت علي؟
- قصدي شريف...
قاطعته:
- أنت أشرف، وليس شريف.
وقفت، ثم حملت حقيبتها بعد أن تركت صورته على الطاولة وخرجت من المكان.
لحق بها وهو يقول لها:
- سعاد.. أعطيني فرصه أرجوك.
سعاد تشير بيدها إلى تاكسي قريب.

- تكسي...
تفتح الباب الخلفي وتجلس عليه، بينما هو يرجوها أن تعطيه فرصة ليشرح لها.
- سعاد أرجوك، دعيني أصحح غلطي.
قالت له قبل أن تغلق الباب:
- من يحب لا يكذب يا أشرف.

انطلق التاكسي تاركاً أشرف وحده يلعن تلك الفكرة الجهنمية التي عششت في رأسه.
اللعنة.. اللعنة عليّ. لقد انقلب كل شيء على رأسي. يا لهذه الفكرة الفاشلة! لماذا أرسلت لها صورة أخي؟ لكن هل كانت وافقت على لقائي لو أرسلت لها صورتي بهذا الكرش الذي يقف أمامي كالحامل في شهرها التاسع؟ من التي ستقبل بي؟ كل ما أكتبه من أشعار ومقالات أدبية لا يغير من نظراتهن إلي.
سار أشرف في أحد الشوارع لا يعرف إلى أين. كان سارحاً يفكر في مصيبته.
لقد انهار حلمي الأخير. بنيته على أوهام. أستحق ما حصل لي. علي الاقتناع بقدري والقبول بمصيري...
بينما كان سارحاً، يقلب الأفكار في رأسه، اقتربت منه شابة يبدو أنها في منتصف العشرينيات من عمرها وسألته:
- ألست الشاعر أشرف الصياد؟
استيقظ من سرحانه. نظر إليها. تساءل قبل أن يجيبها (هل تسألني أنا؟). رد عليها:
- أنا بذاته، أشرف الصياد، هل تعرفينني؟
- تشرفنا يا أشرف. أنا نادية، نادية شومان. لقد قرأت لك الكثير من القصائد على الشبكة العنكبوتية، ولم تسمح الظروف أن أعلق عليها. هل تسمح لي ببعض وقتك لأطلعك على محاولاتي الأدبية؟

فوجئ بها. نسي كل ما حصل مع سعاد. صمت قليلاً، فلم يتوقع أن يوقفه أحد في الشارع ليعرف رأيه. شعر ببعض الاعتزاز، من أين جاءته ناديه؟! لكأن الله أرسلها لكي تواسيه بمصيبته.
ابتسم بأدب وقد استعاد رباطة جأشه بعد أن انفرجت أساريره:
- يشرفني ذلك يا نادية.
- ومتى تحب أن نلتقي؟
- لدي بعض الوقت الآن، ما رأيك بجروبي؟

وافقت نادية على الفور، فكل طموحها أن يستمع إليها أحد ويشجعها، ويقدم لها التوجيه المناسب، وأشرف الصياد يحظى برضاها، فهو شاعر صاعد، أشعاره تحظى برضا النقاد. ليس مشهوراً كأحمد عبد المعطي حجازي، أو حلمي سالم، أو محمود درويش، لكنه في الطريق إلى القمة.

سار أشرف مع نادية إلى جروبي. لماذا جروبي بعد الذي حصل؟ لا بد من استعادة بعض كرامته، فالجرسون الذي لاحظ كيف تركته سعاد وغادرت المحل وقف باهتاً عندما رآه يدخل المحل بعد فتره قصيرة مع امرأة أخرى. هز النادل رأسه حاسداً أشرف على حظه، لكأنه صياد فعلاً، صياد نساء.

طلب كل منهما كأس عصير برتقال، قدمت له نماذج من أشعارها، قرأها. أعجب بها. قدّم لها رأيه بصراحة. لم يكذب. أعجبت بصراحته ورأيه. قرأت له بصوت خافت إحدى قصائدها. أسكره صوتها. تبادلا وجهات النظر في الشعر والأدب. بعد فتره تركا الشعر جانباً. تناقشا في أمور الحياة، العمل. تبادلا البسمات والضحكات كأنهما يعرفان بعضهما بعضاً منذ سنين. تواعدا للقاء آخر قريب، وقبل أن يودعها حرص على تبادل البريد الإلكتروني معها وأرقام الهاتف، ووعدها بمفاجأة في اللقاء القادم.

تركته نادية وهو سعيدة لهذا للقاء الجميل، كانت تتساءل طوال الطريق إلى البيت: ماذا ستكون المفاجأة؟ أتكون قصيده شعر يهديها إلي؟ ليته يفعل، سأكون في قمة السعادة.

أما هو فقد كان يشعر بالراحة لنهاية مأساته الأولى. شعر بتأنيب الضمير، فقد أنسته نادية كل جرح وأعادته إلى صوابه. لكن كلمات سعاد ما زالت ترن في أذنه. لقد علمته درساً في الحب.
"من يحب لا يكذب يا أشرف."

صديقي الذي اختفى

لم تسعفني تطورات التكنولوجيا الحديثة، ولا ثورة المعلومات، وسرعة الشبكة العنكبوتية في معرفة مصير صديقي العزيز الذي يسكن في الدنمارك، واختفى فجأة دون سابق إنذار.

كتبت له أكثر من رسالة إلكترونية أستفسر فيها عن أخباره كعادتي، وأطمئن عليه خصوصاً وأنني أعيش بعيداً عنه في الولايات المتحدة، ولا ألتقي به إلا في المناسبات ربما مرة كل سنوات طويلة، لكنه لم يرد على رسائلي، هل بدأ يهمل رسائلي؟ أم أنه مشغول في أمر ما؟ أتراه يعد لرواية أم جاءه الإلهام الشعري لإبداع ملحمة تشبه ملحمة (هوميروس)؟

لم أصل إلى جواب لكل تساؤلاتي، فحاولت مراقبة دخوله إلى الشبكة العنكبوتية من خلال الماسنجر وبرنامج سكايبي الذي يجمعني به، لكنه لم يظهر بتاتاً.

قلت لنفسي: لعل رسائلي لا تظهر أمامه وترسل إلى (المهملات) لخلل في بريده، فقمت بإنشاء بريد إلكتروني جديد وراسلته من خلاله، لكن النتيجة واحدة، ولم أستلم أي رد على رسائلي.

لا.. لا، لن أصبر أكثر من ذلك. لماذا كل هذه الحيرة أصلاً؟ أخيراً قررت الاتصال به هاتفياً. هيأت نفسي لمكالمة طويلة، مليئة بالعتاب، بل بالتوبيخ. توبيخ؟! ربما لديه أسبابه التي لم أسمعها بعد. لا أعرف ماذا سأقول له، لكني على الأقل سأفش خلقي به وكفى.

اتصلت على هاتف بيته فلم يرد. ظل جرس الهاتف يرن عدة مرات، ثم فوجئت برسالة آلية بالدنماركية لم أفهم محتوياتها اعتقدت أنها تطلب مني أن أترك رسالة صوتية، لكن الصوت انقطع فور انتهاء التسجيل.

كررت المحاولة والنتيجة نفسها. بحثت في دفاتري القديمة عن رقم آخر له، فوجدت رقم هاتفه الخلوي الذي كنت من النادر ما أتصل به عليه، فقد منحتنا الشبكة العنكبوتية وبرامج الهاتف الشبكية مثل سكايبي فرصة الاتصال المجاني عبر الهاتف الأرضي. اتصلت على هاتفه الخلوي، فردت علي على الفور آلة التسجيل. يبدو أنها إشارة بأن الخط مقطوع. إذاً الخط مقطوع. صديقي لا يرد على رسائلي الإلكترونية. ما الحل؟

هل أصابه مكروه؟ أين اختفى؟!
لم يبق أمامي سوى السفر إلى الدنمارك، لكن إلى أين؟
لا أعرف له عنواناً، فثورة المعلومات عبر الشبكة أضاعت العناوين البريدية لأنها أحلت العناوين الإلكترونية محلها، والتي ما أسرع أن تتغير. بحثت في كل عناويني عن أحد المعارف في الدنمارك يعرف صديقي المذكور فلم أوفق. ترى أين ذهبت زوجته وأولاده؟ ما حالهم؟

لا بد أنه أصيب بمكروه، نعم ربما... لا أريد أن أقولها... لا.. لا يمكن، فهو لا يزال في متوسط عمر الإنسان.
آه لو أعرف السبب الذي جعله ينقطع عن مراسلتي.

عجزت عن الوصول إلى حل، فاستسلمت ولو مؤقتاً إلى قدري، وقلت لا بد أن يفتقدني كعادته ويتصل بي.

شهور مرت، لم أسمع عنه شيئاً. هل أسأت له بشيء فقرر مقاطعتي؟! أخيراً خطرت على بالي فكرة أن أبحث خلال الشبكة عن مقالاته لعل عنواناً جديداً له منشوراً مع إحدى تلك المقالات.

استعنت بآلات بحث كثيرة من جوجل إلى ياهو، إلى مايكروسوفت إلى...، وحصلت على روابط لمنشوراته في مواقع كثيرة على الشبكة. راجعت كل هذه المقالات فلم أجد نصاً جديداً، كلها مقالات قديمة تحمل عنوانه نفسه المسجل لدي. إذاً ما الذي حصل؟!

جلست وحيداً في أحد الأيام أستعرض صوره أمامي. كانت بسمته لا تفارقه إحدى الصور جمعتني به ومع الصديق الدكتور جورج قندلفت المشرف التقني في ديوان العرب والصديق الصحفي أشرف شهاب نائب رئيس تحرير ديوان العرب في القاهرة.
آخ لو كنا في بلد واحد لكنت أستطيع البحث عنه، لكنها الغربة، إنه المنفى، بل المنافي التي تشتتنا بها وأصبحنا فيها غرباء، نستعين بأجهزة إرسال تكنولوجية لتبحث عنا. ما أصعب أن تعيش في المنفى! كل صديق لك أو قريب في بلد بعيد عنك، وربما في قارة أخرى، كل أصدقائي الذين يعرفونه أكدوا لي أنهم لم يستلموا منه أية رسالة خلال شهور طويلة.

هل فقدت الأمل؟! الآن فقط أشعر بأبناء شعبنا الذين فقدوا أولادهم خلال نكبة (1948)، أو حرب حزيران العام (١٩٦٧)، وما زالوا يبحثون عنهم لأنهم لم يعثروا على أي أثر لهم. كأن القدر قد كتب لي أن أخسر صديقاً أحببته كما خسرت أصدقاء الدراسة حيث فرقتنا الأيام، ولم أعد أعرف عنواناً لأي منهم.

بعد أكثر من عام كامل اتصلت بي مديرة تحرير ديوان العرب تخبرني أن صديقي الذي أبحث عنه أرسل قصيدة شعر للنشر في موقع ديوان العرب.

- معقول؟
- نعم معقول.

وحولت لي رسالته، فأرسلت له رسالة سريعاً مستفسراً عن أحواله وسبب انقطاعه الطويل، فرد علي معتذراً بأنه عاد إلى لبنان وانقطع عن الشبكة العنكبوتية لفترة طويلة لأنه كان مريضاً.
سلامتك يا صديقي ألف سلامة. ألم تجد ولو فرصة واحدة تطمئننا عن أخبارك؟ ألم تفتقدنا؟!
اعتذر صديقي عن تقصيره، لكن هل يكفي اعتذاره بعد كل ما سببه لي من قلق؟
اتصلت بصديقي جورج وأخبرته أن صديقنا المفقود عاد من جديد.
- الحمد لله على السلامة، أين كان؟
فأخبرته بما علمت.
فرح صديقي للخبر، لكنه قال لي مازحاً:
- كيف يجد وقتاً لكتابة قصيدة وإرسالها للنشر قبل أن يفكر بالاتصال بنا بعد هذا الانقطاع الطويل؟ أتمنى أن أراه ولو مرة واحدة.
- وماذا ستفعل؟ (قلت له ضاحكاً).
- سأهجم عليه وأضربه عدة لكمات.
- ولماذا؟
- حتى يعلم أن لأصدقائه عليه حقاً، وأن قلقنا عليه كان أكبر من المرض الذي ألم به.

الأرض وما عليها

بعد غياب طويل عدت إلى أرض الوطن لزيارة الأهل والأقارب. عشرون سنة مرت منذ زيارتي الأخيرة لرام الله. كنت كلما عزمت على الزيارة تراجعت بسبب الأحداث التي تمر بها بلادنا. بعد وصولي بأيام حيث استقبلني الأقارب بحفاوة بالغة ركبت سيارة الأجرة التي استأجرتها خلال إقامتي القصيرة، وخرجت أتابع التغييرات التي حصلت في شوارع الوطن.

تغير كل شيء فيها. عشرون سنة قلبت كل شيء رأساً على عقب. ارتفعت البنايات الضخمة، وازدادت الشوارع ازدحاماً، ولأول مرة صرت أشاهد رجال أمن فلسطينيين يجولون الشوارع. شعرت بالسعادة على الرغم من معرفتي أنهم لا يستطيعون منع دورية إسرائيلية من دخول المدينة بسبب الاتفاقات السياسية التي وقعها قادتهم.

بعد تجوالي الطويل في كل شوارع رام الله ومناطقها، قررت زيارة منطقة تل الهوى لأتفقد أرضي هناك، تلك الأرض التي ورثتها عن والدي (رحمه الله) الذي توفي منذ خمسينيات القرن العشرين دون أن يخلف أحداً سواي.

عندما وصلت تل الهوى، فوجئت بالتغييرات التي حصلت هناك، فبعدما كانت تضم عدداً متناثراً من البيوت، أصبحت تشكل مدينة صغيرة، بشوارع تصل إلى كل بقعة في المنطقة. لم أميز أين قطعة الأرض التي أملكها، فالبنايات الكثيرة غيرت معالم المنطقة.

سرت بسيارتي من شارع إلى شارع، وسألت بعض المارة حتى اهتديت إلى مكانها. وقفت أمامها مبهوتاً، هل هذه أرضي؟ أم أني أخطأت العنوان؟ ما الذي حصل؟ ما هذه البناية التي ترتفع عليها؟

قلت لنفسي: لعل أحد أقاربي استغل غيابي وبنى عليها بناية يسكن فيها، لكنها بناية كبيرة، أربعة طوابق لم يكتمل بناؤها بعد. اقتربت من أحد العمال هناك وسألته:
- لمن هذه العمارة لو سمحت؟
فقال لي:
- هذه ملك سمير...
- سمير...؟ من يكون؟
- إنه أحد التجار.

تركت العامل، وركبت السيارة، وعدت إلى البيت لأجمع بعض أقاربي وأخبرهم بما رأيت.
سألني أحدهم مستغرباً:
- هل أنت متأكد؟ مستحيل؟ كيف يمكن لأحد أن يبني عمارة على أرضك؟
قال آخر:
- لا بد أنك لم تتعرف على الأرض بعد التغييرات التي طرأت على رام الله.
سألتهم:
- منذ متى زرتم الأرض آخر مرة؟
سكتوا جميعاً. قال أحدهم:
- في الحقيقة نحن لا نزورها بشكل متواصل لأنها قطعة أرض لا تنقل ولا تسرق.
- هل تذكر آخر مرة زرتها؟
- منذ سنة تقريباً، كنت أمر من المنطقة.
- حسناً.. ما رأيكم أن تأتوا معي الآن؟

ذهبنا جميعاً، وعندما وصلنا إلى المكان، بهتوا جميعاً وتساءلوا:
- ما الذي يحدث هنا؟
قال أحدهم:
- سنجمع الشباب ونهاجم الذي يدعى ملكيتها، سنكسر رأسه.
قال آخر:
- سنقتله. سنشرب من دمه.
كثر الحديث دون فائدة. قلت لهم بهدوء:
- حسناً.. كل هذا ممكن ومشكورون عليه، لكن نريد ضمان ملكية الأرض بشكل قانوني حتى لا تضيع حقوقنا.

هذه الأرض من رحمة والدي لن أبيعها بكل نقود الدنيا. وكنت أفكر بالعودة إلى أرض الوطن لأبني عليها بيتاً حديثاً أعيش فيه مع أولادي.

قال أحد أقاربي:
- لدي صديق مسؤول في السلطة، دعنا نزوره ونعرض عليه الأمر.
لم أتردد في الموافقة، وبالفعل حددنا موعداً مع المسؤول، وشرحنا له القصة، فاستغرب ما سمع، لكنه أكد أن لا حق يضيع، وطالبنا بتحضير كل أوراق ملكية الأرض، لكنه ذكرنا في نهاية اللقاء معه أن علينا إكرامه ودفع أتعابه.

توجهت في اليوم التالي وجمعت كل الأوراق والمستندات والشهود التي تثبت ملكيتي لقطعة الأرض، فيما استدعى مسؤول الأمن السيد سمير الذي قدم له كل الأوراق الرسمية والقانونية التي تثبت أنه اشترى قطعة الأرض من رجل يدعى سميح من القدس بمبلغ مائتي ألف دولار.
حوّل المسؤول القضية إلى المحكمة لتبت في الموضوع، واستدعى السيد سميح الذي ادعى أنه اشتراها مني مع أنني لم أعرف ذلك الرجل، ولم ألتق به في حياتي، كما أنني لم أزر فلسطين منذ اندلاع الانتفاضة الأولى العام (1987).

قدمت كل أوراقي صحيحة لا يشوبها أي غبار، فحكم القاضي بعودة الأرض إلى مالكها الأصلي، أي لي، ولم يعترف بادعاءات الخصوم، وأجبر سميح على إعادة المبلغ إلى السيد سمير، وحكم عليه القاضي بالسجن ستة أشهر، لكنه هرب من رام الله، ولم يعد إليها، واستغل سيطرة إسرائيل على القدس، وعدم قدرة السلطة على الوصول إليها حسب اتفاقات أوسلو.

ثارت ثائرة سمير، فمبلغ (٢٠٠) ألف دولار يعرف كيف يستردها من سميح بالقوة، لكن ماذا عن عمارته التي بناها؟

بدأ سمير يطالبني أن أعوضه عن البناية التي بناها على أرضي، لكنني رفضت ذلك لأنني لم أطلب من أحد البناء على أرضي، فقررنا الاحتكام إلى القاضي من جديد الذي قال قولته المشهورة لهم:
- الأرض وما عليها وما تحتها ملك صاحبها.

قصة من الخيال العلمي

ثورة الفضاء

حزيران ٢١٤٩

كان حسن عبد السلام يجلس في بيته مع زوجته يشاهد التفاز عندما قرر التنقل من قناة إلى أخرى باحثاً عن برنامج يعجبه. فجأة توقف أمام إحدى القنوات التي كانت تعرض حواراً تلفازيا مع أحد علماء الفضاء الجدد الذي أذهل العالم باختراع جديد أحدث ثورة علمية تشبه ثورة الحاسوب في نهاية القرن العشرين.

كان العالم أحمد النبيل يشرح كيف يعمل اختراعه الجديد الذي نجح مع زملاء له في المهنة في استعادة الأصوات من الماضي، وكان المذيع يثير العالِم بأسئلته، ويطالب الجمهور الاتصال للاستفسار من العالم أحمد فيما يخص الاختراع الجديد.

- المذيع: سيدي أحمد.. أنت تدعي أنك تستطيع استعادة الأصوات التي مر زمن عليها، هل هذا سحر؟ كيف يمكنك استعادة حديث مر عليه مائة سنة مثلاً؟ وكيف تثبت أنه حديث فلان مع فلان؟

ابتسم العالم الذي بدا عليه الكبر. كان يلبس نظارة طبية، أصلع إلا من شعرات بيضاء حول رأسه من الجانبين والخلف. قال للمذيع:
- المسألة بسيطة، ولا تحتاج إلى تعقيد. لقد أثبتنا بالتجارب الملموسة، أن الأصوات التي تخرج من أفواهنا أو أصوات الحيوانات أو أية أصوات كالموسيقى... إلخ عبارة عن موجات كهرومغناطيسية تتحرك في الجو

في شكل دائري بيضاوي، وتظل تبتعد حتى تصل إلى مقرها النهائي في الغلاف الجوي الذي يحيط بالأرض وتمنع الجاذبية من ابتعاده عن تأثيرها، بمعنى أنها تظل مرتبطة بالكوكب الذي نعيش عليه.
- كأنك تقول إن الغلاف الجوي الأرضي يعمل مثل شريط تسجيل لكل ما في الأرض؟
- تماماً، لكنه شريط إلكتروني غير ملموس باليد. دعني أشبهه بالهواء، أو الماء، يمكنك نقله من مكان إلى آخر.
- جميل جداً.. جميل جداً. كيف استطعتم استعادة تلك الأصوات؟
- لقد اخترعنا جهازاً يشبه الحاسوب، قمنا بإجراء تجارب عديدة لإثبات قدرته على التقاط تلك الموجات، وبعد تجارب كثيرة توصلنا إلى طريقة يمكننا خلالها استعادة الأصوات من الماضي.
- هل باستطاعتنا الاستماع إلى أصوات أجدادنا قبل ألف سنة؟
- نعم، ولكن...
- وضّح ولكن هذه؟
- الأصوات القديمة لا نستطيع تحديد هويتها أو أسماء أصحابها، هذه مهمة المؤرخين وليس العلماء. نحن نستطيع استعادة الصوت، تحديد مكانه على الخريطة، وزمنه حسب التقويم الشمسي.
- هل يمكن إذاً سماع أصوات الصحابة؟
- بكل تأكيد، وربما من خلال الحوار نكتشف أسماءهم.
- إنه اكتشاف رائع سيعيد كتابة التاريخ، لكن هل هناك نسبة ولو واحد بالمائة خطأ.
- حتى الآن لا، ولا نعتقد ذلك.

نظر حسن إلى زوجته وقال لها:
- ما هذه الخرافات التي يقولها هذا الرجل؟ يبدو أنه مجنون.
فقالت له زوجته:
- لماذا مجنون؟ ألم تسمع عن اختراعه العظيم؟
- إن هذا تدخل في شؤون الخالق.
- إن كان الله لا يريدهم اكتشاف ذلك سيعطل اختراعهم بالتأكيد، ولكنهم نجحوا.
هز رأسه ثم انتقل إلى محطة أخرى قائلاً:
- لا أصدق كلامه، يبدو أنه خرفان.
نظرت إليه مبتسمة وقالت:
- حسن؟
- ماذا تريدين.. قولي؟
- هل تعتقد أن باستطاعة هؤلاء العلماء استعادة أصواتنا بالليل؟
- ماذا تقصدين؟
- ألم تفهم بعد؟

ضحك، ثم قال لها:
- تعتقدين أنه يمكن استعادة أصواتنا في غرفة النوم أثناء...
لم يخطر على بالي، لكن لا أعتقد أنه سيضيع وقته بذلك.
- لماذا؟ الناس يحبون التجسس على كل ما هو ممنوع وسري.
- ألم أقل لك إنه تدخل في شؤون الخالق؟ هذا عالم كافر يجب قتله وإراحة الناس من اكتشافه الجديد.
هزت رأسها وقالت:
- ليتني أملك هذا الجهاز يوماً واحداً.
- وماذا ستفعلين يا ترى؟
- أريد الاستماع إلى حديث جارتنا التي لا ينقطع عنها الزوار الرجال ليل نهار.
- آخ من أفكارك.
صمتت وقالت لنفسها:
- وكي أستعيد صوتك قبل يومين عندما عدت لي قبل الفجر بقليل.

كان الاختراع العلمي الجديد مثار جدل في الشارع والعالم، فكل إنسان يناقشه من منظاره، ماذا يستفيد منه، وماذا يتضرر، رجال القانون، القضاة، المحققون، المؤرخون، العلماء، العشاق، الأزواج، كلهم يناقشون الاختراع الجديد. الصحافة تكتب عنه كل يوم.

قال المحقق سليم، للمدعي العام رأفت:
- إنه اختراع مذهل سيساعدنا في كشف الكثير من الجرائم.
- كيف؟
- باستعادة أصوات المجرمين سنكشف عن خططهم ومؤامراتهم.
- كيف سنثبت للمحكمة أن الصوت هو صوت المتهم فلان؟
- بمقارنه الأصوات بتحديد المكان، والزمان، مثل الـ (دي إن إي).
- لكن الـ (دي إن إي)، يستند إلى أشياء ملموسة بعد العثور عليها في مكان الجريمة وليس في مكان آخر.
- لا بد أن للعلماء إثباتات علمية تؤكد علاقة الصوت بالشخص.
- لا تنس أن البرلمان عندنا لم يقر الاختراع الجديد كمستند قانوني. المسألة تحتاج لقرار مجلس الشعب، السلطة التشريعية.
- لماذا إذاً لا نثيرها في أروقة المجلس.
- إنهم حسب علمي يتجادلون حولها، لكنهم خائفون.
- مم؟
- من استغلال الاختراع الجديد في التجسس على أسرار البيوت الخاصة.
- لكنا لا نتحدث عن اختراق أسرار الناس.

- أنت صادق، لكن إذا انتشر الاختراع الجديد بالعالم من يضمن أنه لن يساء استخدامه؟
- وهل يفكرون في منعه؟
- لا أدري، لكن بعضهم يقترح عدم السماح بانتشاره ولا حتى في قضايا الجرائم؟ إذا منعوه سيمنعوه عن الجميع.
- هذا قمة التخلف.
- لننتظر لنرى نتائج المشاورات.

كان المحقق سليم يصغي بانتباه إلى العالم أحمد في بيته حول اختراعه الجديد، وإمكانية الاستفادة منه لخدمة العدالة. قال له العالم:
- الاختراع الجديد علمي في الدرجة الأولى وعلى الهيئات الرسمية أن ترى كيف يمكن استغلاله لخدمة البشرية، نحن في الحقيقة معنيون أن يساعد الاختراع الجديد إلى الكشف عن سلاسل مفقودة في التاريخ القديم.
قال له المحقق سليم:
- أجزم أنه سيقلب الكثير من النظريات رأساً على عقب. إنه ثورة في عالم التكنولوجيا الفضائية. لو حصل حوار بين شخصين، مثلاً بيننا الآن، هل يمكن لنا استعادة ذلك الحوار بعد شهر مثلاً وتحديد أشخاصه؟
- نستطيع استعادة الحوار كما تم في المكان المحدد والزمان، لكن ليس لدينا ما يثبت صاحب هذا الصوت أو ذاك إلا بطريقتين.
- وهُما.
- أولاً أن نكون عارفين سلفاً أن فلاناً كان في تلك الفترة هناك، وثانياً مقارنة الأصوات، وأنا لا أتحدث عن المقارنة السمعية ولكن المقارنة التكنولوجية من خلال تشريح الأصوات وتحويلها إلى موجات كهرومغناطيسية. لقد أثبتنا خلال البحث أن كل صوت له موجة مختلفة عن الآخر تماماً مثل بصمات الأصابع.
- الله أكبر... عظيم. أفهم من كلامك أنه لو تشابهت الأصوات أصبح ممكناً تشريحها؟
- تماماً، فلو حللنا صوتك مثلاً وقارناه بصوت استعدناه قبل عشرين سنة سنعرف إن كان هو أم لا.
- إذاً الصوت يكفي لتحديد الشخص؟
- إذا كان حياً ويمكن تشخيص صوته، ولكن ماذا لو كان ميتاً، ولا تسجيل صوتي لديه، ماذا لو استعدنا صوتا لشخصية عاشت قبل ألف سنة؟
- ماذا ستفعلون؟
- هذه مهمة علماء التاريخ، وليست مهمتنا، ويجب الانتباه أن هذا الاختراع سيكون غالي الثمن، وليس باستطاعة فرد واحد أن يمتلكه.
نظر سليم إلى ساعته وقال للعالم أحمد:
- الساعة السادسة، لدي موعد مهم، سنتابع الحوار.

فيما كان مجلس الشعب يشهد حوارات جانبية بين أعضائه حول الاختراع الجديد الذي أذهل الجميع، نقلت الفضائيات خبراً بلبل العالم.

مقتل العالم أحمد خنقاً في بيته.

قوات الأمن تحقق في الحادث، وتفرض حصاراً على بيته، وتمنع الصحافة من الاقتراب من مكان الحادث. الرئيس ينتقل بطائرة خاصة إلى مكان الحادث وينعى إلى الشعب والعالم العالم الجليل الذي أحدث اختراعه ثورة علمية ستغير وجه التاريخ البشري.

أشار المذيع في قناة الأخبار أن تعتيماً إعلامياً قد خيم على سير التحقيق حول مقتل العالم، وأن الحكومة منعت المواطنين من السفر إلى خارج البلاد لمدة أسبوع، وقد رفض مدير الشرطة التعقيب على الحادث.

قال حسن لزوجته، وهو يستمع للأخبار:
- أرأيت؟ لقد مات هذا الأهبل. إنه عقاب من رب العالمين لأنه تعدى على الذات الإلهية وتدخّل فيما لا يعنيه.
- أسفي عليه.
- كأنه أخوك؟
- إنه عالِم، لن تفهم ماذا يعني العالِم يا زوجي.
- اسم الله عليك، أنا متزوج عالمة تكنولوجيا دون أن أعلم؟! يا سلام، اسمعوا يا ناس.
- على الأقل لا أتمنى الموت للعلماء.
- علماء؟! هذا واحد خرفان. ألا يقولون "خذوا الحكمة من أفواه المجانين"؟ يعني هو مجنون.
- أولاً الحديث يقول "خذوا الحكمة ولو من أفواه المجانين"، لكنك بلعت الواو فغيرت معناها، يا ويلك يوم الحساب.

١٦ شباط ٢٠٥٠

كان حسن يغط في نوم عميق عندما سمع وقع أقدام في بيته، قال لنفسه:
- لا بد أنهم لصوص. هب من نومه بخفة وبدأ يفرك عينيه. لحظات وهجم عليه بعض الرجال كمموا فمه، وقيدوه بعد تهديده بالسلاح، وعندما استيقظت زوجته على صوت العراك طلبوا منها التزام الصمت.
قالت لهم:
- أرجوكم لا تقتلونا، خذوا ما تشاؤون.
فقال لها أحدهم:

- اهدئي نحن لسنا لصوصاً. لن يمسه أحد بمكروه. التزمي الصمت.
- من أنتم؟
- نحن من الشرطة الخاصة.
- شرطة؟ خاصة؟ لماذا؟
- ستعرفين فيما بعد عندما تزورين زوجك في السجن.
- لماذا ستسجنونه؟
- لأنه قاتل.
- قاتل؟ يا ويلي.. زوجي لا يقتل.
- المحكمة ستقرر ذلك.

بعد تفتيش البيت كاملاً ينتقل أفراد الشرطة مع المتهم حسن بصحبة عشرات السيارات التي تحيط بالمنطقة من كل اتجاه، وتوجهت إلى مقر المخابرات العامة حيث خضع حسن لاستجواب، ثم أودع في غرفة انفرادية في مكان لا يصل إليه أحد ومنعت عنه الزيارة.

بعد أيام كانت المحكمة قد عقدت جلستين الأولى للاستماع للاتهام الموجه إلى حسن عبد السلام بحضور تغطية كثيفة من وسائل الإعلام، فقد أعلنت الحكومة رسمياً أنها بعد ستة أشهر من التحقيق ألقت القبض على قاتل العالم الجليل.

كان الناس خارج القاعة يتابعون نتائج المحكمة عبر شاشات كبيرة خارج بناية المحكمة، فيما نقلت بعض الفضائيات الجلسة مباشرة على الهواء.

بعد لحظات أعلن الحاجب عن دخول القضاة الخمسة فوقف كل الحضور، فجأة صعد إلى المنصة المحقق سليم الذي كان قد تم ترقيته ليصبح مدعياً عاماً، وتم تكليفه بالقضية لاطلاعه على ملابساتها.

بعد اطلاع القاضي على ملف القضية طلب من المدعي العام الحديث.
- سيدي القاضي.. أمامكم المتهم حسن عبد السلام الذي اتهم قبل أكثر من عشر سنوات بقتل المرحوم عدنان السماك، لكن المحكمة في حينه برأته لعدم كفاية الأدلة.
محامي الدفاع يقاطع:
- هذه قضية تم إغلاق ملفها.
القاضي يأمر بمتابعة الحديث.
المدعي العام يكمل:

- بعد عشر سنين تقريباً عندما أعلن العالم المرحوم أحمد عن اختراعه الجديد، الذي عدته أوساط دولية بأنه ثورة تاريخيه علمية ستعيد كتابة التاريخ، خشي المتهم حسن من انكشاف أمر الجريمة التي ارتكبها قبل عشر سنوات.
المحامي يقاطع:
- هل موكلي متهم بقتل العالم أم المرحوم عدنان السماك؟
المدعي العام يطالب بعدم مقاطعته ليرد على السؤال.
القاضي يرد عليهما:
- ليكمل المدعي العام عرضه.
- في ١٨ تموز ٢١٤٩، في تلك الليلة قام المتهم حسن بتنفيذ جريمته وقتل العالم الجليل خوفاً من انكشاف أمر جريمته الأولى بسبب الاختراع الجديد، فتسلل ليلاً بعد منتصف الليل إلى شقة العالم التي تقع في منطقة بعيدة عنه. اسمحوا لي أن أعرض عليكم الوثيقة رقم ثمانية كما هي لتشرح لكم ما حصل ليلة الجريمة.
رئيس القضاة يتشاور مع مستشاريه ثم يأمر بعرض الوثيقة رقم ثمانية.

يتقدم أحد العاملين في المحكمة، يضيء شاشة عرض كبيرة معلقة في سقف المحكمة أمام القضاة، فيما أضيئت شاشة أخرى كبيرة أمام الحضور. ضغط المدعي العام على زر عرض الفلم. ظهر بيت العالم أحمد من الخارج في حي راق، تحيط به العمارات الكبيرة من كل جانب. فجأة يظهر حسن عبد السلام يلبس قفازات بيديه يتقدم نحو الباب الرئيس للعمارة رقم ٢٣٢. كان بابها مغلقاً لا يفتح إلا من أعلى الشقة في الداخل. أخرج من جيبه جهازاً إلكترونياً صغيراً وضعه على الباب ففتح الباب.
فجأة أوقف المدعي العام عرض الفلم لثوان ثم قال:
- أرجو التسجيل أن هذا الجهاز الإلكتروني قد فقد من إحدى سيارات الشرطة عندما كان الشرطي يتناول طعام الغذاء قبل أسبوع من الحادث، وقد اشتراه المتهم من اللص الذي سرقه، وهو جهاز إلكتروني لفتح الأبواب تستخدمه الشرطة عندما يكون هناك أمر بتفتيش أحد الأماكن المغلقة.
وفي تقرير رقم ١٦١ يوضح كيف ومتى اشترى المتهم الجهاز، دعونا نتابع.

يصعد المتهم الدرج إلى الطابق الثالث (لا يستخدم المصعد)، وعندما يصل يفتح الباب بالطريقة نفسها. يدخل الشقة دون أن يحدث ضجة. يتقدم ببطء، فيشاهد نوراً منبعثاً من غرفة مكتب العالم. يفتح الباب بهدوء دون أن ينتبه العالم الذي كان منكباً على قراءة بعض التقارير على مكتبه. يوجه حسن إليه جهازاً إلكترونياً يشبه المسدس يقوم بتخدير الشخص بعد إصابته بشعاع إلكتروني يفقده القدرة على الحركة، بعد ذلك يسرع نحوه، ويضع يديه حول عنقه ويستمر في خنقه حتى تأكد من وفاته.
بحث في أوراقه عن شيء ما فلم يعثر على شيء، فغادر البيت كما دخل.

محامي الدفاع يسأل هيئة المحكمة:

- هل هذا فلم سينمائي؟ من أين للادعاء العام كل هذا التسجيل في الوقت الذي نفت فيه الشرطة وجود أدلة تشير إلى القاتل.

المدعي العام:
- سيدي القاضي.. بعد قتل العالم الجليل، توجه وفد رسمي من قبل رئيس الجمهورية وطالب العلماء الذين كانوا يعاونون العالم أبحاثه استمرار الأبحاث للوصول لاختراع الجهاز الذي يستعيد الصور، والذي كان العالم قد بدأ بتجاربه عليه دون الإعلان عنه، وقد فرضت عليهم حراسة مشددة في أماكن سكنهم وفي مقر هيئة البحث العلمي التابع لجامعة مستقبل أجيالنا، وفرض تعتيم على عملهم، كما قدمت لهم كل ملفات وأوراق العالم الشهيد.

لقد كنا عاجزين عن معرفة القاتل، لكن تكللت أبحاثهم بالنجاح، وأول إنجاز لهم كان استعادة صورة أحداث الجريمة، وما شاهدتموه جزء منها. لدي تسجيلات بالصوت والصورة توضح الطريق التي سلكها المتهم بعد ارتكاب الجريمة ولحظة وصوله البيت، وتسلله إلى الفراش بجانب زوجته التي استيقظت لتسأله:
- ألم تنم؟
فرد عليها قائلاً:
- كنت أستخدم الحمام.
احمر وجه المتهم وهب واقفاً وقال:
- هذا غير صحيح. أنا لم أقتل أحداً.
أضاف المدعي العام:
- ولدينا تسجيل حي لارتكابه الجريمة الأولى قبل عشر سنوات.
محامي الدفاع:
- المحكمة برأته من تهمة القتل تلك.
- ولدينا تسجيلات لمغامراته النسائية وخيانته الزوجية. هل تحب هيئة المحكمة عرض أي من الوثائق؟
القاضي يسأل محامي الدفاع:
- هل تريد التشاور مع موكلك فيما سمعت؟
- سيدي القاضي.. لم يبق إلا أن يصورونا في غرف نومنا ويسمون ذلك اختراعاً. هذا تعدّ على حرمات المنازل. هذه الوثائق لا تستند إلى مراجع قانونية، ولم يصدر قرار بتسجيلها.
المدعي العام:
- إنها اكتشاف علمي سيغير وجه البشرية.
المحامي:
- هل يمكن للمدعي العام أن يقول لنا من صور هذه الأفلام لنستجوبه؟ فقد تكون أفلاماً مركبة، فالتكنولوجيا الآن قادرة على كل شيء.

القاضي:
- على المدعي العام الرد على المحامي.
- سيدي.. إنها صور يقول العلماء إنها اكتشاف رسمي علمي مثل اكتشاف الجينات الوراثية. لدي في القاعة بعض العلماء، يمكن لعدالتكم توجيه أسئلتكم إليهم.

هز القاضي رأسه. تشاور مع مستشاريه، ثم أمر بإحضار العالم الأول إلى منصة الشهود.
- اسمك، وسنك، وعملك؟
- محمد الشاهد، بروفسور في معهد الأبحاث، عمري ٧٥ سنة.
- ألم تتقاعد بعد؟
- من يدخل عالم الأبحاث لا يهدأ حتى يصل إلى هدفه، وكان هذا حلمنا مع العالم الجليل الذي تم قتله رحمه الله.
- ما هذا الاكتشاف الذي حدثنا عنه المدعي العام؟
- الاكتشافات لا تصدق إلا بالبراهين، وقد برهنا علمياً على ذلك، واستعدنا صوراً وأحداثاً حصلت قبل آلاف السنين.
ينظر إليه القضاة بتعجب فيما يعترض محامي الدفاع:
- ما الذي يجعلكم تتأكدون أنها حصلت في ذلك التاريخ؟
- البرهان، عندما يتوافق الصوت مع الأحداث.
محامي الدفاع:
- حسناً.. هل تستطيع أن تستعيد لنا صورتي قبل أسبوع؟
- إذا سمحت هيئة المحكمة.
القاضي:
- تفضل.
يحضر عالم آخر صندوقاً فيه كرة تشبه الكرة الأرضية من مادة تشبه الزجاج، يوجد في أعلاها سلك قصير يعمل كلاقط إرسال، يتم ربط الكرة بالكهرباء. يحرك العالم قاعدة الكرة، ويبدأ بالضغط على الأزرار. يسأل العالم المحامي:
- ما عنوان المكان الذي كنت فيه قبل أسبوع؟
- لماذا يجب أن أخبرك عن العنوان؟ ألم تقل أنكم اخترعتم ثورة القرن الجديد؟
- هناك طريقتان لاستعادة الصور، إما عن عنوان محدد، مكان محدد، أو عبر تشابه الأصوات والصور. ليسمح لنا القاضي أن نلتقط صورة للمحامي.
يحرك القاضي يده موافقاً.
يصور العالم الشاهد المحامي، ثم يربط الكاميرا بالكرة. بعد لحظات تظهر على الشاشات صورة المحامي ليلاً يجلس مع أولاده وزوجته. اقتربت منه زوجته وسألته:

- ألديك جلسه هذا الأسبوع؟
- أنا مشغول بقضية حسن عبد السلام. لا يوجد أية إثباتات ضده، لذلك أتوقع له البراءة.

المحامي يقف باهتاً، ثم يقول للقاضي:
- أكتفي بهذا العرض سيدي القاضي، وأرجو تأجيل الجلسة، وإخلاء سبيل المتهم، فهذه التسجيلات غير شرعيه لأنها تسجيلات شخصية تمت دون أمر المحكمة، وحسب القوانين الدولية كل تسجيل تم بطريقة غير قانونية لا يقبل كدليل إثبات.
المدعي العام:
- أعترض، فهذه تسجيلات لم يقم بها أحد. إنها تسجيلات رسمية أوجدها الله لتعين البشرية على اكتشاف المجرمين.
القاضي يتوجه إلى العالم:
- هل تستطيعون استعادة الصور أينما كانت؟
- بكل تأكيد.
- حتى في غرف النوم.
- نعم، ولكن... هذا ليس عملنا.
- وضح أكثر.
- مهمتنا علمية، أما إساءة استخدام اختراعنا فهذا مهمة الدول، فهناك عقاقير تستخدم للعلاج، ويمكن للمجرمين استخدامها لقتل ضحاياهم فهل تمنع؟
المحامي يسأل:
- ولكن ما الذي يضمن أن انتشار هذا الاختراع بعد سنوات لن يصل إلى أيدي الشركات التجارية لتبيعه وتحقق الملايين من ورائه. إنكم تفضحون أسرار البيوت باختراعاتكم.
المدعي العام:
- نحن الآن أمام جريمة قتل، وليس أمام أخلاقية الاختراع.
محامي الدفاع:
- أعترض سيدي القاضي، فهذا كله مترابط معاً.
المحامي يسأل العالم:
- هل اختراعكم مسجل رسمياً لدى هيئة الأمم؟
- ليس بعد؟
- هل أجازته الدولة قانونياً كدليل لإثبات الجرائم؟
- هذا ليس من اختصاصي.
المدعي العام:
- الدولة لا تعترض على الاختراعات العلمية.

- سؤالي واضح؛ هل تعده هيئة المحاكم العليا مرجعاً قانونياً مثل الـ (دي إن إي).
القاضي يرد عليه:
- ليس بعد لم يقر.
- إذاً أرجو عدم اعتماده حتى يقر من قبل الهيئة التشريعية للدولة.
العالم رأفت النابلسي يرفع يده يطلب الحديث فيسمح له القاضي:
- سيدي القاضي.. هل يضمن أحد لو لم نصل إلى هذا الاختراع أن أحداً من دوله أخرى غيرنا لن يصل إليه؟
- لا طبعاً. لا أحد يضمن شيئاً.
- ماذا لو اخترعه علماء أمريكيون وشرعوه وباعوه لدول أخرى، هل نستطيع منعهم؟
- لا.
- ماذا لو صاروا يستعيدون صورنا في بيوتنا، وغرف نومنا، هل نستطيع منعهم؟
محامي الدفاع:
- هذا تضليل للعدالة. إنها إعلان الحرب علينا. إنهم يخترقون خصوصيتنا. علينا حماية أنفسنا من هذا الاختراع.
- كيف؟
المحامي:
- عليكم اختراع جهاز جديد يلغي هذه التسجيلات.
- إنها الطبيعة أقوى من البشر.

العالم يتوجه إلى هيئة المحكمة والمحامي والجالسين الذين كانوا يستمعون باندهاش للحوار وقال لهم:
- تصوروا عندما يصبح الناس عراة أمام بعضهم، لا شيء يخفي مشاكلهم، وأفكارهم، وأعمالهم. ألا ترون معي أن الجرائم ستختفي، أو ستتقلص؟ حينها لا أحد يهرب من أحد. لا أحد سيخفي جريمته عن العدالة. لا أحد سيتخفى بالليل كي لا يراه أحد. لا أحد سيخون زوجته لأنها ستعرف ذلك. لا أحد سيسطو على بنك لأنه مراقب. عندما يصبح الناس عراة أمام بعضهم لن ينظر أحد إلى عورة الآخر.
محامي الدفاع:
- أعترض. هذه دعوة إلى الانحلال.
الناس في القاعة يتهامسون. علت أصواتهم، قام أحدهم قائلاً:
- هذا اختراع مشبوه!
فرد آخر:
- هذا ضد الدين.
تتكاثر الأصوات. يضرب القاضي المنصة بالمطرقة، ويقرر:

- قررنا تأجيل الجلسة إلى ثلاثة أشهر، وإحالة الاختراع إلى مجلس الشعب التشريعي، لإصدار قرار يسمح باستخدام الاختراع الجديد كدليل إثبات أو تحريمه.

رفعت الجلسة.

المطلّقة

أعجبته من أول نظرة، فأحبها، وتوجه إلى أهلها ليخطبها، وبعد أن وافقوا، عقد قرانه عليها، وحدد ليلة الزفاف.
فوجئ في تلك الليلة أنها لم تكن عذراء، فأصيب بحالة هستيرية. سألها: من فعل ذلك؟ فقالت: لا أحد.

لم ينفع إنكارها، فهددها بقتلها إن لم تعترف. خافت من تهديده ووعيده، واعترفت له أن خالها قد اغتصبها قبل عشر سنوات عندما كان عمرها (١٢) سنة، وأنه هددها إن اعترفت بالقتل.
طلبت منه أن يسامحها، ويكتم سرها، ويغفر لها، لأنها كانت طفلة تعرضت للاغتصاب، لكنه لم يشفق لحالها، ونظر لها نظرة العاهرة التي خدعته.

في اليوم التالي، ذهب إلى أهلها وحكى لإخوتها وأبيها القصة، فثاروا عليه، لكنه بعد أن أسمعهم شريطاً مسجلاً بصوتها صمتوا، ولم ينبسوا بكلمة.

أعادها إلى بيت والدها بعد أن طلقها، وأعادوا له كل ما دفعه من مهر وذهب وملابس. عادت حزينة إلى بيت والدها والدموع تسيل على خدودها من كل جانب.

وبعد مشاورات اتفق الإخوة على قتل خالهم خفية، وفي اليوم التالي قتلوه ليلاً وهو نائم في فراشه.

ثار أهل القتيل، وبعد أيام عرفوا بطريق الصدفة أن القتلة أولاد أختهم، فأعلنوا حالة الاستنفار، وطالبوا بدم ابنهم، وفي أول اشتباك بينهم، أصيب أكثر من عشرين جريحاً نقلوا إلى المستشفى، وذهبت الأم إلى بيت أهلها.

شعرت البنت أن المسألة لن تقف عن هذا الحد وأنها السبب، فالتقت بأخيها الكبير سراً واعترفت له بسر جديد. ذهل أخوها أحمد، فهجم عليها يضربها، وقال لها:
- قتلنا خالك بسببك، والآن تقولين إنه ليس خالك، من يضمن لنا أن ما تقولينه كله صحيحاً؟ من يدر؟ ربما هناك عشيق آخر.
وقفت أمامه تبكي. قالت له:
- لقد ضربني وهددني. قبل زواجي جاءني مرة أخرى وحذرني ألا أتحدث عن ذلك لأي أحد. قال لي: "قولي أي شيء إلا اسمي"، فقلت خالي. لم أكن أعرف أنها ستصل حد القتل، لكنها الحقيقة.
- هل مستعدة لمواجهته؟
- هل ستحميني منه؟
- سأحميك، لكن من يحميك من دم خالك؟
- أنا بريئة والله. هو السبب.
ثار أحمد، واحمر وجهه. رفع قبضته إلى الأعلى وصرخ:
- كل هذا من تحت رأسك...؟

عندما واجهها به أمام إخوته، أنكر وهجم عليها، لكنها قالت له بوجهه:
- أنت الذي هجمت علي في البيت عندما كنت الوحيدة معك. أنت الذي هددتني بالسكين. أنت الذي قلت لي إنك أبي وإن الأب يجوز له مالا يجوز لغيره. أنت الذي قلت لي لا تخافي، لن تتألمي كثيرا... أنسيت عندما هددتني قبل حفلة الزفاف بيوم، وطلبت مني ألا أذكر اسمك؟
رفع يده ليهوى عليها، لكنه تراجع، وضع يديه على وجهه، وصار يبكي. قال لهم:
- لعن الله الشيطان.

فقال له ابنه الأوسط:
- الشيطان؟ كلما ارتكب أحدنا جريمة قال الشيطان.
نظر الأخ الأصغر إلى أبيه. بصق عليه وغادر البيت. قال كبير الإخوة لأبيه:
- اسمع الآن.. نحن أمام مشكلة كبيرة. أهل خالي يطالبوننا بدمه، وهم لن يتنازلوا حتى يأخذون بثأره. لقد قتلنا خالنا بسببك وتهديدك لها ألا تذكر اسمك. إما أن تحدث مجزرة بسبب عار حملناه من تحت رأسك أو أن توقف أنت شلال الدم وتعاقب نفسك.
سأله الأب:
- وما تقترح؟
- أنت تفهم تماماً ماذا أقترح. عليك إيقاف شلال الدم.
- وهل ستقولون إنني الذي...
- لماذا تحسب حساب ما جنته يداك؟ ألم تفكر قبل جريمتك البشعة؟ ابنتك؟ أي أب أنت؟ وما ذنب خالي المسكين أن تظل التهمة لاصقة به؟

توجه أبو أحمد وأبلغ رجال الإصلاح استعدادهم تقديم الفدية التي يرونها، فقالوا له:
- إنهم يطالبون برأسك.
- أنا جاهز لوقف شلال الدم بين الأقارب.

اجتمع رجال العائلتين، وبعد أن تحدث كبير رجال الإصلاح ودعا إلى حقن الدماء، وقف أبو أحمد وقال لهم:
- يا أهلنا ويا أحبائنا، أريد أن أوقف شلال الدم بين العائلتين، لا أريد أن أحملكم دمي، فلا تشهروا خناجركم، سأريحكم من دمي حتى لا يثأر لي أحد من أبنائي أو أقاربي، وكي أوفر على أبنائكم السجن.
ثم أخرج المسدس من جيبه ووضعه على رأسه وأطلق طلقة واحدة أردته قتيلاً.
صاح أهل الخال:
- الله أكبر. ظهر الحق.
أما أهل (أبو أحمد) فهاجوا وماجوا على فقده.

تدخلت الشرطة بعد أن عرفت بالحادث، لكنها لم تستطيع إدانة أحد، فالقاتل انتحر أمام الجميع. توقف شلال الدم، لكن العلاقة بينهما ظلت مقطوعة، فقد تلطخت بدم يصعب محوه.

رسالة عاجلة

عاد هشام إلى بيته بعد انتهاء عمله في فندق الإنتركونتننال مشياً على الأقدام، فقد كان يسكن في جبل الطور، ليس بعيداً عن موقع عمله. كانت الساعة حوالي الواحدة بعد منتصف الليل. الجو رائع. صورة البلدة القديمة أمامه كنجم يتلألأ في السماء. صعد الشارع الرئيس، وعندما اقترب من مستشفى المقاصد انحرف إلى طريق جانبية وتابع سيره في الشارع المحاذي. فجأة شاهد رجلاً أمامه يسير بشكل متعرج. قال لنفسه: لا بد أنه أحد السكارى.

راقب هشام سيره بدقة، فلاحظ أنه يتمايل، لذلك حاول الابتعاد عنه، وعندما اقترب منه أسرع الخطو للابتعاد عنه. انتبه له الرجل فلحقه. أمسك به ثم سأله:

- ما الساعة؟

نظر هشام إلى ساعته وقاله له:

- الواحدة وخمسة دقائق.

تابع هشام سيره، لكن الرجل لحقه مرة أخرى وقال له:

- ألست هشام الذي يعمل في الفندق؟

استغرب هشام كيف عرفه الرجل، لكنه فضل التخلص منه، فهو لا يرغب بأحاديث جانبية، فقال له:

- نعم، دعني، أنا مستعجل.

تخلص منه هشام وأسرع الخطوات.

لكن الرجل لحقه مرة أخرى وأمسك به وهو يترنح وعيناه تشعان احمراراً، لكن هشام دفعه وتابع سيره، فسقط الرجل على الأرض.

ناداه الرجل وهو ملقى على الأرض.

- هشام لا تتركني دخيلك، ارجع بالله عليك.

لم يرد عليه هشام. تابع سيره لثوان حتى اختفت أصوات هذا الرجل. نظر إلى الخلف فرآه ملقى على الأرض، فشعر أن الرجل أصيب بعد ارتطام رأسه بالأرض. أحس بالذنب، فقرر العودة لمساعدته على النهوض. كان خلال عودته يتساءل:

(لكني لم أشم رائحة الخمر المنبعث من فمه، ربما إذاً يكون قد تعاطى جرعة كبيرة من المخدرات).

وصله هشام ورآه يحاول النهوض فساعده، ثم سأله:

- ماذا تعاطيت؟ مخدرات؟

ابتسم الرجل وقال:

- هل أبدو لك بأنني مدمن على المخدرات؟

- ما بك إذاً؟ مالك تترنح في سيرك؟

فكشف له الرجل عن جنبه الأيمن، فشاهد هشام جرحاً صغيراً ودماً ينزف أسفل الجاكيت. بهت فسأله:
- هل أنت جريح؟ من فعل بك هكذا؟
- أصبت من الجيش الإسرائيلي.
- متى ولماذا؟
- دعك من الأسئلة. أريدك أن تخدمني؟
- ماذا؟ هل أنقلك إلى المستشفى هنا؟
- لا. اسمعني جيداً. لا تهتم بجرحي. أريدك أن تذهب إلى البلدة القديمة إلى... في شارع... وبلغ أنور رسالة مني.
- الآن؟
- نعم الآن؟
- وماذا تريدني أن أقول له؟
- قل له يسلم عليك أبو فراس. الهدية وصلت. سيسألك أي هدية؟ قل له: "قميص أحمر مع وردة على اليسار"، ثم بلغه أنني مصاب.
- وأين سيجدك؟
- لا تقلق عليّ. بلغه الرسالة وشكراً. هل أعتمد عليك؟
هز هشام رأسه وقال: "ستصل الرسالة".

ترك هشام الرجل يسير مترنحاً يضع يده على عدة ضمادات حول الجرح، وتوجه من الشارع الفرعي المؤدي إلى باب الأسباط مباشرة من خلف مستشفى المقاصد مروراً بالسيدة العذراء.
عندما وصل إلى باب الأسباط كان الوقت متأخراً، الساعة حوالي الواحدة النصف، ويسير وحيداً في هذه الساعة. فجأة لاحظ دورية لحرس الحدود يقفون مع سيارتهم العسكرية قرب الباب، فلم يصعد إلى باب الأسباط، وتابع سيره. وعندما وصل إلى مفترق طرق، الطور، وادي الجوز مقابل المقبرة الشمالية، شاهد سيارة عسكرية تتجه نحو باب العمود، فقرر العودة إلى البيت وإيصال الرسالة صباحاً. ماذا سيقول للجيش لو سألوه: إلى أين أنت ذاهب؟ ولماذا أنت هنا؟

عاد إلى بيته في الطور وهو يفكر بأمر الرجل، ومن يكون وراءه؟ ولماذا وثق به؟ وماذا تعني الرسالة؟ هل سيتعرض لخطر إذا بلغ الرسالة؟ هل سيعترف عليه أحد إذا تم اعتقالهم؟

ظل سهران حتى الفجر، بعد ذلك غلبه النعاس فنام. لم ينتبه له أحد عندما عاد ولماذا تأخر.
في الصباح استيقظ هشام متأخراً كغير عادته. نظر إلى الساعة كانت تشير إلى العاشرة صباحاً. أحس بذعر شديد. قفز من مكانه. غسل وجهه ولبس ملابسه، وخرج بسرعة بعد أن بلغ زوجته بذلك.
قالت له:

- إلى أين؟ لم تتناول الفطور.
- لدي مهمة عاجلة وسأعود.
- لماذا تأخرت ليلة أمس؟
تعثر في الحديث ثم قال:
- كان لدي بعض الأعمال التي طلب مني إنجازها قبل تركي العمل.
- حسناً. سأنتظرك على الغذاء.

غادر هشام البيت على عجل متوجهاً إلى البلدة القديمة. وصل إلى الشارع المطلوب. كان المارة بعض النساء والأولاد ورجل عجوز. بحث عن البيت حتى وجده. لم يسأل عنه حتى لا يثير شكوك المارة. ضغط على جرس الباب ففتحت له بعد ثوان امرأة تبدو في الأربعين من العمر. سألته:
- من أنت وماذا تريد؟
- أريد السيد أنور.
- ابني أنور؟! ماذا تريد منه؟
بلع ريقه ولم يعرف ماذا يقول. إذا كان أنور ابنها فلا بد أنه شاب صغير، لكن الرجل الذي حملني الرسالة كبير السن. هز رأسه وقال:
- هل أستطيع رؤيته؟ لدي أمانة يجب أن أسلمها له.
- أمانة؟! أية أمانة؟ أنا أمه. أعطني إياها.
- ألا أستطيع رؤيته؟!
- إنه الآن بالمدرسة.
- بالمدرسة؟! أهو طالب؟!
- طالب بالتوجيهية وهذه سنته النهائية. فماذا تحمل له؟ لقد أقلقتني.
احتار هشام ماذا يقول لها. بعد تردد سألها:
- في أي مدرسة هشام؟!
- إنه في الكلية الإبراهيمية في الصوانة.
- عرفتها. حسناً سأذهب إلى هناك.
فقالت أم أنور وقد استبدت بها الشكوك:
- لقد بدأ الفأر يلعب بعبي، ألا تقول لي ماذا تريد وتريحني؟ ماذا تريد من أنور؟ إنه مثل أولادك. اتركه بحاله، فهذه السنة آخر سنه له بالمدرسة.
شعر هشام بالإهانة وقال لها:
- لا تقلقي يا حاجة، أنا لا أعرف أنور، وقد حملني صديق له أمانة.
فقاطعته:
- أمانة؟ ولماذا لم يوصلها بنفسه؟ أي صديق هذا؟ كل أصدقائه معه الآن في المدرسة.

شعر هشام أن الوقت يمر دون فائدة، فاعتذر منها، وقفل عائداً باتجاه الكلية الإبراهيمية.

ركب الباص المتجه إلى الطور، ونزل قرب الإبراهيمية. منظر المدرسة ذكّره بأيام الدراسة.
وقف أمام الباب، وقبل أن يدخل سأله الحارس:
- أي خدمة؟
- هل أستطيع مقابلة الطالب أنور؟
- أنور ماذا؟
- أنور الحسان.
- هل أنت والده؟
- لا.
- قريبه؟
- تقريباً.
اشتبه به الحارس فسأله:
- وماذا تريد منه؟
- أريد الحديث معه لمدة دقيقة.
اتصل الحارس بمكتب الإدارة فأبلغوه أن الزيارات مسموحة فقط للآباء، وأن الحسان الآن يخضع مع بقيه الطلبة في صفه لامتحان الفصل.
- امتحان؟ ومتى يخرج الطلاب من المدرسة؟
- الساعة الواحدة والربع.
- حسناً. سأعود لاحقاً.

عاد هشام إلى بيته وهو متوتر الأعصاب. ما الذي يخبئ له القدر؟! لماذا التقى هذا الرجل في طريقه وأي أمانه حمله إياها؟! طالب مدرسة!! ماذا سيفعل طالب مدرسة؟ لماذا قبلت إيصال الرسالة؟ هل أوصلها أم أنسى الموضوع؟ لكن الرجل اعتمد علي، لعلها رسالة مهمة. سأعود في الموعد المحدد لانتظاره.

عاد هشام الساعة الواحدة ليقف أمام الكلية الإبراهيمية ويسأل الطلاب المغادرين عن أنور. فجأة لمحه الحارس فناداه قائلاً:
- يا أخ؟
ذهب هشام إليه، ليسأله عما يريد، فقال له:
مدرس الحصة الأخيرة تغيب اليوم فغادر طلبة الصف الذي يتواجد به أنور ساعة قبل موعد انتهاء الدرس الأخير.
- اللعنة. ماذا تقول؟

- ماذا أفعل لك؟ لقد تغيب الأستاذ، كان مريضاً.
ضرب هشام رأسه بيده واشتد به الغضب، وغادر موقعه متوجهاً مرة أخرى إلى بيت أنور. ضغط على زر الجرس، ففتح الباب له شاب طويل القامة.
سأله هشام:
- هل أنت أنور؟
- لا. أنور أخي. من أنت؟
سمع أنور الحوار فجاء إلى الباب سائلاً:
- من يريدني؟
- هل أنت أنور؟
- نعم.
- أنور الحسان؟
- نعم. من حضرتك؟
- أريدك بأمر خاص لدقيقة. هل تخرج معي إلى الشارع؟
فهم أنور أنه لا يريد أن يسمعه أحد، فطلب من أخيه الدخول إلى الداخل، وتركه مع هشام وحدهما.
عندما اطمأن هشام أن لا أحد يسمعهما قال له هامساً:
عندي لك رسالة شفوية من (أبو فراس).
التفت أنور حوله ليتأكد أن لا أحد يسمعه، ثم سحب هشام إلى الخارج وأغلق الباب وسأله:
- ماذا تقول الرسالة؟
- الهدية وصلت.
- أي هدية؟
- قميص أحمر مع وردة على اليسار.
ابتسم أنور وسأله:
- وكيف حال (أبو فراس)؟
- إنه مصاب بجنبه الأيمن.
انتفض أنور وقال له:
- مصاب؟
- متى كان ذلك؟
ربما بالأمس عندما رأيته بالصدفة وأنا عائد من العمل. أقصد صباح اليوم الساعة الواحدة صباحاً.
- ولماذا تأخرت في الرسالة؟
- حاولت الحضور في الليل، فشاهدت دورية للجيش في الطريق فخشيت أن يعتقلوني، وفي الصباح عندما حضرت إلى بيتك كنت في المدرسة، وعندما لحقت بك إلى المدرسة كنت في الامتحان...

- حسناً.. حسناً. لا تكمل. أنا مضطر للمغادرة. شكراً لك على معروفك. لا تذكر فحوى الرسالة لأحد كأنك لم تعرفني.

غادر أنور البيت على الفور دون أن يبلغ أحداً، فيما توجه هشام عائداً إلى بيته، بعد أن طلب من زوجته على الهاتف أن تعد لهما طعام الغذاء.

شعر هشام بالراحة لتوصيل الرسالة، وأحس بأن هماً ثقيلاً قد أزيح عن كاهله، لكنه كان يحاول فك رموز الرسالة فلم يعرف. كان يتمتم في داخله كأنه يحادث نفسه: ماذا جرى مع الرجل الجريح؟ هل توجه إلى مستشفى المقاصد؟ لماذا أقلق بالرجل وقد أوصلت الرسالة؟ يجب أن أنسى ما حصل، بل يجب أن أنسى حتى اسم أنور نفسه. الحمد لله أنه لم يسألني عن اسمي، ولم يعرف من أنا.

في اليوم التالي كان هشام يسير في شارع السلطان سليمان عندما هاجمه ثلاثة رجال وانهالوا عليه ضرباً، ثم أمسكوه، وسأله أحدهم:
- أين الولد؟
- ولد؟ أي ولد؟ من أنتم؟
- نحن أهل أنور الحسان الذي خطفته.
- خطفته أنا؟ لم أخطف أحداً.
- أنت كذاب. أنت الذي جاء بالأمس وادعيت أنك تحمل أمانة من صديقه. لقد تعرف إليك أخوه وأمه.
- يا جماعة اهدؤوا. هناك سوء فهم.

التم عليه بعض المارة فحجزوا بينهم، ثم حاولوا تهدئة الموقف. كان هشام محتاراً أمام ما يسمعه بأن أنور غادر البيت معه ولم يعد. ماذا سيقول لهم؟! هل يقول الحقيقة؟ هل يكشف سر الرجل؟ لقد أوصاه أنور ألا يفشي سر الرسالة لأحد.
نظر إليهم وقال:
- لقد بلّغت أنور أن صديقاً له يسلم عليه.
فقال له أحدهم:
- عدت للكذب.
وعادوا يضربونه حتى فقد وعيه، ولم يستعيده إلا وهو في مستشفى المقاصد بالطور، وحوله زوجته وعدد من أقاربه الذين أقسموا أن يثأروا له.
نظر إليهم، وهدأ من مخاوفهم، وقال لهم:
- لا تقلقوا. أنا بخير.
سأله أخوه:

- هل تعرف الذين ضربوك؟
- لا.. لا أعرفهم. لقد تشاجرنا فجأة بالطريق، وحصل ما حصل.
فقال ابن عم له:
- ما أوصافهم؟
- قلت لك لا تقلق. يبدو أنهم من الشمال وكانوا في زيارة للقدس.

رفض هشام كل محاولات أهله معرفة هوية الجناة للثأر منهم. كان يخشى على السر أن يفتضح، لكنه أصبح قلقاً على مصير أنور. ترى هل كانت الرسالة السبب؟ لماذا لا يتصل بهم؟ كل شاب اليوم يحمل هاتفاً خلوياً. اللهم اجعله خيراً.

بعد يومين كان هشام وحيداً في غرفته في المستشفى بانتظار زوجته ليغادر المستشفى. فجأة دق الباب.
فقال هشام:
- تفضل.
فتح الباب وأطل وجه أنور ومعه أمه وأبوه. كان أنور يحمل سلة ورد كبير مكتوب عليها (الحمد لله على السلامة يا هشام).
بهت بهم ثم قال:
- أنور؟
- هشام لا تتحرك. أنا جئت لأعتذر لك مع أمي وأبي.
اغرورقت عينا هشام بالدموع، وقال:
- الحمد لله أنك عدت سالماً وظهرت الحقيقة. لماذا لم تبلغهم أنك ستغيب عن البيت؟ ماذا حصل معك؟
تقدم أبوه وعانق هشام وقبّله من جبينه وقال معتذراً:
- يا بني تقبل اعتذاري عما حصل. أنا مسؤول، ومستعد للحق ولأي تعويض تطلبه.
بكى هشام من حرارة الموقف وقال:
- لم أتوقع أن أتعرض للضرب لذنب لم أرتكبه.
- أخي هشام، لقد أوضح لي ابني ما حصل وأنه غاب دون معرفتك. نحن مذنبون، لكنا جزعنا على ابننا الذي خرج معك ولم يعد، ولأنك غريب وأكبر سناً منه ولست من أصدقائه. اشتبهنا بك. لعن الله الشيطان لقد وسوس في صدورنا أنك السبب. سامحنا.
فقال هشام:
- سامحتكم، ومتنازل عن حقي.
- لقد دفعنا حساب المستشفى، وبإمكانك أن تغادر معنا إن أحببت.
- الحساب دفعتموه؟ لا.. لا يمكن.
- كيف ونحن السبب؟ نحن مدينون لك بالكثير.

بعد انتهاء الزيارة غادر الوالدان الغرفة مودعين فيما بقي أنور لدقائق يواصل اعتذاره لهشام.
سأله هشام:
- لماذا اختفيت؟
- ذهبت لتوصيل الرسالة، وتكليف أحد الأطباء بعلاج (أبو فراس).
- ألم تستطع الاتصال بالأهل؟
- في مثل تلك المهمات أغلق الهاتف وأسحب البطارية منه حتى لا يستطيع أحد كشف مكاني إلكترونياً.
بهت هشام، وسأل:
- وهل يستطيعون تحديد مكان أحد عبر الهاتف؟
- إن أرادوا ذلك!
هز رأسه وقال:
- الحمد لله أن أبناءنا أصبحوا أكثر معرفة منا. وكيف حال (أبو فراس)؟
- اطمئن، هو بخير. أستودعك الله. لا تنس.
قاطعه هشام:
- سرّك في بئر.
تعانقا، ثم غادر أنور الغرفة لاحقاً والديه.

صياد في بحار الآخرين

موسم الأعياد لا يضاهيه موسم؛ ففيه نحقق أرباحنا، وترتفع مبيعاتنا، لذلك نحن أصحاب محلات الملابس ننتظره يوماً بيوم، ونحسب حسابه قبل حلوله بأشهر.

في هذا الموسم تتضاعف الزبائن، ويزداد الطلب على البضائع خصوصاً الملابس النسائية التي أملك محلاً تجارياً متخصصاً ببيعها.

العمل مع النساء ليس سهلاً، فهن مترددات في كل شيء، في اختيار ملابسهن، وألوانها، وحائرات بين هذه وتلك، مزاجيات، يغيرن آراءهن بثوان، وكثيراً ما يشترين القطع، ثم يعدنها في اليوم التالي بحجة أنها غير مناسبة. لقد تعلمت منهن أن أكون بارد الأعصاب، صبوراً، فبغير ذلك سأفقد كل زبائني منهن. وإضافة إلى تقلبّهن في اختيار ملابسهن، فهن كثيرات المراوغة في الأسعار يطالبن دائماً بأن أخصم لهن من أسعار الملابس. على الرغم من ذلك، فالعمل مع بعضهن متعة خصوصاً عندما تطلب مني إحداهن رأياً في أفضلها على الرغم من أنها تستطيع سؤال الموظفات العاملات لدي في المحل. رائحة عطورهن دائماً تخترق أنفي، لذلك تراني أحياناً أستعيد بهن سنوات الشباب الجميلة.

في هذا الموسم قررت أن أصطاد إحداهن للتسلية لا أكثر، فأنا مثل بعض الصيادين الهواة الذين يقضون الساعات الطويلة في عرض النهر، أو البحر لصيد سمكة، وما أن يصطادونها حتى يعيدونها إلى الماء بعد ثوان باحثين عن سمكة جديدة. متعة لا يعرفها إلا الصيادون أنفسهم.

ذهبت في نهاية اليوم إلى الحلاق، وطلبت منه أن يقص شعري ويصبغه ليخفي الشعرات البيضاء التي نبتت وسط شعري الأسود.

فهم الحلاق قصدي، وبعد ساعة خرجت من عنده كأنني في العشرين من عمري. مشيت في الشارع مزهواً بنفسي أراقب أنظار المارة من حولي.

عندما دخلت البيت، فوجئت زوجتي بالتغييرات وقالت لي:
- ما هذا الجمال يا حبيبي؟! لا أصدق عيوني.
وانهالت علي بالقبلات.
شعرت بالسرور. فقد أصبحت الآن مثل الشباب، وعلي البدء برحلة الصيد.

في اليوم التالي توجهت إلى المحل بعد أن تعطرت، ودققت في المرآة أكثر من مرة للتأكد من أنني لم أفقد شيئاً من بريق الأمس.

بدأت النساء تتوافد على المحل، وأنا أرحب بهن. بعض اللواتي يعرفنني فوجئن بي، وأبدين إعجابهن بقصة شعري. جاملتني إحداهن قائلة:
- لقد عدت اليوم إلى جيل الشباب.
سررت بإطرائها، لكنني لم أعلّق كثيراً، فهذه سيدة كبيرة بالسن وأنا أبحث عن الفتيات، عن الشابات، الشبان للشابات.

بعد حوالي ساعتين دخلت المحل فتاة جميلة، فيها كل الميزات التي أرغب بها. قلت في نفسي: تلك هي السمكة التي أرغب في صيدها. حضّرت الصنارة، وهيأت نفسي، ثم بدأت بإلقاء صنارتي.

سألتها إن كانت ترغب أن أساعدها بشيء.
ابتسمت لي ابتسامة شجعتي وقالت:
- هل تسمح أن تريني تلك البلوزة؟
- طبعاً.. طبعاً.. أمرك.
أحضرت لها البلوزة، ووضعتها أمامها، وعلقت قائلاً:
- هذه بلوزة جميلة ألوانها تناسب لون عينيك، وقريبة من شعرك، وعندما تضعين بعض (الماسكرا) حول عيونك ستكون قطعة رائعة.
أعجبت بوجهه نظري، قالت لي:
- كأنك تعرف ما أرغبه؟
قلت لها مازحاً:
- جسمك الفتان يلهم البائع بذوقك الناعم.
ابتسمت ابتسامة عريضة، وقالت:
- أنت بائع ماهر.
شعرت بأنها قد اقتربت من الطعم.

فقلت لها:
- ما رأيك بكأس عصير قبل أن تقرري ما تختارينه فالطقس اليوم حار؟
- شكراً لك، لكن الطقس ليس حاراً فنحن في الخريف.
- يبدو أنني الوحيد الذي يشعر بالحرارة. لا أدري لماذا مع الحسان ترتفع درجة حرارتي؟
ضحكت، ثم حاولت مسك نفسها عن الضحك، لكنها على ما يبدو أعجبها حديثي.
قلت في نفسي: لم يبق الكثير حتى يدخل الطعم إلى فمها بعد أن شربت كأس العصير، وتبادلنا الحديث. فجأة أعجبها فستان معلق في إحدى زوايا المحل. قالت لي:
- عمو أرني هذا الفستان؟
لم أصدق ما سمعت. أصبت بلطمة على وجهي تجاهلت الحديث، فقد أكون لم أنتبه لما قالته.
سألتها:
- هل قلت شيئاً؟
فقالت:
- نعم عمو، أرني هذا الفستان؟
تغير لون وجهي. أحضرت الفستان وقدمته لها. شعرت كأن أحداً ضربني على رأسي بمطرقة. غابت البسمة عن وجهي. زادت دقات قلبي. طلبت من إحدى الموظفات مساعدتها حتى عودتي من إجراء مكالمة هاتفيه آن موعدها. دخلت إلى المكتب. جلست على الكرسي حائرا؛ "ما الذي قالته؟ عمو؟"
يعني أنني في سن والدها؟!
أين الشباب؟

وقفت. توجهت إلى الحمام. نظرت في المرآة لأبحث عن شعرات رأسي البيضاء، فلم أر شيئاً. كنت في قمة أناقتي. ما الذي دفعها أن تقول عمو؟ هل تعرفني؟ هل قررت ألا تبتلع الطعم؟! هل عرفت أنه طعم؟! أم أن صنارتي كانت من الطراز القديم؟
لماذا جئت للصيد بالصنارة ولم أحضر معي شبكة كبيرة؟!

اقتربت أكثر من المرآة. دققت بكل تقاطيع وجهي، فلاحظت حول عيوني بعض التجاعيد التي لم يستطع الحلاق إخفاءها. هل هذا هو السبب أم أن السمك الصغير أصبح يعرف كيف يميز الطعم القديم من الطعم الجديد؟

عدت إلى مكتبي. جلست على المقعد العريض، وبدأت أستعيد رحلة الشباب، ما الذي أفعله؟
كيف أحاول الصيد في بحار لم أدخلها من قبل؟

صمتّ قليلاً.. ثم انفجرت ضاحكاً كأن أحداً يلقي علي نكتة جميلة، أو كأن زوجتي كعادتها تلمس بأصابعها تحت إبطي.
بعد أن توقفت عن الضحك قلت لنفسي: كيف تحاول أن تصطاد سمكاً في بحار غيرك؟! ألم تكفك أسماك بحارك؟!

الرصاصة الأخيرة

فوجئ نبيل بعد عودته في الليل، أن النقود التي خبأها في جرار مكتبه قد فقدت. اعتقد في البداية أن زوجته قد اضطرت لصرفها فسألها:
- حبيبتي.. هل أخذت النقود التي تركتها في جرار المكتب؟
- لا يا حبيبي. أنا لا أعبث بأغراضك.
- غريب! إذاً أين ذهبت النقود؟
- لعلك وضعتها في مكان آخر. أو ربما لم تضعها هنا أصلاً.

هز رأسه. حاول التذكر إن كان قد تركها في مكان آخر فلم يتذكر سوى أنه تركها في الدُّرج قبل مغادرته البيت.

بحث في كل مكان يحتمل أن يكون قد خبأ النقود فيه فلم يعثر على شيء. أهمل الموضوع لعله فعلاً صرفها دون أن يدري.

بعد أسبوع تكرر معه الأمر للمرة الثانية، فقال لزوجته:

- لا بد أن لصاً يسرقنا دون أن نشعر، فلا يعقل أن أنسى النقود للمرة الثانية. لقد تركتها مساء اليوم قبل خروجي للقاء أحد الأصدقاء. هل تركتِ البيت في غيابي؟
- أبداً أنا في البيت لم أخرج منه منذ الصباح.
- أمتأكدة؟
- ألا تصدقني؟
- بلى، ولكن ليطمئن قلبي.

صمت برهة ثم قال:

- هل يمكن أن يدخل من الشباك أحد؟
- لا أعتقد فالشبابيك لديها حماية حديدية.

ذهب إلى الشبابيك وتفقد الحديد على كل شباك، فوجده ثابتاً قوياً يصعب اختراقه.
(يا إلهي.. كيف فقدت النقود إذاً؟)

بعد لحظة صمت سألها:
- هل كان الباب مغلقاً بالمزلاج الداخلي؟
صمتت ثم أجابت:
- نعم، بدليل أنك عندما عدت لم تستطع فتح الباب بمفتاحك، ففتحته لك من الداخل.

سكت نبيل، وقرر متابعة الموضوع مرة أخرى.

(لن أقبل أن أسرق للمرة الثانية. ترى هل فعلتها زوجتي سعاد لتشتري ملابس لها دون أن تخبرني؟!
أشك في ذلك، فإن فعلتها مرة، لن تجرؤ على فعلها للمرة الثانية، ثم لماذا تسرقني وأنا لا أمنع عنها شيئاً؟
أعطيها النقود بلا حساب. بقي احتمال واحد أخشى أن يكون هو... لا.. لا.. لا أعتقد).

قرر نبيل أن يراقب البيت في المرة القادمة حتى يكتشف الحقيقة، وقبل أن يترك البيت في المساء عائداً إلى محلة التجاري لأمر مهم، ترك بعض النقود في داخل غرفته، وهذه المرة خبأها في مكان غير الدُّرج الذي تعود ترك النقود فيه، وغادر البيت بعد أن أخبر زوجته أنه سيتأخر في الليل. لكنه عاد بعد ساعة بشكل مفاجئ ليجد أن الفلوس قد اختفت.
- هل خرجت من البيت يا سعاد؟
- لا يا حبيبي. هل ستقول لي النقود مرة أخرى؟

- نعم.. النقود. هناك من يسرقها من البيت.
- وهل تركتها في الدُّرج أيضاً؟
- لا. هذه المرة كانت في مكان آخر.
- أين؟
- لا أعرف.
- أرأيت؟ أنت تنسى.

كان رأس نبيل يكاد ينفجر، يريد معرفة ما يدور حولة. من غير المعقول أن يكون أكثر تجار السوق نجاحاً وشهرة ويعجز عن معرفة سر اختفاء النقود. سرح تفكيره في البعيد، وصار يتمتم متوعداً من يقف خلف سرقته.

لعل أفضل حلّ ألا أترك نقوداً هنا. هذا مريح لي تماماً لكن من يسرق النقود اليوم سيسرق أشياء أخرى غداً. ثمة سر يجب اكتشافه.

عاد نبيل إلى شكوكه بزوجته؛ هل يمكن أن تفعلها لتعطي النقود لأهلها الفقراء. لكني أساعدهم بين الحين والآخر. إذاً لم يبق سوى الاحتمال الأخير. نعم هو. سأجد حلاً له.

خرج نبيل من البيت في اليوم التالي متوجهاً إلى العمل، وهو يفكر بأمر النقود وعازم على وضع حد للسارق. بعد الظهر، ترك المحل للموظفين، وتوجه إلى أحد المشعوذين الذين يدعون أنهم على صلة بالجن.
شرح له قصته وطلب مساعدته.

قال له المشعوذ:
- حسب أقوالك، هناك لص يدخل بيتك من الجان وعلينا طرده.

وبدأ يشرح له كيف يطرده، وقدم له المشعوذ بعض أنواع البخور وحجاباً طلب من نبيل وضعه مع النقود التي يتركها في البيت. فعل نبيل ما أمر به المشعوذ، وترك البيت، لكنه هذه المرة اختبأ في سيارة أجرة استأجرها خصيصاً وأوقفها قريباً من العمارة التي يسكن فيها.

بعد ساعة لاحظ رجلاً غريباً يدخل العمارة فلحق به ليرى إن كان سيدخل شقته. وما أن وصل العمارة، كان الرجل الغريب قد صعد الدرج وعاد أدراجه.
نظر نبيل إليه وسأله:

- هل يمكن مساعدتك؟
- شكرا لك. لقد أنجزت مهمتي.

صعد نبيل بسرعة إلى البيت، فتح الباب بمفتاحه فلم يفتح. نقر الجرس بأصابعه، ففتحت له زوجته. دفع الباب دخل مسرعاً إلى مكان النقود فلم يجد شيئاً، لكنه وجد الحجاب.
- هل كان أحد عندك الآن؟
- نبيل.. ألا تكف عن هلوساتك؟
- سعاد.. يجب أن تساعديني في إيجاد النقود وإلا جننت.
- حبيبي.. أنت فعلاً بحاجة إلى طبيب نفسي. لعلك تعيش في أوهام.

ها هو يعود إلى شكوكه مرة أخرى؛ لا بد أنها تتعرض لعملية ابتزاز من الرجل الغريب. ربما كانت على علاقة سابقة معه، ويهددها بفضحها.

حاول أن يستوضح من زوجته إن كانت تتعرض إلى تهديد من أحد فأعادت عليه اقتراحها.
- نبيل.. أنت بحاجة إلى طبيب نفسي.

وافق نبيل على زيارة طبيب نفسي وشرح له قصته، فقال له الطبيب بعد عدة جلسات: أنت سليم ولا يوجد بعقلك أي شيء. النقود يسرقها أحد سكان البيت.

خرج نبيل من عيادة الطبيب وقد قرر حسم الموضوع خلال أسبوع، حيث فقد ترك هذه المرة النقود مع زوجته لتخبئها في المكان الذي تراه مناسباً، وبعد عودته سألها:
- هل النقود موجودة؟
- طبعاً.
- أحضريها إذاً.

ذهبت لتحضرها من المطبخ، فقد كانت قد خبأتها هناك، لكنها بعد دقائق صاحت:
- نبيل.. نبيل.

لحق بها نبيل، وسألها:
- ما الأمر؟
- سُرقت النقود.
- هل تركت البيت يا سعاد؟

- لا.. لم أتركه.
- سعاد.. أنا لم أعد أصدق ما يحصل!

ذهب إلى الشباك. نظر خارج البيت إلى أسفل العمارة حيث يقطن في الطابق الثاني، فلمح الرجل الغريب خارجاً منها.

زاد غضبه. لم يعد يثق بزوجته، وقرر بلحظة غضب أن أفضل حل طلاق زوجته خصوصاً وأنها لم تنجب له أولاداً بعد.

كان يخاطب نفسه: "لقد تعبت معها. لم أعد أستوعب اختفاء النقود. يبدو أن الشيطان يسكنها، فليتخلص منها الآن قبل أن يغير رأيه."
- سعاد.. أنت طالق.
- تطلقني من أجل النقود؟! سأترك لك البيت الآن.

غادرت البيت تحمل حقيبتها، وجعلت أهلها يتابعون إجراءات الطلاق مع نبيل الذي اضطر لدفع مؤخر الصداق كاملاً، حوالي ربع مليون جنيه.

كان شرطها للزواج مؤخر طلاق عال لتقنع أهلها به.

بعد طلاق سعاد كان نبيل متعباً، فقرر أخذ إجازة قصيرة في شرم الشيخ، وهناك كان منظر البحر، وصفاء المياه تبعث الراحة في نفسه. استراح من العمل وهمّ الزبائن. لم يعد يقلقه سرقة النقود، فلم تعد تسرق كما كانت من قبل. في المساء كان مسروراً وهو يجلس في أحد المقاهي المزدحمة، يدخن الشيشة والناس أمامه في الشارع من بلدان كثيرة كأنهم في أيام الحجيج.

فجأة لمح سعاد تسير متأبطة ذراع رجل. دقق النظر جيداً، فإذا به الرجل الغريب نفسه الذي كان يدخل العمارة التي يسكن فيها. احمر وجهه غضباً. زادت سرعته في تدخين الشيشة. بدأ رأسه يذهب يساراً ويميناً. لم يصدق عينيه.. أيكون غبياً إلى هذا الحد؟!

صار يتذكر كلامها: "حبيبي.. أنت بحاجة إلى طبيب نفسي!!"

اللعينة! تريد أن تجعل مني مجنوناً كي أطلقها فتحصل على مؤخر الطلاق. كم كنت غبياً؟ كان أصدقائي يسألون: لماذا مؤخر الصداق كبير؟ فأقول لهم: لا تقلقوا.. لن أطلقها، فأنا أحبها.

ترك نبيل الشيشة وعاد إلى البلد وهو يفكر بردٍّ يعيد له كرامته.

عادت سعاد من إجازتها مع حبيبها الجديد القديم الذي كانت تحلم بالزواج منه، لكن ظروفه المالية لم تكن تسمح بذلك، فلجأت إلى التآمر على زوجها الأول التاجر الغني لتحصل منه على نقود تساعدها في شراء شقة عشها الثاني.

بعد عدة شهور، وبينما كان زوجها في العمل، رن جرس الباب قبل الظهر بقليل. نظرت من عدسة الباب فرأت رجلاً بهيئة ساعي البريد يحمل ورقة ورسائل في يده.
فتحت الباب، فبادرها:
- هل أنت سعاد...؟
- نعم.
- يوجد لديك رسالة مسجلة، أرجو توقيعك هنا.

قدم لها الورقة لتوقع عليها، ثم قال لها:
- آسف.. لقد ضاع القلم مني. ألديك قلم في البيت؟
- عن إذنك.

دخلت لتبحث عن قلم، فلحقها وأغلق الباب وراءه.
سألته بغضب:
- لماذا لحقتني إلى داخل البيت؟

رمى حقيبة الرسائل بعد أن أخرج مسدسه، وقال لها آمراً:
- لا ترفعي صوتك وإلا فرغت المسدس برأسك.
- أرجوك لا تفعلها. حرام. خذ كل النقود.

أخرج حبلاً من حقيبته ربطها فيه، ثم لفّ فمها بلاصق (لصيق) قويّ كي لا تصرخ.
بعد ذلك، طلب منها الجلوس على الكرسي.
بحركة سريعة أخرج العدستين اللاصقتين عن عينيه.
رفع باروكة الشعر عن رأسه، ثم قال لها بعد أن أعاد الحديث بصوته الطبيعي:
- هل تعرفين من أنا؟

حركت رأسها ثم تمتمت، لكنه لم يفهم شيئاً لأن صوتها لا يخرج من فمها.
قال لها:
- لن أقتلك لأنك سرقت النقود، لكن لأنك تآمرت عليّ أنت والقواد زوجك الجديد. منذ عرفتك كنت تتآمرين عليّ. توهميني بحبك وبعد ذلك خدعتني، استغفلتني.

انتظر نبيل حتى عاد زوجها، فما أن دخل البيت حتى ألحقه بزوجته سعاد.
وقف أمامهما ساخراً منهما. وجه إليهما مسدسه الكاتم للصوت وأطلق الرصاص عليهما. بقيت في المسدس رصاصة واحدة، قرر الاحتفاظ بها.

كان يشعر بقتلهما بلذة الانتقام.

لقد خدعاني ما فيه الكفاية. كنت أصدق أنها تحبني. اشتريت لها كل ما تمنت، وكلما كنت أسألها متى ستحبلين؟ تقول لي: عندما يشاء الله.

آهٍ كم كنت غبيا! تركت وغداً كزوجها الجديد يخدعني ويتآمر عليّ معها.
كيف كنت أذهب إلى المشعوذ، وإلى الطبيب النفسي لأستعين بهما؟
حقاً كنت غبياً، ولأنني غبي أستحق الرصاصة الأخيرة.
وجّه المسدس إلى رأسه، وأطلق الرصاصة الأخيرة.

جورج حبش

كان يحمل صندوقاً كرتونياً على كتفيه، يهم بدخول باب العمود متوجهاً إلى البلدة القديمة في القدس حين أوقفه ثلاثة جنود إسرائيليين كانوا يقفون عند مدخل الباب يراقبون حركة الناس، ويتسامرون معاً غير آبهين بشيء.
كان الزمن نهاية سبعينيات القرن العشرين.

اشتبه أحد الجنود بالصندوق، فتوجّه إلى حامله وصاح به بلهجة عربية مشوبة بالعبرية:
- إنت بوهنا (أنت تعال).
توقف الرجل متفاجئاً، فلم يتعود أن يطلب منه أحد التوقف، فالشعر الأبيض الذي يغزو رأسه كان يشفع له دائماً فلا يوقفه أحد.
تمسمر في مكانه، ثم أشار بيده إلى صدره وسأل الجندي:
- أنا؟
- كين إنت (نعم أنت).
فذهب الرجل إليه. سأله الجندي على الفور:
- هوية؟ (بطاقة الهوية).
أخرج الرجل البطاقة من جيبه، وقدمها إليه.
كانت بطاقة حمراء تشير أن صاحبها من الضفة الغربية وليس من القدس. دقق الجندي في البطاقة، ثم نظر إلى الرجل، حك رأسه ثم عاد يدقق. ظلت عيونه تراقب حركة الرجل. وضع يده على الزناد. تراجع قليلاً، ثم همس للملازم المسؤول في المجموعة.
ابتعدا عدة خطوات عن الرجل، فيما كان الثالث يراقب حركة الناس وعيونه على الرجل. قدّم الجندي البطاقة إلى المسؤول وهمس له عدة كلمات.
نظر المسؤول يعقوب في البطاقة، ثم دقق النظر في وجه الرجل. نظر إلى الجندي عزرا وقال له:
- إنه هو.
- هل نسأله عن اسمه؟ هل نتصل بالقيادة؟
- لا داعي. سنعملها لهم مفاجأة.

تهامسا، تغامزا، ثم هجما فوراً على الرجل. قيّداه وحملا صندوقه الكرتوني وتوجه ثلاثتهم ومعهم السجين الجديد إلى سيارة الجيب العسكرية القريبة، وتوجهوا من هناك إلى المسكوبية القريبة من المنطقة.

كان المارون يراقبون ما يجري باستغراب، فالرجل لم يفعل شيئاً، ولا يظهر عليه أيه علامات الشبهة.
سألهم عندما قيدوه:
- ماذا تريدون مني؟
- اخرس، يا حبلان (يا مخرب).

كان الرجل يعرف معنى حبلان (مخرب)، فعرف أنهم اشتبهوا به.
حاول أن يشرح لهم أنهم أخطأوا في...
لم يتركوه يكمل. ضربوه في صدره بعقب البندقية، فأحس أن صدره ينخلع، توقف عن الحديث وهو يلعن الجنود وإسرائيل، وحظه التعيس.

وصلوا المسكوبية. دخلوا فورا إلى مكتب القيادة، يجرونه أمامهم. طلبوا منه الجلوس في إحدى الغرف. أغلقوا عليه الباب. توجه مسؤولهم إلى القائد المسؤول. همس في أذنه، ثم قدم له بطاقة الهوية.
نظر إليه القائد مستغرباً ثم سأله:
- هل أنت متأكد؟
- نعم.. إنه هو في الغرفة رقم ثلاثة.
هز القائد رأسه. لم يصدق. قلب بطاقة الهوية شمالاً ويميناً. دقق في الصورة. حمل البطاقة وتوجه إلى غرفة رقم ثلاثة. فتح الباب. دقق النظر في المعتقل الجديد، ثم عاد بابتسامة ساخرة.
لا يمكن أن يكون هو، فصورته عندنا تختلف كثيراً، ثم كيف يأتي إلى هنا؟ هل غير شكله؟ هل تسلل للقيام بعمليات عسكرية؟؟

- لكن كيف يحمل بطاقة هوية إسرائيلية؟ كيف حصل عليها؟
أخذ القائد بطاقة الهوية وتوجه إلى قسم التحقيقات، وسألهم إن كانت البطاقة أصلية فقالوا له إنها أصلية وليست مزيفة، وإن صاحبها من بيت لحم.
حمل القائد البطاقة وقال لنفسه:
- ما أغبانيا! لو كان هو لما استخدم الاسم نفسه.
هل هو غبي؟ ربما.
توجه إليه في الغرفة التي احتجزوه بها. سأله:
- ما اسمك؟
- جورج حبش من بيت لحم. أنا...

فقاطعه:
- أين ولدت؟
- في بيت لحم.

تركه ثم ذهب إلى مكتب القيادة، وبعد دقائق عاد مع شخص آخر يضع عدة نجوم على كتفه يحملان صوراً وعدة أوراق، وتوجّها إلى جورج حبش مرة أخرى، نظرا إليه ودقّقا النظر. بعد ثوان نظر كل منهما إلى الآخر، ثم بدؤوا يضحكون بصوت عال.
- يا لنا من أغبياء!
سأله أحدهم:
- لماذا اسمك جورج حبش؟
- لا أعلم. أبي سماني جورج، ونحن من عائلة حبش.
- هل تعرف زعيم المخربين جورج حبش؟
- لا.. لا أعرفه.
- هل هو قريبك؟
- أبداً. عائلتنا من بيت ساحور، وبيت لحم.
- ماذا تحمل في الصندوق؟
- قطعاً خشبية للتحف كنت متوجهاً إلى أحد المحلات لبيعها في شارع الواد.
نظرا إلى التحف، قال أحدهم:
- تحف جميلة. هل أنت الذي تصنعها؟
- نعم.
- حسناً.. احمل صندوقك وانصرف.

خرجا إلى الجنود. تقدم القائد ذو الرتبة الأقل وقال لهم:
- هذا ليس هو، إنه يحمل الاسم نفسه.
قدّم لهم صورته التي يحملها وقال لهم:
- انظروا.. هذا جورج حبش الذي نبحث عنه.
نظر الجنود إلى بعضهم. احمرت وجوههم. شعروا بالخجل، لكنه أنقذهم من ورطتهم قائلاً:
- لكنكم أحسنتم عملاً، وسآمر بدفع مكافأة لكم على انتباهكم وحسّكم الأمني العالي.

"الآيفون"

عاد شوقي من "شيكاغو" إلى "سنسناتي" في ولاية "أوهايو" الأمريكية حيث يقيم بعد أن أمضى فيها عدة أيام لحضور مؤتمر خاص بالشركة التي يعمل بها، وكان متعباً جداً، توّاقاً للوصول إلى البيت لرؤية زوجته التي اشتاق إليها كثيراً هذه المرة حتى أنه تمنى لو أنه أخذها معه.
كان طوال الطريق أثناء عودته مشغولاً بسؤالها المتكرر له على الهاتف:
- أين كنت ليلة أول أمس؟
على الرغم من تأكيده لها أنه كان في الفندق نائماً بعد أن تعب من كثرة الاجتماعات وتحضير الأوراق، إلا أنها يبدو لم تصدقه، خصوصاً أنها أعادت عليه السؤال بطرق ملتوية:
- كيف كانت سهرتك ليلة أمس الأول؟
- ألم أقل لك إنني لم أسهر ونمت مبكراً؟
- آسف حبيبي. نعم قلت لي، لكنني نسيت، فقد قلقت عليك كثيراً لأنني كنت متشوقة لسماع صوتك.

دخل شوقي البيت، فاستقبلته زوجته بفتور باد على وجهها على الرغم من محاولتها الظهور بمظهر المشتاق إليه. كيف يجهل ذلك وهو الذي تعود على ردّات فعلها، وعرف معنى كل حركة من حركات وجهها؟ كيف يجهل ذلك وقد أصبح خبيراً بمشاعر زوجته؛ يعرف متى تكون باردة، ومتى تكون في قمة تأججها؟

ضمها إلى صدره. قبّلها بحرارة. نظر في عينيها طويلاً مرسلاً لها رسالة صامتة لعلها تفهمها دون الحاجة للكلام.
لم يفتح الموضوع معها لعلها تعود لفتحه مرة أخرى عندما تهدأ أعصابها.

كانت هيام تغلي في داخلها. حاولت أن تكتم مشاعرها ولا تفصح عنها. تظاهرت بالسعادة، فهي لا تريده أن يعرف ما عرفته عنه. لا تريد أن تكشف سره إليه حتى لا يأخذ حذره في المرة القادمة. مَن يعرف لعلها تضبطه متلبساً!!
كانت تسأل نفسها طوال الوقت:
- هل حقاً يفعلها؟ ألا يمكن أن يكون بريئاً؟ لكن لماذا لا يريد الاعتراف بما فعله تلك الليلة؟ لو كان بريئاً لاعترف أين كان.
ما زال يعتقد أنه ذكي، وباستطاعته خداعي كما كان يفعل من قبل، لكن هيهات، فأنا اليوم امرأة تجيد ربط الخيوط ببعضها.

توقفت عن التفكير للحظات. سألته إن كان يريد أن تحضر له العشاء الآن، فقال لها:
- شكراً حبيبتي. لقد تعشيت قبل عودتي. أنا الآن متعب. أريد أن أستريح قليلاً. ما رأيك بكوب من الشاي؟
هزت رأسها وقالت:
- تكرم عينك يا أحلى شوقي.

بعد دقائق أحضرت كوبين من الشاي وجلست مقابله. دققت في عينيه، وابتسمت، فسألها:
- ما الذي زرع البسمة على شفتيك؟
- وهل هذا يحتاج لسؤال؟
- أهو أنا؟
- طبعاً حبيبي.
- لكنني ألمح بعض الغضب في عينيك!
- وكيف عرفت؟
- هيام.. لا أحتاج لتفسير، فأنا أعرفك جيداً، وأعرف كل حركاتك. قولي ما الذي يزعجك؟
أرادت الهروب من الجواب، لكن شيئاً بداخلها دفعها لتُخرج ما في جعبتها:
- ألا تريد أن تقول لي أين سهرت ليلة أول أمس؟
- ألا تزالين غير مصدقة؟
- أريد أن أصدقك، لكن معلومات وصلتني غير ذلك.
- وماذا وصلك؟ هل تتجسسين علي؟
- كلا، ولكن حصلت صدفة.

- وما الذي حصل؟
- في تلك الليلة اتصلت بك على هاتفك فلم ترد، بل كان الهاتف مغلقا للأسف، فثارت مخاوفي، واعتقدت أن مكروهاً أصابك.
- شكراً لمشاعرك تجاهي، وماذا بعد؟
- اتصلت بالفندق حيث تقيم، فقالوا لي إنك غير موجود بالغرفة.
- نسيت أن أقول لك إنني كنت نائماً في غرفة زميلي في الشركة.
ضحكت بخبث:
- زميلك بالشركة؟ ولكني اتصلت بعد منتصف الليل فسمعت الجواب نفسه.
- قلت لك إنني نمت في غرفة زميلي، كنا مجموعة من الزملاء في غرفة سامي، فاستلقيت على السرير للاستراحة، وذهبت في نوم عميق، وقرر زميلي عدم إيقاظي، وتركني نائماً في غرفته.
- وأين نام هو؟
- بقي ساهراً مع الأصدقاء حتى الصباح.
- وأنت نائم؟ وهاتفك مقفل؟
- نعم.. نائم، وما الغرابة في ذلك، لكن لا أعرف لم كان الهاتف مغلقاً.
- هل كانت بطاريته منتهية الشحن؟
- لا أعتقد، لكن هلاّ تأكدت أنك اتصلت على الرقم الصحيح؟
- هل تستغبيني؟ أنسيت أنني أنا التي اشترت لك الهاتف كهدية في عيد ميلادك وعلّمتك كيفية استخدامه؟
- يا إلهي، وهل هذا كله مدعاة للغضب؟ لقد اتصلت بك في الصباح وانتهى الأمر.

ضحكت بصوت عال ثم قالت:
- لا طبعاً. هنا بدأت المشكلة.
- كيف؟ وماذا بعد؟
- ذهبت للشبكة، وتابعت موقع هاتفك، فأنا التي اشترته ومسجل باسمي، فعرفت حسب المعلومات من الشركة أن هاتفك كان في ولاية "إنديانا."
-" إنديانا"؟ ما هذا الهذيان يا زوجتي؟ حتى لو كنت أريد الذهاب إلى "إنديانا" فهل كنت ستمانعين؟
- لا طبعاً.
- إذاً ما مبرر أن أخفي عنك الخبر؟
- لا أعرف، لكن إنكارك هو الذي أقلقني.
- لكني فعلاً لم أكن إلا نائماً في الفندق.
- وكيف أصدق كلامك وأكذب الشركة؟ أنت تعلم أن هناك خدمة للآيفون تستطيع أن تعرف في أي مكان هاتفك إن ضاع منك.
- حتى لو كان ذلك صحيحاً، فهذا لا يغير من كوني كنت في الفندق.

- ربما، لكني لست متأكدة.
- ألا تصدقيني؟ كُفي عن وساوسك، وحدثيني كيف أنت الآن؟
- بخير ما دمت أنت بخير.

بعد أيام شابت علاقته مع زوجته الفتور. قرر أن يزور صديقه سامي مع زوجته، حيث كان في استقبالهما هو وزوجته وأولاده. كانت سهرة شيقة عرج فيها الصديقان للحديث عن مؤتمر الشركة الذي عقد في شيكاغو، والسهرات الحلوة التي قضوها معاً مع بقية الأصدقاء. قال سامي لصديقه شوقي:
- لكنك خسرت سهرة واحدة عندما نمت في غرفتي.
هزت هيام رأسها، وهي تستمع لسامي، وقالت في سرها:
- يبدو أنه اتفق مع صديقه للحديث أمامي عن هذا الموضوع.
فردّ شوقي على سامي قائلاً:
- هل تقصد أنكم ذهبتم للسهر وتركتموني نائماً؟
- بالتأكيد.
- ولماذا لم توقظوني لأذهب معكم؟
- كان شخيرك يملأ الغرفة، فتركناك في غرفتي وخرجنا.
- وإلى أين ذهبتم؟
- إلى مطعم في "إنديانا" على الحدود مع ولاية "إلينويس".
- ولكنه بعيد من هناك.
- ساعة بالسيارة. كنا مسرورين بذلك.
تذكر شوقي اتهام زوجته له بأنه كان في "إنديانا"، فسأله:
- لكنك لم تخبرني في اليوم التالي.
- هل تذكر عندما استيقظنا متأخرين وذهبنا فوراً للمؤتمر، لم يكن لدينا وقت للحديث عن ذلك.
فقالت هيام مازحة:
- لا أصدق أن شوقي لم يذهب معكم. فقد كانت الشركة تشير أن هاتفه كان في حدود "إنديانا".
ضحك سامي، وقال:
- يبدو أنني نسيت أن أقول لكم، قبل ذهابنا للسهرة إن هاتفي الآيفون قد فرغ من الشحن، ولم يكن لدي وقت لشحنه، ولأنني لم أحمل معي شاحناً للسيارة، فقد أخذت هاتفك معي.
- لكني اتصلت بشوقي وكان الهاتف مغلقاً.
- هذا لأني استبدلت الشريحة في الهاتف، فقد وضعت شريحتي في هاتفه وشريحته في هاتفي غير المشحون فكان مغلقاً لا يستقبل أية مكالمات.
فعلق شوقي لتسمع زوجته مع أنه كان يتحدث لسامي:
- لقد أقلقت هيام يا سامي، فقد اتصلت بي أكثر من مرة فلم أرد.

- آسف جداً. أعترف بذنبي، لكن لم يكن لدى طريقة أخرى، وكان نائماً. لكن لماذا لم تتصلي بي يا هيام وتسأليني لماذا زوجك لا يرد على الهاتف، فأنت تعرفين أننا معا، وسبق لك واتصلت تسألينني عنه في مناسبات كثيرة؟
- لم يخطر ببالي أن يكون نائماً في غرفتك، وأن هاتفه مغلق.

في الطريق إلى البيت قالت هيام لزوجها:
- آسفة جداً، لكن ما حصل كان يثير الشك في قلبي. لو كنت مكاني ماذا ستفعل؟
قال لها بعد أن شعر بنشوة الانتصار:
- لن أنام الليل حتى أسمع صوتك.
- إذاً هل تلومني عما فعلت؟
- أكنت تخشين أن أكون مع إحداهن؟
ابتسمت وقالت:
- الشيطان لعب برأسي.
- أتغارين عليّ يا هيام؟
ابتسمت وقالت:
- بلى، ولم لا أغار عليك؟
ضحك ثم قال:
- أرجو أن يستمر الشيطان باللعب برأسك.
قرصته في جنبه الأيمن، وقالت له:
- لماذا تحب ذلك؟
- لأنني أحياناً أحب غيرتك علي حتى لو كانت بدون سبب.

انتقام زوج

طلق زوجته بعد ثلاث سنوات من زواجه غير آبهٍ بطفله الصغير الذي حرمه من أمه، ولم يكتف بإعادة زوجته إلى أهلها بعد دفع مهرها المؤجل، بل قررَ الزواج من فتاة أصغر منها سناً قبل انتهاء عدته من زوجته الأولى ليغيظها، ويشفي غليله منها، لأنها كما يقول لم تعد تسمع كلامه، ولم تنفذ أوامره ما أجبره على طلاقها.

كعادة أهل الخليل في فلسطين، فقد توجه في أواسط ثمانينيات القرن العشرين وفدٌ من النساء مع عدد محدود من الرجال لاصطحاب عروسهم إلى مكان الاحتفال ثم إلى بيتها الجديد، وقد اصطحبهم أهل العروس في موكب كبير من بيت أهلها إلى مقر العريس (الاحتفال). كانت السيارات كثيرة من العائلتين، مزينه بالورود، والبالونات، والمنبهات تصرخ من كل السيارات تخبر الناس بالمناسبة السعيدة، والناس يطلّون من نوافذهم متسائلين من يكون صاحب هذا الموكب الكبير؟

اختار العريس الذي كان في السيارة الأولى مع العروس ووالدته ووالدتها الطريق الأبعد للوصول إلى قاعة الاحتفال في مقر ديوان عائلته ليمر بالموكب من أمام بيت أهل مطلقته، فقد أراد أن يغيظها حتى اللحظة الأخيرة. وعندما وصل موكب العرس أمام بيت أهل مطلقته بالقرب من مدرسة طارق بن زياد وسط الخليل، مد يده للمنبّه وضغط عليه دون توقف، فاستجاب له أقاربه وضغط كل منهم على منبه سيارته، ما أزعج السكان، وأثار أهل المطلقة، وأغضبهم، فشعروا بالإهانة، فغلا الدم في عروقهم، وعندما لاحظوا أن سيارة العريس تبطئ من سيرها متعمدة إثارة كل هذا الضجيج، قرروا مهاجمة الموكب بالحجارة والأسلحة البيضاء والعصي، وكان لهم أقارب يسكنون بجوارهم فشاركوهم الهجوم. وعندما شاهد أهل العريس والعروس الجديدة الحجارة تنهال عليهم حاولوا الدفاع عن أنفسهم، فاشتبك الطرفان بمعركة لم يحسب أهل العريس حسابها.

كانوا في الطريق إلى الاحتفال بابنهم لا يحملون العصي ولا السكاكين، فيما أهل المطلقة متمترسون في بيوتهم، مسلحون بكل أنواع الأسلحة غير النارية، والشرر يتطاير من عيونهم.

أكثر من ساعة والمعركة دائرة لم تتوقف إلا بسقوط القتلى والجرحى من الطرفين. كان العريس أحد المصابين بجرح بليغ في بطنه. أعلنت الهدنة بين الطرفين بعد توسط الجاهة المكونة من وجهاء الخليل برئاسة الحاج محمد موسى أبو سنينة حتى عودة الجرحى إلى بيوتهم، والتزام أهل العائلتين بالاتفاق، وابتعد كل منهم عن الاحتكاك أو التواجد في منطقة العائلة الأخرى. كان عدد القتلى أربعة؛ اثنان من كل طرف، والجرحى أكثر من ثلاثين أكثرهم من أهل العريس. أما عائلة العروس الجديدة فلم يصب أحد منهم، فقد كان الرجال المتواجدون منهم قلة، فالعادة تقضي أن يصطحب العروس نساء عائلتها وبعض أقاربها المقربين كوالدها، فيما يتوجه الآخرون مباشرة إلى قاعة الاحتفال.

بعد ثلاثة أيام كما جرت عليه القوانين العشائرية التي تتبعها الجاهة، تم تحديد الهدنة لفترة أخرى (شهر) لتهدأ النفوس، ويصبح بالإمكان إصلاح ذات البين.

لم يستطيع العريس إقامة الاحتفال بعد وفاة بعض أقاربه، ولكن العروس الجديدة أصبحت زوجته، فقد عقد قرانها، ونقلت من بيت أهلها، فاضطر الانتقال معها إلى عش الزوجية دون احتفال ولا طبل ولا زمر ما أشعرها بالحزن، فيما شعر هو بالهزيمة خصوصاً بعد أن حمل عليه أقاربه واتهموه بإثارة كل تلك المشاكل باستفزاز أهل مطلقته دون مبرر.

أهل القتلى وبعض الجرحى من عائلته لاموه على فعلته وقاطعوه.

بعد شهر اجتمعت الجاهة بحضور وفد كبير من وجهاء الخليل، وقضائها، ومخاتيرها، وكبار عائلاتها، وحاراتها، وحمائلها، مع وفدين كبيرين من أهل العائلتين المتخاصمتين.
وقف الحاج محمد موسى أمام الجميع، ليبدأ حديثة بالصلاة على النبي محمد، والحديث عن الصلح سيد الأحكام، ويدين الاقتتال كوسيلة لحل الخلافات العائلية. حول القتلى والجرحى من الجانبين أعلنت الجاهة أن كل عائلة تتكلف بقتلاها وجرحاها لأن كلا منها لديها قتلى وجرحى.

وحول مجرى الخلاف من البداية فإن أهل العريس يتحملون المسؤولية، وعليهم أن يدفعوا الحق الواجب عليهم لأهل العائلة الأخرى. لكن من أجل أن تصفى النفوس، ويحل الوئام محل الخصام، ومن أجل أرواح الأبرياء الذين سقطوا من الطرفين، نتوجه إلى أهل العائلة المتضررة بضرورة التنازل عن حقهم.

بعد انتهاء كبير الجاهة من حديثه، وقف عدة أفراد من شخصيات الخليل ليثنوا على كلامه، ويناشدوا الجميع التسامح وعدم إثارة الأحقاد، وضبط الشبان المنفعلين من كلا العائلتين.

على الفور وقف وجيه عائلة المطلقة، وأعلن أنه استجاب لهذه الجاهة الكريمة، وللنبي محمد (ص)، ومن أجل التسامح وإنهاء الخصام، ثم قال:
- نتنازل عن حقّنا، ونضمد جراح أبنائنا، ونترحم على أبنائنا الذين قتلوا، وندعو لهم ولنا ولكم جميعاً بالرحمة.

أهل القتيلين من عائلة العريس لم يعجبهم القرار على الرغم من التزامهم به، وطالبوا العريس بتعويضهم عن مصابيهم خصوصاً وأن احد القتيلين ترك ثلاثة أطفال وزوجته. وأمام ضغط مجلس العائلة فقد اضطر العريس أن يدفع معظم ثروته إلى أقاربه من أهل القتيلين. بعد انتهاء الخلافات، جلس معه أبوه على انفراد وقال له:
- يا بني.. لقد حملتنا أوزاراً كثيرة بسبب طيشك.
هز العريس رأسه وقال:
- لو كنت أقرأ الغيب ما أقدمت حتى على طلاقها. لعن الله الشيطان الذي وسوس لي وأثار صمتي.

الزوج البارد

لم تصدق رندة أن زوجها أصبح بارداً جنسياً بهذا السن المبكر، فهو لم يصل الأربعين بعد. لهذا بدأت تزورها الهواجس، ولم يكن صعباً عليها أن تصل إلى النتيجة التي تصل إليها كل امرأة يبدأ زوجها بهجرها في الفراش لأسباب وذرائع، لا تصمد أمام الواقع.

فمرةً يأتي تعباً ويريد الخلود للراحة، ومرة أخرى يتذرع أنه قلق ومشغول في العمل، وعندما يأتي أسبوعها الشهري يحاول أن يثبت رجولته، ويتظاهر بأنه فوجئ بوضعها الطبيعي.

لم تستسلم رندة لأحابيل زوجها، وبدأت تراقب اتصالاته وبريده الإلكتروني، لكنه كان ذكياً على ما يبدو، فأحاط كل ذلك بكلمات سرية لا يعرفها غيره.

قالت له في أحد المرات:
- لماذا تحمل هاتفك الخلوي في كل مكان تذهب إليه في البيت حتى في الحمام؟
- عزيزتي هناك مكالمات كثيرة تأتي لي من تجار وأصحاب عمل، وأفضل أن أرد عليها فوراً.
- إذاً لماذا تغلق الهاتف عندما تذهب للنوم؟
- حتى لا يزعجك رنين الهاتف بالليل.
- ألهذا السبب فقط؟
- طبعاً، ولمَ إذاً؟
- هل لك أن تعطيني الهاتف لأتفرج عليه؟
- ألهذا تريدينه أم لتبحثي عن رسائل هاتفية؟
- أرأيت؟ ها أنت خائف!
- حسناً تفضلي تفرجي وأعيديه لي.

أخذت الهاتف الخلوي منه، وبدأت تبحث عن الرسائل الصادرة والواردة، فلم تر شيئاً. قالت في نفسها: غريب! أين ذهبت الرسائل؟ فقد وصله قبل قليل رسالة سمعت صوتها.
سألها:
- بماذا تفكرين؟
- ألم يأتك رسالة قبل قليل؟
- نعم.
- أين هي؟ لم أرها.
- مسحتها يا عزيزتي.
ضحكت كمن يشعر بالنصر، ثم قالت:
- آ... لماذا مسحتها يا عزيزي؟ ألا تحتفظ برسائلك في الأرشيف؟
- لا.. لا أفعل ذلك لأنها رسائل غير مهمة.
- يبدو أنها من صديق لك؟
- أو صديقة؟ أهذا ما تريدين الوصول إليه؟
- لا.. لم أقصد ذلك. أنت الذي قلتها.
- أعطيني الهاتف، فقد تفرجت عليه ما فيه الكفاية، وكفي عن وساوسك النسائية.

تركته وهي تضغط على شفتها السفلى بأسنانها، فلم يقنعها ذلك الحوار بشيء، بل زاد من وساوسها. قررت ألا تتركه ينعم بمتعه الجديدة، فإما هي أو العشيقة الجديدة.

فجأة استيقظت صباحاً على صوته في الغرفة المجاورة يتحدث مع امرأة أمريكية، ويتواعد معها. اللقاء في مطعم الباراجون، الواقع في شارع الـ 95 في جنوب شيكاغو.
وبعد أن غادر البيت إلى العمل، ذهبت واستأجرت سيارة أجرة، كي لا يلاحظ سيارتها، وكمنت له في المطعم المذكور، وفعلاً شاهدته يلتقي بها. تناولا طعام الغذاء معاً، وتبادلا أطراف الحديث، وكان بين الفينة والأخرى يضحك معها، ويمد يدها إلى يدها.
شاطت زوجته غضباً، كادت أن تهجم عليه، لكنها استطاعت أن تضبط أعصابها، فغادرت المكان ثائرة، تنتظر لحظة عودته لتفتح معه تحقيقاً لم يتوقعه في حياته.

ما أن دخل زوجها البيت بعد عودته من العمل حتى بادرته:
- هل كان اللقاء ممتعاً؟
- أي لقاء؟
- مع العشيقة.
فهم قصدها. ضحك ثم قال:
- ألا تكفّي عن وساوسك؟
- لماذا تهرب من الإجابة؟
- رندة.. أرجو أن لا تذهبي بعيداً.، ابحثي عن الحل في بيتك هنا.
- دعني من ألغازك، فقد حيرتني، مَن هذه العشيقة الأمريكية؟ لا تنكر، فقد رأيتكما بعيني في مطعم الباراغون.
قهقه طويلاً ثم بدأ يغني أغنية "لا تكذبي":
إني رأيتكما، إني سمعتكما، عيناك في عينيه...
قاطعته غاضبة:
ألكَ مزاج للغناء بعد خيانتك؟
- أتتجسسين علي؟
- أتخونني؟
- يبدو أن عينيك قد خانتاك يا رندة.
- رأيتك بعيني هاتين اللتين...
قاطعها:
- لا تكملي. عزيزتي هذه مندوبة بنك أوف أمريكا جاءت لتراجع معي طلب القرض الذي تقدمت به شركتنا للمشروع الجديد الذي سنقيمه.
- طبعاً ماذا ستقول؟
- يا رندة.. لا تجعلي الغيرة تضع غشاء على عينيك.
- هذه ليست وساوس إنها حقائق.. هل نسيت؟

- أنسى ماذا؟
- أنـ.. ك لا تقوم... بواجبك.
- لا تكملي. أعرف.
- وكيف تفسر ذلك؟ أنا زوجتك وأعرفك.
- حاولت يا حبيبتي أن أوضح لك أكثر من مرة، لكنك لم تفهمي علي، وتعاملت مع الموضوع بإهمال. هل تذكرين؟
- أي موضوع؟
- لا أريد أن أحرجك.
- يبدو أنك تحاول الهروب من جريمتك.
- الجريمة الكبرى لا تظهر للعين في معظم الحالات، بل يدركها الناس ببصيرتهم.
- قل ما عندك، فقد تعبت من فذلكاتك الكلامية.
- حبيبتي.. ثمة رائحة كريهة تخرج من....، (صمت قليلاً ثم سألها):
- هل أكمل؟
- أكمل لأرى أكاذيبك.
- رائحة كريهة تتسلل إلى أنفي من تحت إبطيك، وتقتل في كل رغبة، أعرف أنك ذهبت إلى الطبيب، لكنك لم تتابعي الموضوع.
- هل تريد أن تقول لي...
- نعم.
- أنت تختبئ خلف قصة قديمة.
- لا ليست قديمة، فما زالت قائمة. هل تحبين أن أثبت لك ذلك؟
- لا أريد أن أسمع. هذه مبررات... هكذا أنتم الرجال عندما تضبَطون تبحثون عن ألف مبرر.
- صدقيني أنت رهينة وساوسك... العلاقة بين الشريكين يجب أن تكون في وضع نفسي مريح، وهي ليست علاقة ميكانيكية، كالآلة.

فجأة رن جرس هاتفه النقال. قالت له:
- دعني أسمع من المتكلم.
- حسناً.
ضغط على زر السماعة وفتح الخط:
- ألو.. مرحباً.
- أهلاً زياد. (كانت سوزي مندوبة البنك).
- هل هناك نقص في الأوراق المقدمة؟

- لا.. كل شيء على ما يرام يا زياد. أحببت أن أبشرك أن البنك وافق مبدئياً على المشروع. يمكنك البدء في التعاقد مع شركة البناء لتقديم بقية الأوراق...
- هذا خبر جيد تستحقين عليه وجبة عشاء فاخرة.. لكن.. هذه المرة ليس في مطعم الباراجون، بل في مكان آخر ومع زوجتي رندة التي أحب أن أعرفك إليها.
- سأكون سعيدة جداً، وسأحاول أن أدعو زوجي معنا بعد أن نرسل الولد عند جدته. إلى اللقاء.

نظرت إليه رندة. لم تعرف ماذا تقول. قطبت حاجبيها. تركته، ودخلت إلى غرفتها تبكي. لحق بها على الفور حتى لا يتركها وحدها في تلك اللحظة العصيبة، فأكثر ما يقلق المرأة أن تشعر أنها لم تعد تثير شريك حياتها.

جرائم الشباب

كانوا ثلاثة شبان لا عمل لهم سوى ملاحقة الفتيات، والسهر، وشرب الخمر.

لا تسلَم فتاة من ملاحقاتهم، ومعاكساتهم. لا يهمهم إن كانت صبية، أو امرأة متزوجة، أو مطلقة، أو أرملة، أو كبيرة في السن، بل كانوا يتفنّنون في خياراتهم؛ فالمتزوجة يريدونها أن تجرب غير زوجها، والمطلقة أو الأرملة يريدونها أن تعوض فقدان زوجها، أما العذراء فكانوا يتسابقون من يفض غشاء بكارتها، وإن اختلفوا يتراهنون عليها، فمن فاز في السباق تكون وليمته قبل غيره.

أما المرأة الطاعنة في السن فكانوا يتلهّون بها؛ يريدونها أن تستعيد بعض أيام شبابها، لعلهم يكسبون بذلك بعض الحسنات تكفيراً عن سيئاتهم! كان يشجعهم على مغامراتهم وقوع العديد من النساء في شباكهم.

شباب في عمر الورود، كل منهم أجمل من زميله. لدى أحدهم سيارة مرسيدس جديدة اشتراها له أبوه، والآخران يدفعان مصاريف الحفلات والتنقلات، فآباؤهم كلهم من الميسورين الذين تركوا لهم الحبل على الغارب.

في أحد الأيام استطاع سمير صاحب السيارة إقناع إحدى طالبات المدرسة بالخروج معه. لم ترفض عرضه، فقد كانت سيارته جذابة، وتتمنى أن تجلس بها أمام زميلاتها. أوهمها أنه يحبها، وبعد دقائق كان يخترق معها الشوارع إلى شقتهم السرية التي استأجروها لليالي الحمراء.

هناك، بث لها حبه، وغرامه، قبلها بحنان، كانت رائحة عطوره تثيرها، وقبلاته تفتح شهيتها لحب من نوع جديد، وكلما همس لها أحبك تزيد من استسلامها. قالت له: إنها عذراء. فوعدها أن لا يصل إلى المنطقة الحمراء.

كان يتفنّن في إثارتها وهو الخبير بذلك، فاستسلمت له بكل جوانحها، كانت تشعر وهي بين يديه كأنها تطير في عالم الحب الأبدي، فاخترق كل الخطوط والأغشية، ووصل بها إلى رعشة هزت جسمها، وأدخلتها عالماً جديداً.

بعد انتهاء رحلتها الغرامية على السرير، عرض عليها سيجارة، وبينما هما يتحدثان اقتحم عليه البيت صديقه الثاني أكرم الذي كان سمير قد اتصل به وهو في الطريق إلى البيت يعلمه عن صيده الجديد.
قال لها سمير:
- لا تقلقي. هذا صديقي مثل أخي. لديه قدرات مذهلة، جرّبيه ولن تندمي.
تمنّعت في البداية، وحاولت المقاومة بعد أن عرفت أن كل كلمات الحب التي سمعتها كانت مجرد مقدمات لها للاستسلام، لكنها عادت واستسلمت عندما رأت أن لا فائدة من المقاومة.

جلس سمير في غرفة الصالون يشاهد التلفاز تاركاً أكرم يمارس غرامياته بهدوء. اتصل بصديقه الثالث فلاح يسأله لماذا تأخر؟ فقال له:

- الطريق مزدحمة بالسيارات، ولكني على بعد عشر دقائق.
فقال له سمير:
- لا تتأخر قبل أن تضيع من بين يديك.
ثم أسمعه صوت أكرم وتأوهاته القادمة من غرفة النوم.

وصل فلاح إلى البيت. كان الاثنان يشاهدان التلفاز، وهي تستحم في الحمام. قالا له:
- إنها أجمل فتاة عرفناها حتى اليوم.
- أين هي؟
- إنها تستحم. ادخل إليها بالحمام. حممها هناك على راحتك.

ابتسم فلاح وفرك يديه. دخل غرفة النوم. خلع كل ملابسه، ثم دخل غرفة الحمام الملاصقة للغرفة. سمع صوت الماء النازل على جسمها. كانت تبدو من خلف الزجاج الثقيل الفاصل بينها وبينه في قمة أنوثتها. أحست بدخوله. فتحت الباب وأطلت برأسها من الداخل. نظرت إليه. تغير لون وجهها، واستفاقت من سكرتها.

نظر إليها، فأصيب بالذهول. غطى بيديه عورته، ثم رفع يديه يغطي وجهه، ثم أعادها إلى عورته. لم يعد يعرف هل يغطي عورته أم وجهه؟ خرج من الحمام مسرعاً إلى غرفة النوم. لبس ثيابه بسرعة، وعاد إليها مسرعاً. كانت قد أوقفت تدفق الماء عليها بينما بقايا الصابون لا زالت تسيل عن بعض جسمها. صرخ بها بعد أن رآها:
- يا عاهرة.. ماذا تفعلين هنا؟
ارتعبت خوفاً. صرخت:
- أنا بعرضك لا تقتلني.

سمع صديقاه صوت الصراخ فاستغربا ذلك. تقدما باتجاه الحمام، فسمعا صوت لكمات، وضرب. فتحا الباب عليهما، وهجما عليه يمسكانه، ويمنعانه من ارتكاب جريمة. صرخ فيه سمير:
- قلي لي إنها لا تريدك. سأقنعها أنا.
صرخ فيهما بصوت عال:
- اتركاني يا كلاب.. يا سفلة.. يا خونه.. أتفعلانها مع أختي؟!
صرخ سمير:
- أهذه أختك؟
قال أكرم:
- لا نعرف أنها أختك يا فلاح. اهدأ حتى نعرف كيف نفكر.

لكنه لم يهدأ.
كانت الفتاه قد لبست ثيابها بسرعة، وهربت من البيت.

تعارك مع صديقيه. حاولا تهدئته وإفهامه أنهما لم يعرفا أنها أخته، وعندما ظل يكيل لهما الشتائم واللكمات، قال له أكرم:
- إذا كانت أختك تريد ذلك، فلماذا تلومنا؟ هل نسيت ما نفعله مع البنات الأخريات؟ ماذا لو لم تكن أختك، لكنت الآن فوقها تتأوه من السعادة والنشوة.

هدأ قليلاً. أحسن بالصفعات على وجهه. أهذا انتقام السماء منه؟
نظر إليهما. بصق في وجهيهما، ثم خرج لاحقاً بأخته إلى البيت.

وصل فلاح إلى البيت. كان في قمة الغضب والانفعال. طوال الطريق وهو يفكر ماذا يفعل؟ هل يقتلها ويدخل السجن؟ لماذا فعلت ذلك؟ العاهرة، مَن سيتزوجها الآن؟ أختي تفعلها؟

دق باب الشقة، ففتحت له أخته الأكبر الباب. صاح بها:
- أغربي عن وجهي يا وجه النحس، كلكن سفلة.
غضبت أخته الأكبر سوسن لكلامه فصاحت به:
- لماذا تصرخ بي؟ أنا لست ابنتك؟
لم يرد عليها. خرجت الأم من المطبخ تسأل:
- ماذا هناك؟
نظرت إليه. عرفت أنه في قمة الغضب. سألته:
- ما بك يا فلاح؟ ما الذي حدث؟ هل تشاجرت مع أحد؟
لم يرد عليها. ذهب إلى غرفة أخته سامية، التي ارتكبت جريمتها. دق الباب، فلم تفتح.
- افتحي يا حمارة.
- فلاح.. ما بك تصرخ بأختك؟ هل أصابك مس؟
نظر إلى أمه وقال لها:
- هل تعرفين أين كانت ابنتك اليوم؟
فردت بغضب:
- فلاح كفى.
اقتربت منه، وهمست بأذنه:
- فلاح.. لا تسمِع الجيران صوتنا. إن كانت هناك مشكلة انتظر حتى يحضر أبوك، وحدثنا بهدوء، ودون أن تسمع أختك سوسن، أو أخوك عماد عندما يعود مع أبيك من الشركة.

هز رأسه. اقتنع مما قالته أمه، فإن انتشر الخبر للجيران سيعايرونهم بأخته لدى كل مشكلة.

بعد عودة أبيه، اجتمع معه ومع أمه وشرح لهما الخبر.
فانهارت الأم، وصفع الأب ابنه.
- يا حيوان! تترك أصحابك التافهين يضاجعون أختك. تفوه عليك. لماذا لم تقتلهم جميعاً. خسارة أن تكون ابني. هذا كله بسبب مطارداتك لبنات الناس. كم شكوى جاءتني عنك وأنت تقول لي: لا تصدقهم يا أبي، أنا مثل حمام مكة. تدخل على أختك بالحمام عارياً؟ ماذا لو لم تكن أختك لفعلت بها ما فعلاه ولم تحدثني بشيء، حينها ستصبح مغامراتهم مشروعة، وستفتخر بفعلتك الدنيئة.
تفوه عليك وعلى يوم ولدت فيه. الحق مش عليك يا كلب، الحق علي أنا، أنا الذي دللتك كثيراً، وكان يجب أن أتعامل معك كما تعاملت مع أخيك. لقد أصبح أخوك رجلاً يعمل بإخلاص. أما أنت فقد صرت صعلوكاً تدور من شارع إلى شارع.

تركه وذهب إلى غرفتها. دق الباب فلم تفتح، ولم ترد.
فقال لها:
- افتحي الباب يا سامية.. افتحي الباب قبل أن أكسره عليك.
لم ترد.
أحضر ابنه عماد وكسرا الباب. دخل الأب وحده. كانت سامية نائمة. اقترب منها. هزّها بيده لتستيقظ فلم تتحرك. اقترب منها. رفع يدها فشعر أنها قد فارقت الحياة. نظر إلى جوارها فشاهد علبة دواء كانت قد بلعتها.
استدعى زوجته وكل العائلة، وأخبرهم:
- سامية ماتت.

كأنها أراحته من ارتكاب جريمة قتل، لكنها طعنته قبل موتها، طعنته مرتين؛ مرة عندما فرّطت بنفسها لذئاب بشرية، والثانية عندما فارقته قبل أن تودّعه.

لم يتمالك نفسه. بكى بحرارة الأب الذي يرى أولاده ينهارون أمامه.
(لماذا يا سامية؟ لماذا يا حبيبتي؟ لماذا فعلت ذلك بنفسك؟ لماذا تركت الذئاب ينهشون جسدك الجميل؟ أما كنت تنتظرين فارس أحلامك ليحملك معه ويطير إلى عش الزوجية؟)
لطمت الأم حظها النحس:
(يا ويلي عليك يا سامية، آخ يمّا الله يرحمك).

كان فلاح أكثرهم بكاء. نتف شعر رأسه. ذهب إلى الحائط يضرب رأسه فيه حتى نزل الدم. فجأة ضرب زجاج الشباك بيده فحطمه وجرحت يده. اقترب عماد يمسكه ويهدأ من غضبه، فيما كانت سوسن تحتضن سامية وتبكي لفراق أختها.

كلهم بكى سامية، لكن كلهم بكى لسبب يختلف عن الآخر. لعل موتها شفع لها، أو خفّف من وقع جريمتها.

بعد دفنها، قال الأب لابنه فلاح:
- اسمع.. هذه الجريمة أنت طرف فيها، لذلك اترك البيت، ولا ترني وجهك بعد اليوم.
حاولت الأم ثنيه عن قراره، لكنه أصر على موقفه قائلاً:
- من لا يعجبه القرار فليلحق به.

في اليوم التالي كان الأب قد أعد مجموعة اتفق مع رئيسها على خطف الشابين والاعتداء عليهما جنسيّاً وتصويرهما.

بعد أيام، خطف الشابان من قبل بعض الملثمين، وتم تجريدهما من ثيابهما والاعتداء عليهما جنسياً، وتصويرهما.
بعد ذلك أمر الأب بإطلاق سراحهما، وتوزيع صورهما في البلد ليلاً لتملأ كل الشوارع.

عاد سمير وأكرم إلى بيتهما محطمين، منهارين. لم يصدّقا أن أحداً يختطفهما ليغتصبهما، ثم يطلق سراحهما. وعندما سمعا أن صورهما تملأ الشوارع، وعثرا على إحدى الصور بكيا، وحبسا نفسيهما في البيت. حاول سمير وأكرم أن يشرح كل منهما لأهله ما حصل، وأكّدا جهلهما بهوية المعتدي.

كانت نظرات الناس إليهما مرعبة.
كل منهما ينظر إليهما ضاحكاً على الرغم من توضيحاتهما في الصحافة أن الصور مفبركة، وأنهما بريئان، إلا أن عيون الناس تطاردهما في كل مكان. أحد كبار السن الذي رآهما في أحد الشوارع نظر إليهما، ثم بصق على الأرض، فقال متمتما: تفوه.. قرف.. أعوذ بالله.

انقلبت حياتهما إلى جحيم. لم يعد للحياة طعم لديهما. نظرات الناس كانت مرعبة. نظرات الأقارب واستهزائهم، حتى أهل البيت تغيرت علاقتهم بهما. أصبحت علاقة تقوم على الشفقة.
وكلما تذكر كل منهما ما حصل، صار كالمجنون.

لم يتصور سمير أن يحصل معه ما حصل، اغتصاب؟!

"أنا أُغتصب؟ أنا يعتدي علي رجل؟ آخ لو أعرف من هو؟"

بعد شهر أطلق النار على رأسه من مسدس والده الذي كان يخبئه في مكتبه.

أصيب أكرم بالذهول لانتحار صديقه سمير. صار يهذي كالمجانين:
"صديقي سمير انتحر. فلاح قطع علاقته بي. لا ألومه. المفاجأة مذهلة، وأنا أُغتصب. من الذي قام بذلك؟ هل يمكن أن تكون لفلاح يدٌ بذلك؟ لماذا لم يغتصبوه؟"

ساءت حالة أكرم العقلية، وبعد شهرين حوّله أهله مضطرين إلى مستشفى الأمراض العقلية ليقضي هناك بقيه حياته.

كان كلما زاره أحد يقول له: "سلّم على سمير". ثم يقهقه ضاحكاً، لا يتوقف عن الضحك حتى يغادر الزائر المستشفى.

المخدوعون

سنة كاملة مرت على حمدان، وهو يتنقل من شركة إلى أخرى، ومن مؤسسة إلى غيرها باحثاً عن عمل فلم يوفق. لم يترك مكاناً في رام الله والبيرة وما يحيط بهما لم يذهب إليه. حاول أن يجد عملاً في منطقة القدس، لكن الحواجز الإسرائيلية ومطاردة العمال القادمين من خارج القدس أعاقته.

طرق أبواب السلطة للعمل في مؤسساتها فلم يجد عملاً، ولم يكن لديه وساطة، فلم يكن محسوباً على تنظيم تابع للسلطة. وعندما ضاقت به الدنيا في قرية بيت لقيا القريبة من رام الله قرر محاولة التسلل للعمل في المشاريع الإسرائيلية، فقد دله صديق له يعمل هناك على متعهد إسرائيلي يأتي إلى منطقة قرب رام الله ينقل العمال سراً إلى منطقة "بيت شيمش"، ويعيدهم إليها كل أسبوع متجاوزاً بهم نقطة التفتيش، التي أقامها الجيش الإسرائيلي على مشارف المنطقة بسيارته الفورد البيضاء الكبيرة التي لا شبابيك جانبية أو خلفية لها، بحيث لا يرى الجنود ما بداخلها، ولا يفتشونها لأن صاحبها يهودي، ورقمها إسرائيلي.

وافق حمدان على الفكرة على الرغم من فيها من مخاطر، فهو يعلم أنه كالذاهب إلى المعركة، فإن ألقي القبض عليه في المنطقة الإسرائيلية سيتعرض للسجن والغرامة معاً. إنها مخاطرة كبيرة، لكن من أجل رزق العيال، فإن الآباء يتحملون الأهوال والصعاب.

توجه حمدان صباح اليوم التالي إلى المكان المتفق عليه، ليجد حوالي عشرين عاملاً ينتظرون المتعهد الإسرائيلي (يوسي) الذي سينقلهم بسيارته بعد أن يزج بهم كالسردين طالباً منهم الصمت، وعدم الحديث عندما يتجاوز بسيارته نقطة الجيش.

كل عامل يتفق مع (يوسي) مباشرة، وليس مع صاحب العمل الإسرائيلي، فيما يقوم (يوسي) بالاتفاق كمتعهد مع صاحب العمل، ويحصل على أجور أكثر مما يدفعها إلى العمال، ويحتفظ بالباقي لنفسه، لذلك كان يحرص على دفع أقل أجر ممكن مستغلاً أوضاع هؤلاء العمال، وحاجتهم إلى العمل.

فرح حمدان باستلام عمله الجديد في مذبح (مسلخ) للدجاج في بيت شيمش. كان يتوجه إلى العمل صباح الأحد، ويعود مساء الجمعة ليقضي بقيه النهار ويوم السبت مع العائلة.
كان اتفاق (يوسي) معهم على الدفع شهرياً لأن الشركة حسب ادعائه تدفع له الأجرة شهرياً.

في الأسبوع الأخير من الشهر، وقبل أن يحين موعد استلامهم أجورهم، حملهم المتعهد (يوسي) بسيارته الفورد إلى رام الله. اقتربوا من الحاجز فطلب منهم الصمت. أوقف السيارة، وفتح الباب، وخرج نحو الجندي. بعد دقيقة عاد إلى السيارة فيما توجه الجندي إلى الباب الخلفي للسيارة. كانت يده على زناد بندقية (م ١٦). فتح الباب ليشاهد العمال المكدسين بالسيارة، يحمل كل منهم كيساً بلاستيكيا يحمل به ملابسه المستخدمة خلال الأسبوع.
كان التعب قد أرهقهم. ينتظر كل منهم لحظة وصوله البيت بفارغ الصبر، فقد كانوا يبيتون خلال الأسبوع في بيت قديم أسفل إحدى العمارات أعده لهم المتعهد بعيداً عن أعين الشرطة والجيش. نظر إليهم الجندي كأنه وقع على صيد ثمين، سألهم:
- هوية، تصريح.
قدم كل منهم بطاقة هويته الفلسطينية، لكن لا يحمل أي منهم تصريحاً بالعمل.
حضر جندي آخر ليطلب منهم النزول من السيارة، مع أكياسهم، وطلب منهم الوقوف على جانب الشارع ووجوههم بعكس الشارع باتجاه الجبال التي تفصلهم عن رام الله حيث أولادهم، وزوجاتهم ينتظرونهم هناك، ويعدون الدقائق بانتظار وصولهم.

توجه أحد الجنود إلى (يوسي). شكره على جهوده. سلم عليه، وسمح له بالعودة.
مرت ساعة كاملة والعمال ينتظرون ماذا عسى الجنود فاعلين بهم.

كان حمدان قلقاً على مصيره لا يريد أن يذهب إلى السجن بدون ذنب ارتكبه. كان يفكر كيف فتش الجنود السيارة هذه المرة؟ ولماذا لم يتحدث المتعهد معهم لماذا لم يقل شيئاً؟!

لم يطل حديثهم، فقد طلب منهم الجندي الوقوف، وبعد أن كبلهم واحداً واحداً، عصب عيونهم، ودفع بهم إلى سيارة كبيرة جاءت لتحملهم إلى معسكر للجيش قريب.

فوجئ حمدان ومن معه بعمال آخرين في السجن تم اعتقالهم بالتهمة نفسها؛ التواجد في إسرائيل (فلسطين 48) بدون تصاريح. كانت مفاجأتهم أكبر عندما عرفوا أنهم اعتقلوا مثلهم على حاجز للجيش قرب رام الله عندما كانوا في سيارة المتعهد الإسرائيلي (شمعون).

سأل حمدان أحد العمال السجناء القدامى:
- هل تعرف اسمه الكامل؟
- لا. كل ما نعرفه أن اسمه (شمعون).
- هل هو طويل القامة، بلحية نصفها بيضاء، وسوالف على الجانبين؟
- هو نفسه كأنك تعرفه.
- وهل يلبس نظارات بيضاء؟
- ورقم سيارته 6843569.
- يا إلهي. إنه (يوسي).
فعلق أحد العمال:
- يبدو أنه محتال كبير، يحتال على كل مجموعة باسم جديد.
- اليهود ملاعين، لم يكتفوا بمصادرة أراضينا، فلاحقونا حتى على أجورنا، لقمة عيشنا.
- لهذا كان يوصينا منذ اتفاقنا معه أن ننكر أننا نعمل معه إذا اعترضنا الجيش، واعتقدنا في البداية أن الحادث عرضي، لكن اتضح أنه مدبر ومقصود.
فقال حمدان:
- لو أراه مرة أخرى، سأنشب أظافري في عنقه.
فقال له زميل بجانبه:
- وهل ستعود إلى السجن؟
- وهل أترك حقي ينهب؟
- وهل هو الحق الوحيد الذي نهب؟ ألم تنهب قرانا؟ ألم يطردونا من عمواس وقبية من قبل؟ ألا يحاصروننا كل يوم؟ ألا يصادرون ما تبقى لنا من أرض؟
هز حمدان رأسه وقال:

- لهذا لم نستسلم.
فقال أحدهم:
- صحيح، لكن ماذا حققنا من نتائج حتى الآن؟
سكت ولم يعرف ماذا يقول.

عاد حمدان إلى بيته بعد انتهاء فترة سجنه مشتاقاً إلى زوجته وأولاده. كان فرحه لا يوصف بلقائهم، لكنه كان حزيناً لأنه خسر عمله، وضاعت أجرته التي تعب لأجلها شهراً كاملاً.

بعد يومين التقى حمدان بأحد العمال الذي دفع الغرامة وخرج من السجن منذ شهرين قبله. سلّم عليه، وتعانقا. سأله حمدان:
- خبرنا يا محمد.. هل عثرتم على (يوسي).
هز رأسه وقال له:
- طبعاً لم يكن صعباً أن يعثر عليه أحدنا.
- ها فماذا حصل؟
- لا شيء. أنكر أنه يعرفنا، وضاعت كل حقوقنا.
- هل حاولتم تقديم شكوى ضده؟
- شكوى؟ ليس لدينا أية إثباتات.
- كلنا نشهد ضده.
- لمن سنشكوه؟ سيقولون لنا لماذا عملتم بالتهريب!
هز حمدان رأسه وقال:
- وهل وجدنا طريقة أخرى أفضل؟! كانت خيارنا الوحيد. إنهم يدفعوننا إليها دفعاً.

رسالة قديمة؟!

كان في الستين من عمره عندما جاءه خبر وفاة ابنه الوحيد الذي رزق به منذ ثلاثين عاماً، توفي ابنه باهر في الطريق السريع.
خبر موت ابنه كان صدمة عنيفة له، هزت كيانه. لم يتحمل الخبر، فأدخل المستشفى وهو في حالة يرثى لها.

بعد خروجه من المستشفى أصيب بحالة من الاكتئاب، فقد كان يرى في ابنه صورته التي كان يبحث عنها. كان يبني عليه أحلامه فماتت بموته. لم يرزقه الله بأولاد غيره، فقد أصيبت زوجته بالعقم بعد أن ولدت باهر، ولم يتزوج عليها، وقبل بما رزقه الله.

لم يكن يهتم كثيراً بالأولاد وهو شاب، فقد كان يقضي أوقاته مع السياح لأنه كان يعمل سائقاً لدى شركة سياحة، وكثيراً ما كان يصاحب بعضهن، ويقضي معهن لياليه الحمراء التي كانت تشغله عن بيته.

تعودت زوجته على غيابه المتكرر عن البيت لأنه يعمل لدى شركة السياحة، فمرة في طبريا، وأخرى في نتانيا، وثالثة في أريحا، وهكذا، وظل على هذه الحال حتى تجاوز الأربعين، وبعدها تغير وشعر بالهداية، وبدأ يصلي، ويقيم الشعائر الدينية التي كان يهملها من قبل.

مع وفاة ابنه باهر كان قد تجاوز سن الخامسة والخمسين. جلس في البيت يقلب أوراقه ورسائله القديمة، وهو سارح يستعيد الماضي الذي كان يتراءى له كشريط سينمائي. فجأة وقعت عيناه على رسالة قديمة من سائحة أمريكية اسمها (سوزان كلارك) وفيها صورة ابنها الصغير الذي سمته (فرانك). رفع الرسالة قلبها بين يديه: ياه.. رسالة منذ أكثر من ثلاثين سنة. سبحان الله! كيف احتفظت بها خلال كل هذه المدة الطويلة؟ وضع الرسالة في جيبه، وكذلك صورة الطفل، وعاد يقلب أوراقه الأخرى.
في اليوم التالي حمل جواز، وذهب إلى القنصلية الأمريكية في القدس، وقدم طلباً للحصول على تأشيرة للسياحة، وقد ساعده للحصول عليها أنه كان يعمل لدى شركة سياحة، وسنّه الكبير، فمنحه القنصل تأشيرة مفتوحة لمدة خمس سنوات.

عاد مساء اليوم ليخبر زوجته أنه سيزور الولايات المتحدة لمدة شهر ليستريح مما هو فيه لأنه يشعر بإرهاق شديد. فقالت له زوجته:
- وهل أنت الوحيد المكتئب بوفاة ابننا.
- أعرف أنك مثلي، لكن لن أفيدك بالسفر معي. أريد الخلود لنفسي لبعض الوقت. أعدك أن نسافر معاً في القريب العاجل إلى بلد قريب للسياحة.

بعد وصوله مدينة (ناكسفيل) في ولاية (تنسي)، استأجر غرفة في أحد الفنادق الصغيرة هناك، وبدأ يبحث عن عنوان (سوزان كلارك)، وعلى الرغم من أنه عنوان قديم، لكنه استطاع أن يجده، فمدينة (ناكسفيل) ليست كبيرة، وسكانها يعرفون كل أزقة البلد.

أوقف السيارة التي استأجرها للغرض، واقترب من الباب فإذا بكلب يقفز نابحاً.

ارتعب ماهر، لكنه استعاد رباطة جأشه، فالكلب خلف سور البيت الخشبي. خرجت امرأة كبيرة السن يبدو أنها في الثمانين من عمرها وسألته:

- هل تريد المساعدة؟

لم يكن وجهه مألوفاً لديها، فلم تفتح البوابة الرئيسة للسور. قال لها:

- هل أنت سوزان كلارك؟

استغربت! نظرت إليه وسألته:

- نعم.. من أنت؟

قال لها مازحاً:

- على الرغم من شعرك الأبيض ما زلت تتمتعين بحيوية كبيرة سيدة كلارك. ألا تذكرين هذا الرجل العجوز أمامك؟

حاولت التذكر...

- لا.. لم تسعفني الذاكرة. يبدو أنك غريب عن البلد؟

- طبعاً، أول مرة آتي إليها، لكنك لست غريبة علي.

- هل أفصحت عن نفسك؟ لدي أشغالي الكثيرة.

فجأة خرجت امرأة صغيرة في السن، قالت للسيدة (كلارك):

- هل يوجد مشكلة؟ لقد طال خروجك. من هذا؟

فردت عليها (سوزان):

- سألته، لكنه لم يقل شيئاً حتى الآن.

قبل أن تسأله المرأة الصبية قال:

- سيدة كلارك، أنا ماهر الشنطي، هل تذكريني؟

رددت اسمه عدة مرات:

- ماهر، ماهر، ماهر.. مَن ماهر؟

- أنسيت ماهر من القدس؟

- أووه ماهر، الآن عرفتك. أنت من الأراضي المقدسة، وما الذي أتى بك إلى هنا؟

- جئتك بطلب صغير، لكن ألا تسمحين لي بالدخول؟ أهكذا تستقبلون ضيوفكم؟

هزت سوزان رأسها وتقدمت لفتح الباب له.

قالت المرأة الصبية (جولي) زوجة ابنها:

- أمتأكدة منه يا أمي؟

- نعم.. لا تقلقي.
فتحت الباب لضيفها، وسلمت عليه. أبعدت الكلب، ثم دخلوا جميعاً إلى البيت.
بعد حديث قصير، واستعادة القدس قبل أكثر من ثلاثين عاماً ورحلتها الوحيدة هناك، سألته:
- ما الذي جاء بك إلى هنا سيد شنطي؟
- ألا تقدمون القهوة لضيفكم؟
استدارت إلى زوجة ابنها وقالت لها:
- عليك بالقهوة يا (جولي)، واتركينا لوحدنا.
بعد أن تأكد أنهما وحدهما سألها:
- كيف حال (فرانك)؟
- سيد شنطي.. لماذا تسأل عن (فرانك) الآن؟
- سيدة (كلارك).. لا تقلقي. لم أحضر لأغير حياتك مع السيد (كلارك)، لكني فجعت بابني الوحيد باهر، فجئت...
- سيد ماهر.. أولاً زوجي توفي منذ سنوات. ثانيا (فرانك) هو ابننا، إنه هدية السماء.
- سيدة (كلارك).. أرجوك لا تفهميني خطأ، فقد أردت أن أراه. ألتقط معه صورة تذكارية.
- (فرانك) الآن طبيب أسنان، ولن يعود قبل ساعتين.
نظر إلى الحائط فوقها فرأى عدة صور فقال لها:
- لا بد أن تلك هي صورته أليس كذلك؟
هزت رأسها وردت:
- هو نفسه.
وضع إصبعه في فمه وصار يعض به.
- كيف أخباره؟
- إنه بخير يا ماهر.
- هل تذكرين تلك الأيام؟
- سيد ماهر.. تعرف أن علاقتنا لم تكن علاقة حب، إنها إرادة الرب في عباده. لقد أديت مشيئة الرب وليس مشيئتك.
دخلت (جولي) بالقهوة مع الحليب، وغادرت الغرفة إلى غرفة مجاورة.
حمل ماهر فنجان القهوة الأمريكية بيده ثم قال لها:
- لن أناقشك في ما حصل، ولا في اتفاقنا السابق، لكني أرجوك أن تتفهمي مشاعري.
- ما الذي تريده بالضبط؟
- رؤية (فرانك)، والتقاط صورة معه.
- سيكون أمراً مستغربا الآن، فقد يستغرب طلبك وهو لم يعرفك بعد، لكن هل ستعود مرة أخرى؟
- لا.. لن أعود.

- أرجو أن تلتزم بتعهداتك. لا تنسَ. أرجو أن تنتبه لحركاتك خلال الحديث معه. لا تثره بأسئلتك.

انتقلت السيدة العجوز مع ماهر إلى الغرفة المجاورة للمشاركة مع زوجة ابنها التي كانت تشاهد التلفاز. بعد ساعتين كان الدكتور (فرانك) قد عاد إلى البيت. سلّم على أمه وزوجته وقبلها، ثم تقدم ليسلم على ضيف أمه. قالت له:

- السيد ماهر الشنطي من الأراضي المقدسة. إنه في رحلة سياحية هنا فجاء يزورنا. إنه أمر جيد أنه ما زال يتذكرنا بعد ثلاثين سنة، أليس كذلك؟

- أهلا بك سيد ماهر. تفضل اجلس. سأعود لكم بعد قليل.

كان ماهر يدقق النظر بـ(فرانك)، فيه بعض الشبه من باهر، لكنه أكثر بياضاً منه، طويل القامة، شعره أسود كغير لون شعر أمه.

عاد بعد قليل، وجلس معهم وقال لأمه:

- لم تقولي لنا أنه لديك أصدقاء في الأراضي المقدسة.

- لقد انقطعنا عن مراسلته منذ حوالي ٢٨ عاماً، ولم نفكر بالعودة إلى هناك.

- إنها فرصة لتشجيعنا على زيارة القدس مرة أخرى. هل تحلمين بذلك يا أمي؟ ماذا عنك يا (جولي)؟

قالت أمه:

- لقد كبرت يا بني والسفر يتعبني.

أما زوجته فقالت له:

- فكرة رائعة حبيبي.

- الآن سيكون لنا أصدقاء هناك. هل سترحب بنا سيد ماهر؟

نظر إليه ماهر وقلبه يزداد خفقاناً، وقال له:

- طبعاً، سأكون أول من يستقبلكم في المطار.

- رائع. لقد ارتحت لك يا سيد شنطي.

- وأنا كذلك. يبدو أن أمك قد أحسنت تربيتك حسب مشيئة الرب!!

استدار إليها وسألها:

- أليس كذلك سيدة (كلارك)؟

بعد سهرة استمرت حوالي الساعتين، وقبل أن يعتذر الدكتور لأن لديه بعض العمل، وقف ماهر ليودعهم فقال لهم:

- أحب أن تسمحوا لي ببعض الصور التذكارية معكم.

- أوه طبعاً، لا مانع.

أعطى الكاميرا لزوجة الدكتور لتصورهم معاً، ثم لتصور ماهر مع (فرانك).

بعد التقاط الصور، سلم ماهر على فرانك، وقال له:

- أشعر أنني سأشتاق لك. أنت مثل ابني. اسمح لي أن أضمك كما يضم الآباء أبناءهم.

وضع يديه على كتفي (فرانك) وعانقه. كان يتمنى لو يقبله، لكن قبلات الرجال في أمريكا لها معنى مختلف تماماً، لذلك اكتفى بعناقه. كان يتمنى لو ظل يعانقه حتى الصباح. كان جسمه يرتعش، وقلبه يتمزق لفراقه. دقق في وجهه للمرة الأخيرة، ثم قال له:
- أرى فيك صورة ابني الحبيب.
بدأت السيدة (كلارك) تسعل، ثم قالت:
- في رعاية الرب سيد شنطي. لا تنس مراسلتنا من هناك.
سلم عليهم وخرج من البيت مودعاً.

عاد ماهر إلى القدس أكثر اكتئاباً. سألته زوجته:
- أرجو أن تكون قد استرحت قليلاً؟
- بل زدت حزناً.
- لماذا يا ماهر؟ حبيبي.. علينا تقبل قضاء الله فلا خيار أمامنا. اللهم اجعله في جناتك يا رب.
هز رأسه، وهو يتمتم في سره: قبل أن أذهب كنت أشعر أنني فقدت ابناً، أما اليوم فأنا أشعر أنني فقدت اثنين. إنه شعور لا يفهمه سواي، ولا يحس به غيري.

السيدة (كلارك) نقلت بعد أيام إلى المستشفى لأنها في حالة صحية سيئة. كانت تستلقي على سريرها وجهاز القلب مرتبط بها. لم تنتبه لحديث ابنها معها، فقد كانت تسرح بعيداً إلى الوراء. عندما زارت مع زوجها الأراضي المقدسة، كانت بدون أولاد، وزوجها مصاب بالعقم، وظلت تدعو الله فترة من الزمن أن يهبها ولو ولداً واحداً تربيه، ويحول البيت إلى حديقة زهور.
رأت في المنام محدثاً يقول لها:
- سيدة (كلارك).. لقد وهبتك طفلاً مقدساً من الأراضي المقدسة. اذهبي هناك لتحملي به.
- ولكن كيف يكون ذلك؟
- ستجدين مواطناً هناك. سأرسله لك لتحبلي منه، فهو بمشيئة الرب.
في اليوم التالي حدثت زوجها بما رأته، فقال لها:
- الرب يدعونا للسفر إلى الأراضي المقدسة.
وعندما وصلا هناك تعرّفا إلى ماهر. كان سائق التاكسي الذي ينقلهما إلى الأماكن التي يزورانها، ورأت فيه السيدة (كلارك) ما يحقق الرؤيا التي رأتها في منامها، فشرحت لماهر ذلك، وطلبت منه مساعدتها في تحقيق مشيئة الرب.

لم يصدق ماهر ما يسمع من قصة لم يقتنع بفحواها، لكنه لم يمانع بذلك، فقد عرضا عليه هدية مغرية، وكان هو ينظر إلى الأمور من ناحية جنسية بحته.

كانت (سوزان كلارك) جميلة، طويلة، عيونها زرقاء، نهداها بارزان. كان ينظر إليها بشهوة الرجل الشاب الممتلئ حيوية، والباحث عن امرأة تطفئ نار جسمه الملتهب.

التصق بها في الفراش. كان مثل حصان جامح. لم تصدق السيدة (كلارك) أن تكون مثيرة لشاب في عمر أبنائها فهي تكبره بخمس وعشرين سنة، لكنها شعرت بحرارة جسمه، وقبلاته، ويديه. لقد أعادها صبية في العشرين من عمرها، وزرع في أحشائها بذوراً مقدسة حسب رؤياها، ورغبتها، ورضا زوجها.
ظل يقوم بمهمته حتى تأكدت أنها حامل، فسافرت وهي في قمة سعادتها.

لم يكن ماهر يهتم أنه ترك ابناً في أحشائها، فكل ما كان يهمه العلاقة الجنسية. كان يسخر من طلبها، ويقول: امرأة مجنونة. زوجها عاجز عن تحقيق رغباتها، وأنا لها سأجعلها تتذكر تلك الليالي الحمراء. أنا ماهر.
كان يضحك وهو يقول ذلك.
وحينما كان يضاجعها، كان يقول لها: سأحقق لك مشيئة الرب فلا تقلقي.

وفي رسالته الأخيرة لها بعد أن أخبرته أنها أنجبت ابنا سمته (فرانك) أرسل يقول لها: مبارك، فإن أحببت أن تعودي في المرة القادمة فأنا جاهز. فقد يحتاج إلى أخ.
وكان يهز رأسه ساخرا.

اليوم، وبعد أكثر من ثلاثة عقود، يهز رأسه من جديد وهو يتذكر الحادثة نفسها كأنها حصلت بالأمس، لكنه لم يسخر منها، بل يسخر من نفسه لأنه في غمرة نشوته نسي أنه يزرع ابنه في تربة الآخرين.

في العام القادم

منذ عمله في الكويت قبل عشر سنوات لم يعد حاتم إلى وطنه الأردن سوى مرة واحدة لمدة أسبوع، فمنصبه الجديد في الشركة التي يعمل بها أخذ كل وقته.

قالت له أمه في اتصال معه: يا بني.. لقد كبرت ولم تتزوج بعد. نريد أن نفرح بك أنا وأبوك قبل وفاتنا.

كان حاتم ينتظر من يفاتحه بأمر الزواج، ولأنه مشغول والزواج يحتاج إلى وقت حتى يتعرف إلى بنت الحلال، أقنعته أمه أن تجد له عروساً جميلة، وترسل له صورها فإن أعجبته، دعته ليعقد قرانه عليها.

بعد تردد وافق حاتم، وبعد أسبوع كان لديه عدة صور لفتاة رائعة في الجمال، عرف فيما بعد أنها لابنة خالته أم حسين التي كانت تسكن في إربد، فيما كان أهله يسكنون في الزرقاء.

أعجب بابنة خالته وتدعى رابعة، وكلف أمه أن تخطبها له. كان شعرها طويلاً ينساب على كتفيها، وعيونها واسعة، وأنفها صغيراً، لكن مبسمها واسع، وشفتاها عريضتان حسب طلبه.

خلال أيام اتفقت أمه مع أختها على كل شيء؛ المقدم والمتأخر، ووافقت العروس على سامح بعد أن رأت صوره، وزادت إعجاباً به عندما عرفت أنه ابن خالتها التي تحبها. كانت سعيدة أنها ستسافر إلى الكويت.

قبل موعد الزفاف، أرسل سامح لوالديه يقول لهم إن أحد مسؤولي الشركة قد توفي، وأوكلت إليه الشركة استلام منصبه، وعليه فإنه لا يستطيع الحضور إلى الأردن هذا العام، فطلبت منه أمه أن يرسل لوالده وكالة لينوب عنه في أمر إتمام العقد، فوافق على الفور، وبعد شهر كان يستقبل زوجته في مطار الكويت.

فجأة تقدمت منه امرأة كانت تحمل صورته في يدها. سألته:
- هل أنت حاتم...؟
- نعم.. من أنت؟
- ألم تعرفني؟! أنا رابعة.
تغير شكل وجهه. سألها باستغراب:
- أنت رابعة؟ ابنة خالتي؟
- نعم.. أنا رابعة ابنه خالتك، وزوجتك.

هز رأسه، واصطنع ابتسامة عريضة. خبأ صورتها في جيبه، وقال:
- معذرة فالصورة تختلف بعض الشيء، ربما كانت قديمة.
سلّم عليها، ورفع الحقيبة التي معها، وتوجها إلى السيارة.

اتصل بأمه بعد وصوله البيت يخبرها بوصول رابعة، وسمح لرابعة إجراء اتصال مع أهلها تطمئنهم بوصولها. كان الجميع يسألونه:
- هل دخلت بها؟
- يا أمي.. لقد وصلت قبل قليل.

تركها ترتاح قليلاً، واقترح عليها أن تأخذ حماماً ساخنا بعد رحلتها من الأردن، خصوصاً وأن جو الكويت حار. وفيما هي في الحمام كان يتصل بأمه معاتباً:
- أمي.. الصورة التي عندي ليست صورتها؟
- يا بني.. الصورة التي عندك صورة أختها الأصغر، فلم يكن عندي صور لها، ولم أشأ أن أسأل أختي عن صور لئلا تعرف ولا توافق، فأكون محرجة. لكنها جميلة، ومؤدبة، وسوف تحبها من كل قلبك. ستعجبك يا بني كثيراً. بعد أن تنام معها الليلة خبرني برأيك.

شد حاتم رأسه مغتاظاً من أفعال أمه وقال لها:
- يبدو أنني ورطت نفسي.

بعد انتهاء مكالمته، جلس حاتم محتاراً ماذا يفعل، فهي ابنة خالته، وطلاقها يثير مشكلة عائلية.
وما ذنب البنت ما دامت أمي هي التي دبرت الحادثة ربما لتزوج ابنة أختها، لكن رابعة ليست المرأة التي وافقت عليها. ما الفرق؟ لقد وافقت على صورة امرأة، قد تكون هي نفسها ليست كما تظهر في الصورة.
لقد ورطت نفسي عندما قبلت بالزواج بهذه الطريقة التي عفا عليها الزمن.

خرجت رابعة من الحمام، وتوجهت إلى غرفة النوم ولم تخرج. كان يعلم أنها بانتظاره. طال انتظارها.
أحس بعد فترة أنه تأخر عليها، أنّبه ضميره.
(هذه العروس ما ذنبها؟ لماذا أحرمها من ليلة زفافها؟)

دخل عليها مبتسماً. اقترب منها. احمر وجهها. كان الحياء يغطي كل وجهها. وقفت أمامه، ونظرات عيونها إلى الأرض. وضع يديه على كتفيها، واقترب أكثر ليطبع أول قبلة على شفتيها. قال لها: مبارك يا رابعة.
خلع ملابسه، وبعد ثوان كان يخترق معها عالم الزوجية.

لم يكد الفجر يهل عليهما حتى بدأ رنين الهاتف.. أمه تسأله:
- هل كل شيء على ما يرام؟
- نعم يا أمي نعم.
هنأته، وهنأه أبوه.
كأنه في امتحان مصيري؛ إما أن يفشل، أو أن ينجح بامتياز. ليس مهماً أي اعتبار آخر، بل المهم اختراق غشاء البكارة.
لم يسأله أحد عن مشاعره، ولا عن قلبه.

انتهت ليلة الزفاف، لكن ذلك لم يغير شيئاً من حبه لها. كانت فاترة في مشاعرها. لم تجذبه نحوها منذ رآها في المطار، كأنه تعلق بصاحبة الصورة وارتبطت مشاعره بها.

اعتقد حاتم أن الأيام كفيلة أن تقربه منها، وتغير من مشاعره تجاهها، لكنها زادت من الفجوة بينهما.
فإضافة إلى كونها غير جميلة في نظره، فثقافتها ضحلة جداً، واهتماماتها اليوم عكس اهتماماته. خوفه من المشاكل العائلية سبب بقائها زوجة له. لكنه بعد عام تقريباً، وعندما كانت على وشك الولادة أرسلها إلى الأردن لتلد له طفله الأول هناك بجانب أهلها.
وعندما وصلت قال لأبيه وأمه:
- سأترك رابعة عندكم، فلا داعي لأن تعود لأنني سأعود إلى الأردن في العام القادم.

عندما هلَّ العالم التالي، أعاد لهم الكلام نفسه بأنه سيعود في العام القادم لأنه لا يستطيع العودة هذا العام بسبب انشغاله.

بعد عدة سنوات عاد حاتم إلى الأردن ليزور أهله بعد غياب طويل، وكانت مفاجأتهم أنه قد تزوج من امرأة كويتية، وأنه لا يستطيع أن يأخذ معه رابعة إلى الكويت، لذلك سيشتري لها شقة في الزرقاء قريبة من بيت أهله، ويرسل لها معاشاً شهريا حتى عودته النهائية من الكويت، وعندما سألوه متى ستعود؟ قال لهم: في العام القادم.

سامحني يا صديقي

لم أتوقع أن تصل الأمور حد الموت، وأن يُتهم صديقي، وجاري في الشارع، بأنه متسبب بالقتل.
ها هو الآن في السجن بعد أن حكم عليه خمس سنوات!!
خمس سنوات؟!
لم أصدق أذني بعد أن نطق القاضي قراره، حتى قرأت الخبر في اليوم التالي في كل الصحف اليومية.

يا لهذا الخبر السيئ الذي لم يكن في الحسبان. أنا تسببت في كل هذا. أنا المسؤول على الرغم من أنني لم أقصد سوى أن أمزح مع صديقي كما تعودنا أن نقيم المقالب في بعضنا بعضاً.

كان علي أن أكون جريئاً وأعترف للشرطة بما حصل. لماذا لم أفعل ذلك؟
ألأنهم لن يصدقوني؟ أم لأنني خشيت أن أتعرض للملاحقة بدلاً منه؟
لا.. لا لم أخف من هذا كله، فليتهم يسجنوني بدلاً منه. سأقبل الحكم على الرغم من أنه جائر، فصديقي لا يستحق أن يحكم ولو بيوم واحد سجن، لكنني...، خشيت على مشاعر صديقي. خشيت أن أعترف له أنني سبب ما ألمّ به. صداقتنا أكبر كثيراً مما يتصورها أحد، فهو تاجر مثلي يملك محلاً تجارياً في أحد محلات دمشق القديمة، محلاً صغيراً لبيع الملابس الجاهزة، يقع محله مقابل محلي تماماً، لذلك فأنا أراه كل يوم تقريباً منذ عشرين عاماً.

غالبا ما كنا نتناول الفطور معاً، وأحيانا بمشاركة بعض الجيران، تلك هي دمشق القديمة، يعيش تجارها وأصحاب محلاتها كأنهم في بيت واحد.

لعل ما جعلنا أصدقاء أنني أملك محلاً يختلف عن محله، فلم أكن منافساً له، فأنا أبيع الأقمشة.

منذ تلك الحادثة فقد أغلق محله، إذ لا يستطيع أولاده الصغار أن يتابعوا محل أبيهم، ولم تستطع أمهم إدارته. لم أعد أراه أمامي كل صباح. اختفى وجهٌ مألوف لدي كان جزءاً من حياتي، وعضواً في أسرتي.

حدثت نفسي أكثر من مرة بضرورة زيارته والاعتراف له بما حصل. في كل مرة كنت أزوره وأحاول الحديث في الموضوع، كنت أتردد. هل أنا المسؤول عما حصل له؟ أم أنه قدر صديقي أن يقع في هذا الفخ؟ هل أنا الذي أتحمل المسؤولية، أم أن القاضي لم يحكم بالعدل؟ لكن أياً كانت الأسباب فلماذا لم أعترف له؟ لِمَ لم أعترف له بما فعلت؟ هل أنا خائف من صداقتنا أن تتدهور؟ أم خائف أن أسجن بدلاً منه؟ أم أنني لا أريد لكبريائي أن يسقط أمام صديقي؟ أيكون كبرياء مزيفاً؟

صداقة عشرين سنة الآن أمام الامتحان؛ هل أعترف بما حصل، أم أعتبر نفسي في حل مما جرى؟

لم أنم تلك الليلة. كنت أنتظر الصباح بفارغ الصبر. اليوم موعد زيارتي له. اتفقت مع زوجته ألا تزوره هذا الأسبوع، لأنني سأزوره مع أصدقاء آخرين، لم أقل لها الحقيقة، لم أقل لها إنني ذاهب لأعترف له بشيء يريح ضميري.

وأخيراً وصلت السجن. نادى السجان على اسمي، فدخلت أبحث عنه بين السجناء. ها هو بشحمه ولحمه، نقص وزنه، وبانت على وجهه إمارات اليأس. لعله مهموم بأن يقضي خمس سنوات سجناً ظلماً وعدواناً. سلمت عليه من بين القضبان. تحدثنا عن أشياء كثيرة، وبعد أن سكت قلت له:
- يا عاصم.. أريد أن أعترف لك بشيء يؤرقني.
فرد علي قائلاً:
- وهل أنت متهم حتى تعترف؟
- حسناً.. دعني أقول لك شيئاً مهماً.
فأجاب:
- وهل هناك أهم من رؤيتك؟
- هناك شيء يجب أن تعرفه.
- ما دمت تعرفه أنت فهذا يكفي. ألسنا أصدقاء، وجرحي هو جرحك؟
كل أجوبته لي كانت تقتلني. كنت أتضاءل أمامه، وأشعر بالخزي أمام نفسي. لم أدعه يكمل، فقاطعته قائلاً:
- عاصم.. أنا المسؤول عما حصل لك.
ضحك ثم قال:
- أنت؟ وما دخلك بالموضوع؟ هذا قدري يا صديقي، وما دخلك به. أنا الذي دفعت الرجل بيدي فسقط على الأرض. لقد مات دون قصد مني. ليتني ترويت. كل هذا لا يستحق ما حصل، لكن الأمر الآن انتهى، ونسأل الله الصبر.
- لكن يا عاصم.. أنا الذي أكلت لك صحن الحمص وأنت مشغول مع الزبون خارج المحل يوم الحادث. أنا عملت لك المقلب، ولم أكن أتصور أن يأتي زبون آخر فيدخل المحل فتتهمه به، فيصرخ بوجهك، فتدفعه بيدك فيقع على الأرض، فيضرب رأسه بحافة الباب، فيسقط ميتاً.

كنت أعترف له بكل ذلك مرة واحدة كي لا يقاطعني، وكنت أشعر بأنني أزحت صخرة ثقيلة عن صدري. لم أنظر في وجهه، لأنني أعرف أنه سيصاب بالذهول عندما يعرف الخبر الذي حبسته عنه طيلة ستة أشهر مدة المحاكمة. نعم.. كنت خجلاً من نظرات عيونه، لكن أذنيّ كانتا تنتظران رد فعله.

صمت بعض الشيء لعله كان يبحث عن كلمات يرد بها علي. ليته يسامحني. ليته يضربني.. يبصق في وجهي.. يفعل أي شيء...

- أعرف ذلك يا عبد الله...

لم أصدق ما سمعت. نظرت إليه، وسألته:

- ماذا قلت؟

- أعرف أنك أنت الذي قمت بالمقلب، أو بشكل أصح، عرفت ذلك فيما بعد.

- وكيف عرفت؟

- عندما جئت أنت بعد الحادث لتعانقني أمام الشرطة شممت رائحة الحمص والبصل من فمك، فعرفت أنك فعلتها.

- يا إلهي.. ولماذا بقيت ساكتاً؟ لماذا لم تقلها؟ لماذا لم تقل شيئاً؟

- أكنت تنتظر مني أن أعترف على صديقي بالتحقيق، فأجرك إلى السجن معي؟

- أنا الذي يستحق العقاب؟

- وما الفرق؟ ألسنا أصدقاء؟ ألا يسجن الصديق بدل صديقه؟

كلماته كانت سكيناً يطعنني به. لقد تحمل كل ذلك دون أن ينبس بكلمة، في حين بقيت أنا صامتاً خوفاً من السجن. لا.. ليس خوفاً من السجن، لكن خوفاً من عيون صديقي. قلت له بعصبية:

- لماذا لم تصارحني عندما زرتك؟ لمَ لم تقل لي إنك تعرف ذلك؟

- أكنت تنتظر مني أن أقول لك إنني اكتشفت مقلبك؟ أم كنت تنتظر أن تتوفر لديك الشجاعة الكافية لكي تعترف لي بها؟

- أعترف أنني أخطأت بحقك عندما لم أعترف منذ اليوم الأول بما حصل. أنا أطلب منك أن تسامحني، وأنا مستعد أن أعترف عن ذلك أمام المحكمة من جديد.

- لم يعد ذلك ينفع في شيء.

- لماذا؟ سأذهب إلى الشرطة، وأقول لهم عن كل شيء. سأطالب ببراءتك. يجب أن يسجنوني بدلاً منك.

- قلت لك لن ينفع ذلك في شيء حتى لو برأتني المحكمة؟

- لماذا؟

- لأنني خسرت ما هو أهم من الحرية.

- أفصح عما يجيش بصدرك.

- خسرت صديقاً كان مثل أخ لي؟

- هل تقصد أنك لن تسامحني؟

- لو لم تكن صديقي لسامحتك، لكن لأنك كنت أفضل صديق لي، لن أسامحك عما حصل.
- أنا أشعر بمرارة غضبك، وأتقبل كل ما تقوله. اشتمني.. اضربني، لكن سامحني. أرجوك.. أقبّل يديك.. سامحني!
- وماذا لو سامحتك؟ هل سيرضى ضميرك؟
- لا.. لا.. لن يرضى، لكن على الأقل أشعر أن صداقتنا ستستمر.
- كيف ستستمر؟ هل تستطيع بعد اليوم أن تنظر في عيون أطفالي، بعد أن انتزعت أباهم منهم وأودعته السجن؟ ماذا ستقول لهم؟
- أنا مجرم.. سافل.. غدار.. لكني أطمح بمسامحتك؟
- هل جئت تطلب المسامحة لتريح ضميرك، أم لتحافظ بها على صداقة قتلتها بيديك؟
- هل أفهم من ذلك أنك لن تسامحني؟
رفعت صوتي عالياً ليسمعه السجانون:
- أنا السبب.. أنا المجرم الحقيقي. عصام بريء يا عالم. عاصم بريء. أنا المجرم الحقيقي. اسجنوني بدلاً منه.

جاء أحد السجانين يسأل، فأشار إليه عاصم أنني مجنون، وقال له: لا تصدقه. انتهت الزيارة.

مستوطنون

قرر روحي السمان، القاطن في عقبة الخالدية في القدس القديمة، زيارة أقاربه في الأردن صيف العام (٢٠٠٧) بعد انقطاع دام أكثر من عشر سنوات، وقد رأى فيها فرصة للاستراحة من حواجز الجيش الإسرائيلي ومطارداته لأولاده الطلاب الذين يتعرضون باستمرار لاستفزازات دورياته.

وما أن عطل الأولاد من المدارس حتى توجه روحي وعائلته إلى الأردن ليرى التغييرات الهائلة التي حصلت فيها، فالبناء قد اتسع، وحركة السير صارت أكثر ازدحاماً. أهم ما كان يثلج صدره أنه لم يعد يرى جندياً إسرائيلياً يوقفه في الطريق، أو على الحاجز، ليسأله عن بطاقة هويته وإلى أين يتجه، ومن أين جاء...

بعد أسبوعين من وصوله، وبينما كان يجلس مع بعض الأقارب رن جرس هاتفه النقال. نظر إلى الشاشة، فرأى رقم هاتف جاره عز الدين أبو رجب، فاستغرب أن يتصل به جاره، وهو يعلم أنه في الأردن لمدة شهر.
أجاب على المكالمة بسرعة:
- ألو.. السلام عليكم يا عز الدين.
- وعليكم السلام روحي...
- نعم روحي.. كيف حالك؟
- الحق يا روحي.. الحق.
- ماذا جرى يا عز؟
- المستوطنون هجموا على بيتك، وكسروه، واستوطنوا فيه، وادعوا أنك بعتهم إياه.
- ماذا تقول؟ مستوطنون احتلوا البيت؟
- هذا ما حصل، والجيران بعضهم صدّق الخبر، واعتقدوا أنك رحلت إلى الأردن لتترك لهم البيت.
- ماذا تقول؟ أنا...؟ ما هذا الهراء؟ الحمد لله أنك أخبرتني. ألم تخبر أخي سامح؟ ألم تبلغ أصدقائي؟
- روحي.. لقد علمت بالخبر قبل قليل بعد عودتي من العمل. الناس متجمعون أسفل البيت، والمستوطنون هنا بالعشرات يغنون ويرقصون ومعهم أفراد من الجيش.
- وأثاث البيت؟
- لقد رموه بالشارع.
- الكلاب. إلى اللقاء. سأكون عندك اليوم إن استطعت.

أغلق الهاتف، وهب مذعوراً، لبس حذاءه وحمل جوار سفره وأوراقه الرسمية، وقال لأقاربه:
- اعذروني، فقد سيطر المستوطنون على بيتي، وأنا مضطر للعودة إلى القدس.
ثم استدار إلى زوجته، وقال لها:
- الحقي بي فوراً غدا.
فقاطعته:
- المستوطنون؟! البيت؟! يا ويلي منهم. الكلاب، كيف يطردوننا من بيتنا؟
- يدّعون أنني بعتهم البيت. خسئوا ولا بمليون دولار.
هب معه ابن عمه وقال له:
- سأوصلك إلى الجسر بسيارتي هيا.

في المساء كان روحي في القدس. قد اتصل خلال الطريق مع إخوته وطلب منهم التوجه إلى هناك، وعندما وصل كان المئات من المواطنين يتظاهرون أمام البيت، فيما الجيش يقف حاجزاً بينهم وبين المستوطنين اليهود.
اقترب روحي من الجيش والشرر يعلو في وجهه. صرخوا به:
- قف.. إلى أين؟
- إلى بيتي. أنا صاحب البيت الذي احتله المستوطنون.
- بطاقتك؟
قدم لهم بطاقته الشخصية. دققوا فيها، ثم سألوه:
- ألم تبعهم البيت؟
- كلا.. بيتي لن أبيعه.
- لديهم أوراق بتوقيعك أنك بعتهم البيت.
- لم أبع البيت. إنه تزوير.
- لا تستطيع فعل شيء. عليك التوجه غداً إلى المحكمة.
- محكمة؟! تطردوني من بيتي وتريدونني التوجه إلى المحكمة؟

نظر إلى أثاث بيته المرمي بالشارع يبحث فيه عن أوراقه، وصوره، وملابس أطفاله. كان نصف الأثاث غير موجود. سرقوه. من سرقه؟ هل يسأل عن الملابس والبيت كله قد نهب؟!
اقترب منه عز الدين. عانقه، قال له:
- أولاد الحرام سرقوا أثاث البيت. استغلوا مأساتك وسرقوه. بعضهم اعتقد أنك رحلت إلى الأردن بعد بيع بيتك.

فتح الدُّرج يبحث عن سجلات البيت فلم يجد شيئاً.
- أين الأوراق؟ كانت هنا في الخزانة.
- لا بد سرقها المستوطنون. اقترب من صور متناثرة على الأرض، بدأ يجمعها ويقلبها، صور أولاده وهم أطفال. حاول الدخول إلى البيت فمنعه الجنود. فبدأ يصيح كالمجنون:
- هذا بيتي.. بيتي يا عالم.
وبدأ يبكي، وينتحب.
السكان يهتفون:
- الله أكبر.. فلسطين عربية، فلتسقط الصهيونية.

أطلق الجنود عدة عيارات نارية في الهواء، وبدؤوا يدفعون المواطنين الواقفين أمامهم بأعقاب البنادق. وبعد ثوان أطلقوا قنابل الغاز المسيل للدموع على الجموع البعيدة ليفرقوها ما أجبر الناس على التفرق. لكن روحي لم يستسلم، ولم يرحل، وظل مع أخيه سامح بجانب أثاثه المرمي بالشارع. نام بجانبه، ولم يستيقظ إلا بعد إشراق شمس اليوم التالي على أصوات الصحفيين، وبعض مندوبي الهيئات الدولية، والصليب الأحمر.

شرح روحي لكل الوفود ما حصل، وأكد لهم أنه لم يبع بيته، ولن يبيعه، وأنه كان في زيارة لدى أقاربه في الأردن.

في منتصف النهار كان روحي أمام محكمة الصلح الإسرائيلية في القدس مع المحامي ينفي بيع بيته، ويطالب باسترداده من الذين نهبوه جوراً وعدواناً.

المحكمة تطالبه بإبراز أوراقه الرسمية وتؤجل الجلسة لاستدعاء الطرف الآخر.

لم يجد روحي الأوراق في أثاث البيت، وكان عليه التوجه إلى هيئة الطابو، وإلى سجلات الكهرباء، والماء، والضرائب، لجمع ما يثبت ملكيته للبيت، لكن الجلسة امتدت إلى جلسة أخرى، وظل القاضي يؤجلها بناء على طلب المستوطنين. لم يبق الأثاث في الشارع، فقد أجبرته بلدية القدس على نقله، وجمعت ما بقي منه ورمته في الزبالة، وظل علم إسرائيل يرفرف على جدار البيت لمدة عام، فشل فيها المستوطنون في إثبات ملكية البيت، فصدر قرار يجبرهم على إخلائه، وإعادته إلى صاحبه الأصلي.

فرح روحي بقرار المحكمة، لكنه سألهم: ماذا عن أتعاب المحامي؟ ماذا عن أثاث البيت الضائع؟ ماذا عن استئجار بيت جديد ودفع أجرة جديدة كل شهر؟

عاد إلى بيته بعد أن أخرجت المستوطنين قوةٌ من الشرطة ليجد البيت وقد زين من الداخل بالطلاء الأزرق والأبيض (علم إسرائيل)، وفوجئ أنهم خربوا مواسير المياه، والمرحاض، وأسلاك الكهرباء، فجعلوا البيت غير صالح للسكن، فتقدم بشكوى عاجلة ضدهم. سأله القاضي اليهودي:
- ألديك ما يثبت أنهم خربوها؟
- ولكنها كانت تعمل بشكل جيد.
- هل لديك صور قبل انتقالهم للسكن إليها؟
- صور؟ وهل يصور كل مواطن داخل بيته اعتقاداً منه أنه سيقف يوماً مع سارقي البيت في المحكمة؟
- إذاً لا إثبات لديك.
- إنه ظلم.. ظلم!! كيف أسكن بيتاً بدون مياه، ولا مراحيض، ولا كهرباء، ولا هاتف؟ من أين أدفع مصاريف تصليح كل ذلك؟ من أين؟

رحلتي إلى القبر

كنت أعاني من مرض عضال لم يمهلني طويلاً. توقعت أن تنجح العملية الجراحية التي أجريت لي للقضاء على المرض وانتزاعه من جسمي، لكنه كان أقوى مني، فرحلت عن هذه الدنيا هكذا دون إنذار.

سقطت فجأة على الأرض. لم أستطع الحراك، ولا حتى تحريك لساني. كنت أريد أن أصرخ طالباً النجدة، لكني شعرت بالعجز. حاولت تحريك أصابعي فلم تتحرك. حاولت تحريك يدي فلم تتحرك. أيقنت حينها أنني مت، وغادرت تلك الحياة الجميلة. هرولت زوجتي نحوي. رأتني ملقى على الأرض. صرختْ وألقت بجسمها عليّ تحاول أن تحركني. نادتني.. صرخت بي: نديم، حبيبي.
لكني لم أتحرك. كنت أسمعها. أريد أن أرد عليها، لكني أصبت بالشلل.
جاء ابني وابنتي سألاها:
- ما الأمر؟
فقالت لهما:
- اتصلا بسيارة الإسعاف.

بعد فترة لا أعرف مدتها لم أعد أميز الدقائق من الساعات. حاولت استراق النظر لساعتي التي ما زالت على يدي، لكني لم أستطع النظر إليها. لم أعد أر شيئاً. لم أعد أحس بشيء كأنني لا شيء.

دخل الغرفة عدة أشخاص، سمعتهم يتناقشون. بدؤوا بفحصي، وبعد ثوان أقل من دقيقة قال أحدهم لها:
- الله يرحمه.

بدأت زوجتي وأولادي بالصراخ. حاولت إحدى السيدات أن تهدئ من روعها. طالبتها أن تستعين بالله. خرجوا من الغرفة جميعاً بعد أن أطبقوا عليّ الباب.

تركوني وحيداً في الغرفة. أنا الآن ميت. لم أعد موجوداً. ليت أني قبّلتهم قبل موتي. من أين لي أن أعرف ساعة مغادرتي لهذه الدنيا؟ لم أعرف بالموت ولم أحس به، وعمري لم يصل الخمسين بعد، فكيف يهاجمني الموت!
ترى ماذا يفعلون الآن؟ هل يخططون لدفني؟ أين سيدفنونني؟ في باب الأسباط أم في باب الساهرة؟

بعد لحظات فتح الباب. كانوا يدخلون علي أفواجاً يقرؤون الفاتحة. لم أعرفهم كلهم. كنت أميزهم فقط من أصواتهم. إنهم أهلي وأقاربي. كان والدي يبكي قائلاً: رحمك الله يا بني. لم أتوقع أن تسبقني إلى القبر. أما أمي فكانت تبكي كالأطفال. هجمت على ابنتي وضمتها إلى صدرها.

كانت ابنتي مصدومة، لم تعرف ماذا يعني الموت. سألت ماذا يعني أنه مات؟ ألن يعود؟ لقد وعدني أن يشتري لي (سي. دي) لبعض الألعاب على الحاسوب. أبي يفي بوعده. لا أصدق أنه لا يتحرك.
أما ابني، ابن الـ ١٤ سنة، فكان أكثرهم تماسكاً. كان يبكي بصمت، لا يعرف ماذا يقول.

كان الوقت صباحاً، وإكرام الميت في بلادنا دفنه، فبدؤوا يجهزون لغسلي قبل نقلي إلى المقبرة. حضر أحد الشيوخ، وبعض رجال التكفين، نقلوني إلى غرفة أخرى وأخرجوا الجميع من الغرفة. بعد التشاور بين الأهل قرروا أخيراً أن لا يسمح لابني الصغير ولا لابنتي البقاء لحظة غسلي. حاول ابني أن يبقى، فقال له أخي:
- عمي.. لا يصح أن تكون معنا أثناء غسله. بعد أن ننتهي ستكون أول من نسمح له بالدخول. فخرج باكياً.
غسلوني، وكفنوني. قال لي أبي:
- نديم.. سلم على جدك في الجنة، وقل له إنني اشتقت إليه.
قبّلني والدي في جبهتي. سمعت بكاءه. كان أخي يحاول أن يخفف عنه، لكنه فجأة انفجر باكياً وقال لي:
- الوداع يا أخي.. سامحني إن أذنبت بحقك.. سامحني فأنت أخي الكبير. سأفتقدك، فقد أصبحت الآن وحيداً دون أخ أو أخت.

بعد أن جهزوني وكفنوني بالكفن، لم يبق إلا وجهي ظاهراً. سمحوا للآخرين بالدخول. دخل ابني يناديني:
- أبي.. أبي.. أبي.
هجم علي كالمجنون.
- ماذا فعلتم به؟ لماذا قيدتموه؟
أمسكه أخي واحتضنه، فحاول أن يمسح الدموع عن عينيه. كان يناديني:

- أبي.. لماذا تركتني؟ لماذا الآن؟ أنا بحاجة إليك. لمن أشكو الآن إذا واجهت مشكلة؟ بمن أستنجد إن احتجت لحماية؟ ممن سأطلب مصروفي؟ من سيرسلني إلى الجامعة؟ أبي.. حبيبي.. لماذا تركتني يتيماً؟
قال له أبي:
- يا جدي.. اصبر، فأبوك ذاهب إلى الجنة.
- الجنة؟ ولماذا يتركنا ويرحل إلى الجنة؟
- يا بني.. هذه إرادة الله. ادع له بالمغفرة والثواب.
نظر إلي ابني وقال:
- الله يرحمك يا أبي.. الله يغفر لك.

بعد انتهاء الرجال تتابعت النساء بالدخول إلى الغرفة تتقدمهن زوجتي وابنتي. كانت زوجتي حزينة. قبّلتني وقالت:
- الله يرحمك ويحسن إليك.
لم تتمالك نفسها، فاحتضنتها أمها وقالت لها:
- عظم الله أجرك. البركة في ابنك وابنتك.
ابنتي بكت كأمها وظلت تردد سؤالها:
- متى سيعود أبي؟ لماذا مات؟
احتضنتها أمي وقالت لها:
- أبوك سيعود عندما تصبحين عروساً.
- صحيح؟
- نعم.
- لكن لماذا تركنا؟
آه كم كان بودي لو أرد عليها. أقول لها الحقيقة؛ إنني لن أعود. لن أراها في هذه الدنيا. ما أقسى الموت! جربت الغربة، وجربت السجن، وجربت المرض، لكني أعترف لكم أن الموت أصعب من كل هؤلاء.

عند الظهر حملوني في النعش، وساروا باتجاه السيارة التي نقلتني إلى المسجد الأقصى. سمعتهم يتحدثون أن الدفن سيكون ساعة العصر في مقبرة باب الأسباط. هل كانوا يعرفون أنها أحب المقابر إلى قلبي فهي أقربهم إلى المسجد الأقصى، وأقربهم إلى البلدة القديمة حيث ولدت وعشت معظم حياتي؟ إنها المقبرة المحاذية للباب الذي دخل منه عمر بن الخطاب فاتحاً. كانت جدتي رحمها الله تقول لي:
- يا بني من هنا دخل عمر، ومن هنا سيأتي فاتح القدس الجديد.
- كيف عرفت يا جدتي؟
فكانت ترد قائلة:
- إنها رؤيا رأيتها في منامي.

بعض الأحلام مجرد خرافات، لكن على الرغم من ذلك، فبعض الخرافات تكون محببة للقلب.

الناس الذي توافدوا للمشاركة في الجنازة يتجمعون في ساحة المسجد الأقصى، بعضهم حضر محبة، وآخرون جاؤوا مجاملة لأصدقائهم من الأهل والأقارب، تلك عاداتنا، الناس تتضامن معاً في الموت، وفي الأفراح.

ها هم يصطفون خلف النعش يتقدمهم إمام المسجد الأقصى، يصلون علي صلاة الميت.
- الله أكبر.

انتهت الصلاة. تسابق الرجال لحملي على أكتافهم، وساروا في موكب طويل إلى مقبرة باب الأسباط يتقدمهم حملة الأكاليل، وخلف النعش الأهل والأصدقاء يتقدمهم أبي وأخي وابنتي وخلفهم الرجال من الأهل والأصدقاء أما زوجتي فكانت مع النساء في الخلف، مع أمي وحماتي وقريباتي. ها أنا محمول على الأكتاف ليس إلى القصر الملكي كما كانت تحمل الملوك في قديم الزمان، ولكن إلى المقبرة... تذكرت كلام أبي لي دائماً عندما كان يدعوني إلى الصلاة: يا بني تذكّر يوم تحمل على أكتاف الرجال!

ها أنا يا والدي أُحمل على أكتافهم. إنهم ينقلونني إلى المقبرة. يقال إنها المثوى الأخير. هل صحيح أنها المثوى الأخير؟ ألن أنقل بعدها إلى الجنة؟ لا.. لا.. هذا ليس المثوى الأخير، إنه المكان الفاصل بين الحياة والحياة، كأنه قاعة انتظار، انتظار لموعد إقلاع الطائرة إلى الجهة الأخرى. هل سيطول الانتظار؟

وصلوا إلى المقبرة. كان القبر جاهزاً، محفوراً ومعداً لدفني فيه. إنه نفس القبر الذي دفن فيه جدي قبل خمس وعشرين سنة. لم يبق فيه سوى رميم عظامه التي وضعوها جانباً، أنزلوني من على أكتافهم. كنت في التابوت ووجهي إلى السماء. كنت ملفوفاً بعلم فلسطين كما يلف الشهداء. قالوا: من مات في فلسطين فهو شهيد، لأنه لم يهاجر منها ولم يغادرها على الرغم من كل إجراءات القمع والأسرلة.

اقترب مني بعض الأقارب لإلقاء نظرة الوداع. كان أخي يمسك يد ابني ويهدئ من روعه، وكانت أمي تمسك يد ابنتي وتعيد على مسامعها:
- أبوك سيعود عندما تصبحين عروساً.

عندما انتهى الجميع من إلقاء نظرة الوداع، اقترب أخي وحملني من رأسي من النعش فيما حملني آخرون من أماكن أخرى وأنزلوني في القبر بسلام وسط وجوم ابني وبكائه، لكن والدي أصر على سحب ابنتي بعيداً عن القبر.

- لماذا يا والدي؟ لماذا لا تريد أن تسمح لابنتي برؤيتي في تلك اللحظة؟ أعلم أنك تخاف على مشاعرها من الانهيار. إنها اللحظة الأصعب في حياة الأطفال. بعد أن أصبحت داخل القبر، حمل بعض الأقارب المجارف ليهيلوا علي التراب، فصرخ ابني بأعلى صوته:
- لا.. لا.. لا.. لا...
تمسمر الجميع: هجم أخي على ابني ليحتضنه:
- حبيبي.
وأشار إليهم أن يتوقفوا قليلاً. بعد أن ربت على كتفيه وقبّله سأله:
- ألا تريد الراحة لأبيك؟
- نعم.
- إذاً ادع له بالمغفرة.
- ليغفر الله له. عمي.. أريد أن أهيل عليه أول ذرات من التراب بنفسي.
نظر إليه أخي وقال له:
- سأهيله معك.
اقترب ابني من القبر، وحمل بكلتا يديه بعض التراب. قبّله ونثره فوقي، وكذلك فعل أخي، ثم أشار إلى أقاربي أن يكملوا البقية.

أنا الآن في القبر، مظلم موحش، لا أنيس، ولا قريب. كانت أول ليلة تمر عليّ. فعلاً الموت أصعب شيء يواجه الإنسان.

اقترب الصباح. بدأت الشمس ترسل أشعتها تدعو الناس لكي يهبّوا إلى أعمالهم. فجأة سمعت وقع أقدام فوق القبر، ترى من القادم؟

إنه هو.. نعم هو. لقد عرفته من صوته. كان ابني يقرأ على قبري سورة الفاتحة، وفجأة سمعت صوت أمه وأخته جاؤوا جميعا ليزوروني كأنهم افتقدوني، ربما لم يشعروا بعد بغيابي، أو كأنهم لم يقتنعوا بموتي، واعتقدوا أنني انتظرهم هناك لأسمع أصواتهم. بعد انتهائهم من قراءة الفاتحة، بدأ ابني يخاطبني بصوت يسمعه المارة:
- أبي حبيبي متى ستعود؟ أنا أحبك. أنا حزين لأنك رحلت. كنت أريدك أن تكون معي عندما أتخرج من المدرسة، وكنت أتمنى أن تحتفل معي بيوم تخرجي من الجامعة. الله يرحمك يا والدي، ويسكنك فسيح جناته. أنا لن أنساك أبداً. ستظل معي ما دمت حياً.

بعده بدأت زوجتي تخاطبني:

- حبيبي.. إلى جنة الخلد. مكانك في البيت لم يتغير. صورتك ما تزال على الحائط. لقد تركت فراغاً لن يملأه أحد.

أما ابنتي فاقتربت مني وقالت:
- أبي مع السلامة. أنا أحبك.. أنا حزينة لفراقك. سأنتظرك عندما تعود. قالت لي جدتي إنك ستعود عندما أصبح عروساً، وأنا سأنتظرك. أنت أعظم أب.. أنت كل دنياي.
وأجهشت بالبكاء.

ودّعوني جميعاً وغادروا. كنت أتمنى لو أرد لهم التحية لو أقول لهم شيئا، لو أقول لهم فقط كلمة واحدة، أحبكم، لكني لم أستطع التحدث لم أستطع التحرك فأنا لم أعد من سكان الأرض، أنا الآن في قاعة انتظار طويلة، قاعة من يدخلها لا يخرج منها إلا من الباب الآخر بالاتجاه الآخر.

ليتهم انتظروا أكثر، ليتهم ظلوا معي لفترة أطول، على الأقل سأسمع أصواتهم، لماذا يبكي الأهل فوق قبور أحبائهم فيثيرون أحزانهم ويزيدونهم غما على غم؟ لماذا لا يخاطبونهم بكلمات جميلة يخففون عنهم رحلة العذاب في القبر؟

بعد لحظات من فراقهم، سمعت وقع أقدام أخرى. هل عادوا؟ لا. وقف رجلان لكثرة الأكاليل على قبري، سمعت أحدهم يقول للآخر:
- انظر هذه الأكاليل الجميلة.
فقال له الآخر:
- ليرحم الله صاحبها.
توقفا بجانب قبري، قال الأول للثاني:
- هل تعرف، لماذا لا نأخذ إحدى هذه الأكاليل؟
- وماذا سنفعل بها؟
- نزيل الورقة التي تحمل اسم المتبرع، ونضع اسمنا واسم الميت الذي سنزوره الآن.
- نظر إليه الثاني مستغرباً وقال له:
- يا رجل.. أنسرق الموتى؟
- نحن لا نسرق أحداً. إنها أكاليل ستذبل وتنقل إلى المزبلة.
- ولكن أصحابها اشتروها لهذا الميت رحمه الله.
- يا رجل.. ماذا سيجري لو نقص إكليل؟
هز الثاني رأسه وقال:
- أنت الذي سيحمل الذنب؟

- أنا الذي سيحمله.

حملا الإكليل وغادرا المكان.
كدت أن أنفجر بالضحك، لكن كيف لي أن أضحك؟!
حتى أكاليل الموتى ثمة من يفكر بسرقتها! آه لو يتعظ الناس من الموت. ألم يأخذوا العبرة من الأموات الذين لم يأخذوا معهم شيئاً عندما غادروا الدنيا؟

بعد أيام لم أدر عددها، شعرت أن القبر انفتح، وأن أحداً حملني وطار بي. حاولت أن أرى شيئاً، لكن عيوني كانت مغمضة، فلم أر شيئاً، ولم أحس شيئاً. فجأة دبت في الحياة. فتحت عيوني لأجد نفسي في مكان جميل.
هل أنا في حلم؟ الموتى لا يحلمون؟ سألت أحد المارين في الطريق فقال لي:
- أنت في الطريق إلى الجنة.
- أنا؟
- ما دامت هذه هي الطريق، فكيف تكون الجنة؟
تركني وذهب في حاله...

تساءلت متى سأصل إلى الجنة؟ كنت كالطائر السابح في الفضاء. كنت أطير بدون جناحين، ودون أن أحرك يدي. ما الذي يحركني؟ سألت شخصاً آخر:
- متى سنصل إلى الجنة؟
- الطريق إلى الجنة طويل. هل بدأت تشعر بالملل؟ لماذا أنتم سكان الأرض على عجلة من أمركم؟
إنه صادق. أحياناً نقضي ساعات في لعبة الورق دون فائدة فيما نتذمر عندما ننتظر في طابور لعدة دقائق نتسابق. كل منا يريد أن يكون الأول حتى لا يتأخر عن مشاهدة مسلسل، أو سماع نشرة أخبار.

دخلت باب الجنة بعدما وصلتها. لم أجد حارساً على بابها، لماذا؟ ألا يخافون أن يدخلها أحد متسللاً؟
سمعت ضحكة لم أر صاحبها. التفت حولي فلم أجد أحداً. فجأة سمعت هاتفاً يقول:
- هذه الجنة لا يدخلها إلا المؤمنون...
- المؤمنون؟ إذاً أنا أحدهم. الحمد لله.. الحمد لله.. لقد نجحت في امتحان الدنيا.

كنت لا أفكر بغير زوجتي وابني وابنتي وأمي وأبي وأخي. نعم.. كانت الجنة جميلة، رأيت الحوريات التي سمعت عنها في كل مكان، لكنها لم تثر فضولي. ترى ما أخبار زوجتي؟ كيف حال ابني وابنتي؟ ليتني أستطيع أن أكتب لهم؟ ليتني أستطع أن أراهم؟
سمعت الصوت نفسه:
- هل تريد التحدث إليهم؟

- نعم.
- حسناً.. اجلس تحت هذه الشجرة وانتظر حتى يصبح ظلها فوقك حينها تحدث إليهم.
- كيف؟
- في تلك الساعة سيكون قد انتصف الليل عليهم وناموا. سيرونك في المنام. قل لهم ما تريد.
- حقاً؟
- أتشك في ذلك؟
- كلا، لكني لم أجرب ذلك من قبل.

انتظرت حتى أصبح ظل الشجرة فوقي. فجأة ظهرت أمامي شاشة كبيرة تشبه شاشة الكمبيوتر لكنها بدون لوحة مفاتيح ولا ماوس. كانت الشاشة معتمة، وفجأة ظهرت زوجتي نائمة في غرفتها، وابني في غرفته، وابنتي في غرفتها، كلهم يغطون في نوم عميق.
قلت لهم:
- أحبائي.. اشتقت لكم، أحبكم جميعاً. أنا الآن في الجنة. أنتظركم. اشتقت إليكم وأنا في القبر. اشتقت لآهاتكم، ولصرخاتكم، ولأناتكم.
لا تقنطوا من رحمة الله. ستجدوني دائماً معكم. حبيبي أحمد.. تابع دراستك. عندما تتخرج من الجامعة سأكون معك، وسأشاهد الحفل من هنا. سأسمع كلماتك، وأراك بملابس التخرج رافعاً رأسك للأعلى. وأنت يا ابنتي، يا أغلى الناس، لن تغيبي عني، سأدعو الله دائماً أن يحرسك ويحميك، والآن سأودعكما لأتحدث إلى أمكم.
دعوني أحدثها وحدها. صحيح أنت الآن في عالم آخر، ولكن حتى في الأحلام يوجد أسرار بين الأزواج.
حبيبتي.. غاليتي.. الموت لم يقطع الروابط بيننا أبداً. حوريات الجنة كلها لن تنسيني عيونك الجميلة.
لا يا حبيبتي سأنتظرك هنا. لا أريدك الآن، سأصبر على وجودك في الدنيا فالأولاد بحاجة إليك. لا تتركيهم. أعرف أنك الآن تتحملين العبء الأكبر؛ أنت الآن الأم والأب لهم. وضعك الاقتصادي سيكون صعباً، لكن لا تقنطي من رحمة الله. الدنيا كلها امتحان وهنا نقطف الثمرات. كم أنا مشتاق لك يا زوجتي.. كم أتمنى لو أقبلك، لكن كلما طال فراقنا سيزيد شوقنا.
الجنة؟ إنها جميلة، لكنها بك تكون أجمل.

عادل سالم في سطور

- أديب عربي، ورئيس تحرير "ديوان العرب". مقيم حالياً في الولايات المتحدة.
- ولد في البلدة القديمة من القدس في فلسطين في الأول من تموز/ يوليو (١٩٥٧) في حي (القرمي) الكائن ما بين المسجد الأقصى وكنيسة القيامة.
- أبوه الحاج محمد عبد الرحمن وزوز من مواليد القدس العام ١٩٣٥، وتوفي في الولايات المتحدة العام ٢٠٠٨، وأمه الحاجة آمنة عبد الجواد وزوز مولودة في الخليل العام ١٩٣٩.
- اعتقل من قبل السلطات الإسرائيلية مرتين بتهم سياسية، العام (١٩٧٨)، والعام (١٩٨٢)، حيث أمضى (٣٣) شهراً خلف القضبان، تنقل خلالها بين سجون عديدة منها سجن بئر السبع، وسجن نفحة الصحراوي، وسجن الرملة، وسجن بيت ليد، وغيرها. وساهم مع كتاب آخرين في تطوير الحركة الثقافية في السجن، حيث شارك في تحرير بعض المجلات الاعتقالية المنسوخة باليد بالتعاون.
- فرضت السلطات الإسرائيلية عليه الإقامة الجبرية العام (١٩٨٧) في القدس لمدة ستة أشهر حيث منعته من مغادرة مدينة القدس، وفرضت عليه الإقامة في البيت منذ مغيب الشمس حتى شروقها، وإثبات وجوده يومياً في مقر الشرطة في القشلة في البلدة القديمة.
- عاش عادل سالم طفولته حتى سن الـ ١٩ عاماً في البلدة القديمة من القدس، متنقلاً بين أزقتها وشوارعها الضيقة. وتنقل بين عدة مدارس فيها هي: المدرسة العمرية الابتدائية، ومدرسة دار الأيتام الإسلامية في المرحلة الإعدادية، وأخيرا الكلية الإبراهيمية في المرحلة الثانوية.
- ساهم في مرحلة من مراحل حياته (١٩٧٨- ١٩٨٧) في العمل النقابي الفلسطيني، حيث بادر بتأسيس وإحياء بعض النقابات العمالية في القدس، وكان عضواً في مجلس الاتحاد العام للنقابات العمالية، وشغل لفترة عضوية اللجنة التنفيذية للاتحاد حيث كان مشرف الاتحاد الثقافي.
-شارك العام (١٩٨٨) في ورشة عمل في الأمم المتحدة عن واقع العمال الفلسطينيين تحت الاحتلال.
- شارك في محاضرة عن أوضاع العمال الفلسطينيين في الضفة والقطاع بدعوة من اتحاد العمال الكندي العام (١٩٨٨).
- شارك في العديد من الندوات الشعرية، وتعرض لملاحقة السلطات الإسرائيلية العام (١٩٧٨) بعد قصيدة ألقاها في احتفال جماهيري لمناسبة الأول من أيار في قاعة سينما الحمراء في القدس كان عنوانها: "لن تسقط راية ثورتنا".
- من خلال "ديوان العرب" أسس لمسابقة أدبية عربية سنوية كانت الأولى في الشعر العام (٢٠٠٣)، والثانية في القصة القصيرة العام (٢٠٠٤)، والثالثة في أدب الأطفال العام (٢٠٠٥)، والرابعة في الشعر الحر العام (٢٠٠٧)، والخامسة في مجال الرواية العربية للشباب العام (٢٠١٠)، والسادسة في مجال المجموعة القصصية العام (٢٠١٢).

- ساهم في تأسيس تجمع أدبي فكري للكتاب الفلسطينيين لكنه استقال منه لاحقاً، لغياب النهج الديمقراطي في العمل.
- اعتقل في الولايات المتحدة بتهمة التآمر على مصلحة الضرائب الأمريكية، وسجن لمدة عامين، ومنع من السفر منها لمدة ثماني سنوات.
-كتب في عدة صحف أميركية ناطقة بالعربية من العام (١٩٩١) حتى العام (٢٠٠٢) في شتى شؤون المعرفة والثقافة والأدب والشعر.
- أسس موقع "ديوان العرب" العام (١٩٩٨) الذي يحظى بسمعة طيبة في أوساط المهتمين بالشأن الثقافي والأدبي، ويشغل الآن رئيس التحرير.
- نشر العديد من قصائده ودراساته في مجلات وصحف يومية وشهرية مطبوعة مثل "الفجر الأدبي"، و"الكاتب"، و"الاتحاد"، و"البيادر الأدبي"، و"البيادر السياسي"، و"النهار"، و"الشعب"، و"فلسطين الثورة"، و"الحرية"، و"العودة"، وغيرها.

الإصدارات الأدبية

- صدرت له رواية "قبلة الوداع الأخير" عن المؤسسة العربية للنشر، بيروت، ٢٠١٢م.
- صدرت له رواية "عاشق على أسوار القدس" عن دار الجندي، القدس، ٢٠١٢م.
- صدرت له المجموعة قصصية "يحكون في بلادنا" عن مؤسسة شمس للنشر، القاهرة، ٢٠١٢م.
- صدرت له طبعة ثانية من رواية "عناق الأصابع" عن دار الجندي، القدس، ٢٠١٢م.
- صدرت له المجموعة القصصية "يوم ماطر في منيابولس" عن المؤسسة العربية للنشر، بيروت، ٢٠١٢م (تضم المجموعة قصصاً قصيرة عن واقع الجالية العربية في الولايات المتحدة).
- صدرت له روايته الأولى "عناق الأصابع" (رواية الأسرى الفلسطينيين في سجون الاحتلال) عن دار شمس، القاهرة، ٢٠١٠م. (تقع الرواية في ٣٦٨ صفحة من القطع المتوسط).
- صدرت له المجموعة القصصية "ليش ليش يا جارة؟" عن المؤسسة العربية للنشر، بيروت، ٢٠٠٧م. (تقع فير 144 صفحة من القطع المتوسط).
- صدرت له دراسة توثيقية بعنوان "أسرانا خلف القضبان" (دراسة توثيقية عن الأسرى العرب في سجون الاحتلال الصهيوني البغيض) عن دار الكلمة للنشر في مصر، ٢٠٠٦م. (تقع في ٢٢٠ صفحة من الحجم المتوسط.
- صدرت له المجموعة القصصية "العيون الكرت الأخضر" عن المؤسسة العربية للنشر، بيروت، ٢٠٠٦م. (تقع في ٢٨١ صفحة من القطع المتوسط، وتدور حول الجالية العربية المغتربة في الولايات المتحدة الأمريكية).
- صدر له مجموعتان شعريتان هما "عاشق الأرض" العام (١٩٨١)، و"نداء من وراء القضبان" العام ١٩٨٥م.

- صدرت له دراسة بعنوان "الطبقة العاملة الفلسطينية والحركة النقابية في الضفة والقطاع من عام (١٩٦٧) إلى (١٩٨٧)"عن مركز الدراسات العمالية في رام الله، ١٩٩٠م) .تقع الدراسة في (١٥٠) صفحة من القطع الكبير.
- صدرت له الدراسة السابقة نفسها عن المصدر نفسه باللغة الإنجليزية العام ١٩٩١م.
- لديه رواية جاهزة بانتظار الطباعة بعنوان "الحنين إلى المستقبل".